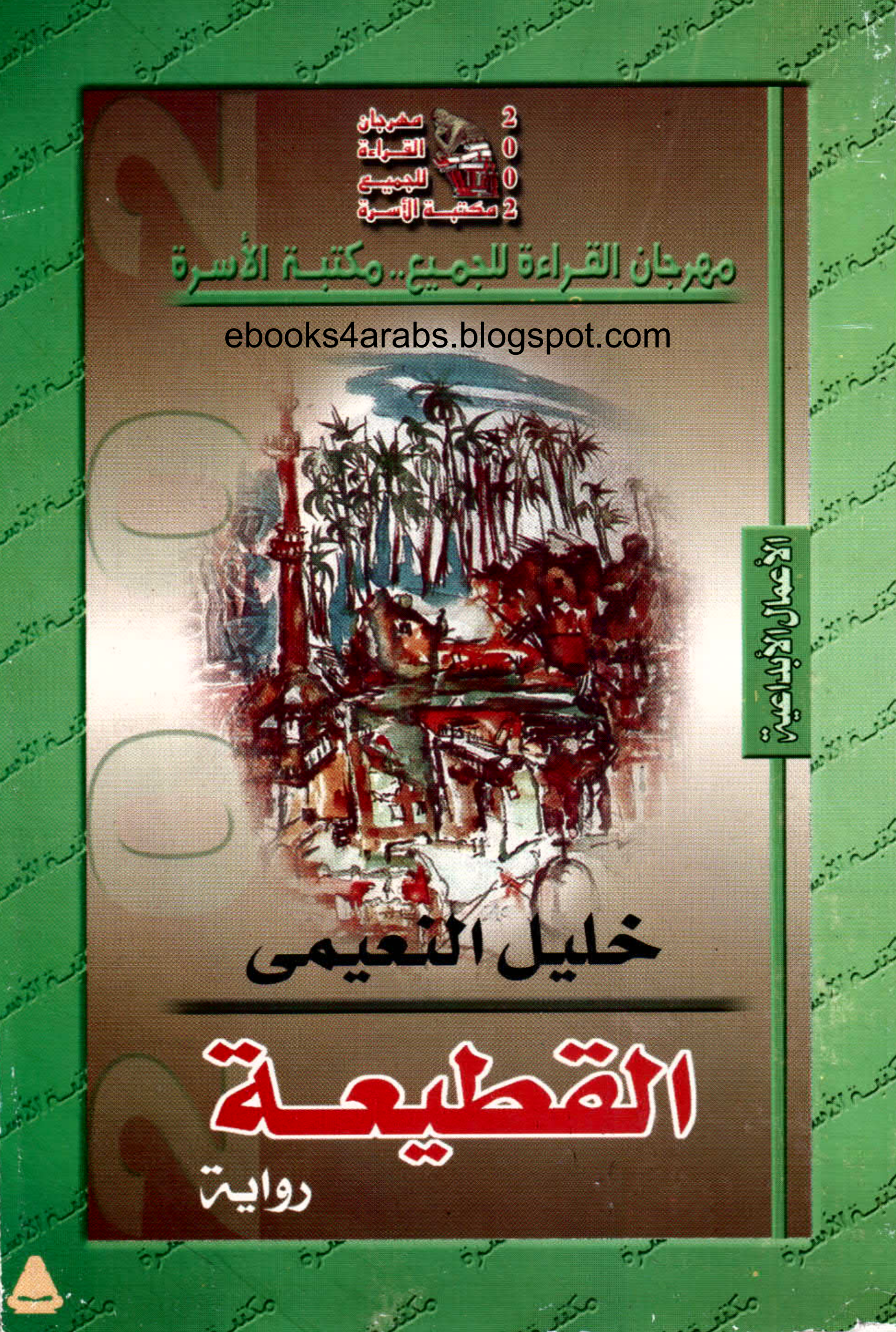


2002
مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع.. مكتبة الأسرة
ebooks4arabs.blogspot.com
الأعمال الإبداعية
خليل النعيمى
القطيعة
رواية

# القطيعة

## لوحة الغلاف للفنانه: تحية حليم

- ولدت فى دنقلة بالسودان عام ١٩١٩.

وفى عام ١٩٤١ درست الفن دراسة حرة على يد الفنان حامد عبدالله، وفى القسم الحر بالفنون الجميلة.

وفى عام ١٩٤٩ اقترنت بالفنان حامد عبدالله وسافرا معا إلى باريس للالتحاق بأكاديمية چوليان وأتمت دراستها فيها.

وفى عام ١٩٥٧ فتحت مرسمها الخاص لبنات الأسر الكبيرة فى الزمالك.

حصلت على جائزة جوجنهايم الدولية عام ١٩٥٨.

- أقامت معارض متعددة لأعمالها فى مصر وفى الخارج فى فرنسا وإنجلترا والسويد والنرويج وهولندا وإيطاليا. وأعمالها مقتناه فى متحف الفن الحديث بالقاهرة ومؤسسة جوجنهايم بأمريكا ومتحف الفنون الجميلة بالإسكندرية ومتحف الفن الحديث باستوكهولم وبمجموعات خاصة فى أوروبا وأمريكا وآسيا ومصر.

وفى عام ١٩٦٩ - حصلت على جائزة الدولة التشجيعية.

وفى عام ١٩٩٨ - حصلت على جائزة الدولة التقديرية.

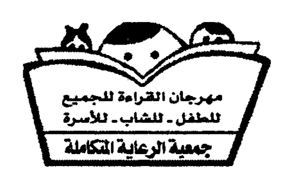
صبرى عبدالواحد

# القطيعة

رواية



خليل النعيمى
تقديم: محمود أمين العالم




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

## مكتبة الأسرة

## برعاية السيدة سوزان مبارك

### سلسلة الأعمال الإبداعية

القطيعة (رواية)

خليل النعيمى

تقديم: محمود أمين العالم

الغلاف

والإشراف الفنى:

**الفنان : محمود الهندى**

**الفنان : صبرى عبدالواحد**

المشرف العام :

**د. سمير سرحان**

**الجهات المشاركة :**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

## علي سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصدارتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان



# من الأنا الذاتى إلى الأنا الموضوعى

## قراءة في رواية «القطيعة» لخليل النعيمي

محمود أمين العالم

كنت أسأل نفسي دائما منذ أن عرفت خليل النعيمي، ما العلاقة بين خليل النعيمي الطبيب الجراح، وخليل النعيمي الروائي، وبخاصة أنه جراح ماهر وروائي متميز، أي أنه يبدع في المجالين دون أن يجور أحدهما علي الآخر؟ هل لأن بينهما تواشجا وتماثلا؟ يبدو أن الأمر كذلك. فما قرأته لخليل النعيمي من روايات قبل هذه الرواية يكاد أن يكون تعبيراً عن قطيعة، وإن يكن مختلفا من حيث البنية الروائية والنسج السردي عن روايته الأخيرة «القطيعة» هكذا قرأت القطيعة في روايته «الرجل الذي أكل نفسه» كما قرأتها في

روايته «الشيء» وقرأتها في روايته «الخلفاء» التي يكاد عنوانها أن يكون تنويعاً علي عنوان روايته الأخيرة «القطيعة» ولهذا تكاد القطيعة بأبعادها ودلالاتها المختلفة النفسية والاجتماعية والأيديولوجية فضلا عن الأسلوبية والبنائية أن تكون رؤية خليل النعيمي للعالم ونصه الأدبي في مواجهة ما هو سائد ومسيطر حوله وداخله، سواء كان واقعاً حياً أو نصوصاً وقيما أدبية وفكرية، ألا يلتقي في هذا، الجراح الأدبي والفكري بالجراح الطبيب؟ كلاهما يقطع ويستأصل ما يراه عائقا دون صحة الجسد وعافيته وتجدده! ولكن.. اذا كان الجراح الطبيب؟ كلاهما يقطع ويستأصل ما يراه عائقا دون صحة الجسد وعافيته وتجدده! ولكن إذا كان الجراح الطبيب يحقق هدفه بقطع هذا الجزء المريض أو ذاك من الجسد الإنساني.، فإن الجراح الأديب الأيديولوجي لا يكتفي بالقطع الجزئي، وإنما يسعي إلي تحقيق القطيعة الجذرية الكلية لقيم وأذواق ومفاهيم ومواقف. ذلك أن القطع في المجال الأيديولوجي والذوقي والإبداعي يكون قطيعة أو لا يكون إلا مجرد توفيق وتلفيق أو تعمية وتجميل خادع. علي أننا في الحالتين ـ قطعاً أو قطيعة ـ نتعامل مع الجسد سواء كان جسدا فردياً أومجتمعاً أو كونياً، في تحققه المادي والحسي والعلمي، أو كان جسداً معنوياً في تحققه الدلالي والقيمي.

لهذا سنجد في رواية «القطيعة» الجسد مهيمنا بهذه الأنحاء والأبعاد والأعماق المختلفة، الفردية والمجتمعية والكونية من ناحية، الدلالية والقيمية من ناحية أخري.

ورواية «القطيعة». هي سيرة حياة، فهكذا تبدأ: «أنا خليل النعيمي». إن الذات هي السيرة لا تتخفيّ وراء شخصية رمزية، أو وراء ضمير متكلم، أو ضمير غائب. بل تجهر بوضوح، وتصرخ وتعترف وتتعري وتتخلي، لكي تقدم رؤيتها الجديدة الصريحة العارية تقول الرواية علي لسان خليل النعيمي في سطورها الأولي: «أخرجُ من البلاد والعباد. أخرجُ إلي العباد والبلاد». إنه يخرج من البلاد ومن الناس، ليعود إلي الناس أولا ومن ثم إلي البلاد. علي أنه في الحقيقة لايخرج من، ولا يخرج إلي، وإنما يخرج أساساً علي. إنها رواية خروج، رواية قطيعة وانخلاع. «أخرج الفار والمسار»، أنه يخرج خروج نبيّ، فالفار والمسار رحلته، ليتناول الكون من أوله - علي حد قوله أي ليبدأ كوناً جديداً من حيث هو مع الناس. يبدأ هذا الكون ويشكله بالبوح الداخلي، ولكنه يتجسد في مفردات الكون، مفردات الواقع الخارجي، بكل ملموساته، ومحسوساته المباشرة البصرية والشمية والحسية والسمعية، إنها سيرة حية لحياة، ولكنها أقرب إلي حياة الفن من حياة الحياة،

وذلك أنها رغم «الأنا» الذاتية الصريحة هي رواية فنية أكثر منها سيرة حياة واقعية، وإن كان كل ما فيها واقعي خشن وحشي في واقعيته.

وهي حكاية بسيطة تجري في حي شعبي هامشي من أحياء مدينة الحسكة السورية. ففي هذا الحي ولد خليل النعيمي وعاش السنوات الأولي من طفولته وشبابه. وفي هذا الحي هناك من يملك ويستبد ويستغل وهو ابن الجليوي. فهو يملك الماء، فيملك الناس والسلطة، يملك المدير والعساكر والمخاتير. ولكن في هذا الحي كذلك هناك الفقراء والجوعي والمذلُّون المهانون. إنها ثنائية ضدية طبقية حادة في إطار طبيعة وحشية ويكبر خليل النعيمي في هذا السياق البشري الطبيعي لأن تبين له في البداية غير صديق حميم هو عباس. وعباس هو لص شريف علي حد قول خليل نفسه في سيرته. ويعمل عباس عند ابن الجليوي. ولكنه سرعان ما يطرد، لامن عمله وحسب، بل من الحياة نفسها، يغتاله رجال ابن الجليوي لأنه تجاسر فأراد أن ينتقم لكرامته من هذا المستبد ومن رجاله ومن وضعه المهين، ونتحرك طوال الرواية في شبكة متداخلة من الأحداث والحكايات والمصادمات الصغيرة، ولا يفارقُنا أبداً اسم عباس الميتّ الحيّ أبداً، إن اسمه ملتصق نابض دائما في نهاية كل

فقرة، كل مشهد، كل حكاية، كل ذكري، كل فكرة. كل محاولة بحث عن عمل، عن لقمة خبز جافة، عن علاقة جسدية، يحاول خليل الالتحاق بالمدرسة أو «المخرسة» كما تسميها الرواية أحيانا. فنحن في المدرسة لا نتعلم ولانتكلم، بل ننصت ونخرس ونتلقي صاغرين. يذهب إي المدرسة حافيا فلا يقبل في البداية، ولكنه في النهاية يصبح واحداً فقيراً من تلاميذها. وتتحرك الرواية بلا حركة، وتتطور بلا تطور.فلا شيء يتحرك في نسق الحياة والعلاقات السائدة. إنما شبكة متصلة من العلاقات من معارف وأصدقاء يتساقط بعضهم ضحايا مثل عباس، ضحايا الفاقة والجوع والعسف، ويختلط الواقع بالخيال، الحقيقة بالوهم. ويكبر خليل وسط هذا التشابك المعقد المرفوض شعوريا ليتحول هذا الرفض الشعوري في النهاية إلي رفض فكري واع ينبثق ويتجسد في مظاهر سياسة شعبية تهتف باسم «أبي عمار» [وهو خالد بكداش أمين عام الحزب الشيوعي السوري]. إنها إذن مظاهرة يقودها الشيوعيون ضد الوضع الظالم السائد. ويتم التصادم الطبقي الحاد بين المظاهرة ورجال الأمن، وتتغلب قوة رجال الأمن، وتسيل دماء ويسقط شهداء، ويتمكن خليل من الإفلات هو وبعض صحبه من قبضتهم، ويمضي باحثا عن الناس الذين يشارك في النضال من أجلهم، وما

أشد ما ينتابه الحزن والدهشة عندما يتبين أنـهم بعيدون، مشغولون بأمور وتسليات أخري صغيرة عابرة وربما بأمل بـعيد، وهكذا يبدأ وجدان خليل يدخل مرحلة وعي جديد غامض يتجسد في سؤال جديد: «من أنت خليل النعيمي.. من أنت». لقد بدأت الرواية بيقين هو «أنا خليل النعيمي»، وانتهت بالتساؤل لا عن «الأنا» بل عن «الأنت» لقد أصبح الأنا أخر، أصبح الذات موضوعاً للتساؤل!

ولكن هذه الحكاية ليست الرواية. فالرواية هي البناء الفني الشامل للرواية، التي تتشكل من بنية مزدوجة ولغة خاصة. البنية الأولي هي بنية سرد فني لأحداث متداخلة مكدسة بكل تفاصيل الحياة وعناصر الوجود الإنساني.والحيواني والنباتي والطبيعي والكوني. أدوات، حيوانات. أفراد، سلطة، عساكر، نفايات، نساء، أطفال، رجال، مياه، أتربة، أحجار، أجساد، أعضاء الأجساد، جوع، بحث عن طعام، عن عمل، قسوة، عنف، حشرات مرض، حمي، قبح، موت، أشجار، طين، علاقات جنسية، شبق، روث، ظلام، فضاء، سلطة قامعة، أناس مقمعون، حفاة، عربات فاخرة.. إلخ.. إلخ. كون تتداخل عناصره المختلفة المتناقضة وتتشابك تشابكا عرضيا أفقيا بما يكشف حدة الاختلاف والتناقض. لنقرأ هذه الصورة مثلا «حيطان بيوت المحافظ المدير والقضاة والأطباء

وقادة الدرك، والكاتب بالعدل ورئيس غرفة الزراعة، وأغنياء البلد، وتجارها وأعيانها وبيت ابن الجليوي ص ٢٧ .

إنها كاميرا تتحرك بالعرض لا بالطول، ولا بالتراكم، يتشابك معها وفيها كل شيء بكل شيء، الجزئيات بالكليات، الأشياء العابرة بالأشياء الدائمة، البشر؛ بالطبيعة بالكون.، تجاور وتداخل وتفاعل بين كل شيء. نكاد نري ونحس ونلمس الأشياء جميعا في وقت واحد. إنه تكدس عرضي أفقي لكل ملموسات ومحسوسات وتناقضات ومفارقات الحياة الحية الجامدة؛ الجميل والقبيح، النبيل والمنحط، العظيم والمبتذل، المقبول والمحرم، المكبوت والمفضوح، المقدس والمدنس،المسموح به والمرفوض. وتبدو الأشياء في تفاصيلها كأنها في عملية إحصائية: البق. الضفادع، الأسماك. الزنابير، الخنافس السود. البق الأبيض، الأسماك الحمر، ومختلف درجات اللون، ومختلف درجات الأصوات، ومختلف درجات المشمومات والملموسات والأشكال والأحجام دون ترابط منطقي عام. الجنس الشبق العارم وممارساته الفجة حتي مع طين الأرض. الإحساس بجسدية كل شيء. جسد المرأة، جسد الرجل، جسد الجاموس، جسد الأرض، جسد الفضاء الغامض، جسد الكون، إنه عالم متشظي. ومتداخل في آن واحد، بلا تراكم ولا اطراد. بل

منعطفات مفاجئة، «وموزايكو» متحرك بلا اتساق وبلا غاية. وجزئيات متناثرة في إطار عالم مثقل برؤية كلية مبهمة مكثفة. ومسافات ومساحات، وفضاءات وحس تاريخي عميق غامض بلا تاريخ. ليس ثمة حكي، بل بناء سردي ضبابي متداخل العناصر تحمله لغة مباشرة خشنة حية، تتجاوز الجماليات البلاغية المعهودة، وتقيم المرادفات غير المألوفة التي تخرج الكلمة من معناها العجمي بتداخلها أو ترادفها مع كلمة أخري مما يعطيها معني مختلفا موحيا. ولهذا فهي لغة داخلية وخارجية في أن واحد. وهي لغة تكاد تشبه سرد تيار اللاشعور، ولكنها في الواقع لغة سرد شعوري حسي لمسي بصري واع مدرك متعقل، يخلط بين الخاص والعام، بين الواقع والقيمة، بين القبح والجمال، بين اللذة والألم، بين الشبق والحرمان، بين الوفرة والفقر بين الشفافية والقذارة، بين النصاعة والقتامة، بين الجسدي والسياسي، بين الإنساني والطبيعي، بين المادي والروحي - إنها ثنائيات مضادة متداخلة دالة علي أنها لغة تؤكد التنوع والتناقض والتفاصيل في كل شيء، كأنها عملية إحصائية لتعدد الأشياء وتكاثرها وتفارقها وتنوع صفاتها. فابن الجليوي هذا المستبد المستغل - علي سبيل المثال

**«تروي زرعه من ماء الخابور. ومن الخابور يشقي**

طرشه وحلاله وحرامه، للناس يبيع ماء الخابور بيعاً، وهو أيضا يحول ماء الخابور إلي أشياء يحولها إلي ألوان، إلي أصباغ، إلي ثلج، إلي بوظة، إلي كازوزة إلي سبيرتو، إلي كحول، إلي حنطة، إلي شعير، إلي معز،إلي دهون، إلي فجل، إلي شوفان، إلي عدس، إلي شوريا، إلي مرق، آه، إلي مرق، المرق الدهين والفضي اللماع المفلفل المبهر المبخر باستمرار. مرق روح الدجاج والبصل والقراص. ذلك كله: الماء. الماء المنشور، أوالماء المنثور، الماء المعبأ أو الماء المخبأ، الماء في قدور، في أحواض. في زجاجات. زجاجات طويلة، مربعة، مستديرة، مضلعة، ذات حنايا أو زوايا أو بلا أركان. زجاجات قعورها نازلة أو مرفوعة، قواعدها بارزة أو خفية، عنقها طويل أو قصير أو لا عنق لها علي الإطلاق. لكل كائن مشروبه، لكل مشروب وعاؤه. لكل وعاء شكله. والكل ماء، ماء يحوي ماء. يحوي ماء، ومن يملك شيئاً يشتر به ماء؟ ماء الخابور الدائر في الفضاء»

إنه عالم متشظي ـ كما ذكرنا ـ بتفاصيله وتنويعاته المختلفة

ومترادفاته وثنائياته ومفارقاته اللغوية المضادة، والفاجعة والموحية والدالة، ولكنه رغم تشظيه وتنويعاته يثير حساً كليا تاريخياً ضبابياً غامضاً، ولكن في داخل هذا العالم المتشظي المتداخل المتشابك الكلي، تخترق لغته السردية المسترسلة، بين حين وآخر، لغة أخري لعالم آخر مغاير. تخترق لغة عقلانية متسقة مرصوفة تصوغ وتبلور عالما من المفاهيم والقيم والقضايا العامة، أو ما يمكن أن نسميه بجوامع الكلم، وهذا ما يشكل أزدواجا في بنية الرواية. وهو ازدواج يختلف عن الازدواج الذي قرأناه في روايات صنع الله ابراهيم: «تلك الرائحة» و«نجمة أغبسطس» و«ذات» فهي ليست ذكريات أو تضمينات نصية مستمدة من نصوص أخري، ولا تكاد تقيم توازيا موضعيا منطقياً مع السر الروائي الذي تختزقه، وإن استطعنا أن نكتشف هذا التوازي الموضعي بشكل غير مباشر، بنية مستقلة عن بنية السرد الحسي الملموس العام في الرواية، وإن تكن في الحقيقة تحمل الدلالة العامة للرواية وتعمقها وتغذيها بدلالاتها الجزئية المتناثرة عبر الرواية كلها. وهي علي تنوعها تؤكد ـ في جوهرها ـ الدلالة العامة للانخلاع عن كل ما هو سائد ثابت سواء كان مفاهيم أو قيما. لنقرأ ـ علي سبيل المثال ـ هذا النص الذي يحدد موقفا من الأخلاق السائدة: «لا تقوم علاقة حسية علي أساس

أخلاقي، والعكس ليس صحيحا» ص ٣١. ولنقرأ كذلك «المأساة أنك لاتزال ترث وضعك الإنساني مبنيا علي أسس أخلاقية، تتمركز بدقة وصرامة حول أخلاق الخضوع (....) الأخلاق دائما استبدادية إما أن تكون أنت لها أو تكون هي عليك» ص ٤٠ ـ ٤١ وهي في جوهرها كذلك دعوة للانخلاع عن كل نظام لنقرأ هذا النص الآخر «لم أخلق لهذا الانسجام. خلقت لأبقي خارج كل نظام» وهي دعوة واضحة حاسمة للقطيعة مع السلطة يقول: «أفضل الطرق لاقتراف القطيعة، القطيعة النهائية التي لا يمكن لأحد بعد الآن استيعابها: القطيعة بين الرعية والراعي» ص ٢٠٣ بل هي دعوة إلي القطيعة المطلقة، يقول «الآن، صرت غريبا غربة مطلقة. هناك.. لم يعد موجوداً، وهنا.. لست عندي.» ص ٨٠ ويقول: «لا يهمني أن أكون أكثر سعادة، ما يهمني أن أكون أكثر جذرية» القضية إذن ليست مجرد تغيير إداري. بل هي تغيير جذري شامل للمنظور كله ـ يقول «فجأة بدا الأمر واضحا وخطيرا. كان علي أن أبحث عن منفذ تاريخي. لاكما سبق وفعلت عن منفذ إداري. ومع أن ذلك يتطلب قلب المنظور كله، إلا أنه منذ وعيته لم يعد له بديل» ص ٤٠ ويقول: «القطيعة لها طعم الحياة والانصياع له طعم الموت.».

إن هذه الجمل الفكرية المبلورة. تخترق السرد الروائي المتدفق المتشابك وتعمق وتغذي دلالته ـ كما ذكرنا ـ دون ارتباط منطقي موضعي مباشر. ولعلنا نجد فصلا هو الفصل الخامس من الرواية يبدأ بعدد من جوامع الكلم هذه. وقد لا نجد علاقة مباشرة بين هذا المدخل الفكري الخالص للفصل، بين أحداثه السردية، وإن وجدنا هذه العلاقة في المجري العام للرواية. ولهذا لاتشكل هذه العبارات الفكرية توازيا منطقيا مع السرد الروائي، بل لعلها لا تشكل كذلك علاقة منطقية مع البنية الحديثة للسرد الروائي الذي يصدر عن طفل يتطور ويكبر ويتكون وينضج عبر الرواية. فهذه العبارات أكبر منه وأعمق من أن تكون قد تبلورت في وجدانه، بل تشكل فلسفة خليل النعيمي المؤلف الذي يكتب سيرته الذاتية وهو في رحلة نضجة الفكري الذي تعبر عنه هذه العبارات الفكرية المبلورة المسكوكة الناضجة. ولهذا ففي إطار نسق روائي تقليدي قد تعد هذه العبارات متناقضة تناقضا صارخا مع حدود وعي السارد في الرواية. ولكنها في هذا النسق الروائي، تشكل سمة من سمات حداثيته. ولهذا فالرواية لا تعبر فقط عن ازدواجية بين السرد والحس الملموس الروائي وهذه العبارات الفكرية المجردة التي تخترق هذا السرد الروائي، بل تشكل كذلك ازدواجية أخري بين

زمن الوعي الذاتي ومستواه في هذا السرد، وزمن الوعي الموضوعي في هذه العبارات الفكرية. وبهذا السرد الروائي غير التراكمي، وبهذين الازدواجين في بنيتها بين الذاتي والموضوعي، بين الحسي والفكري، تتمرد رواية «القطيعة» تمرداً مزدوجاً علي البنية الروائية الكلاسيكية وتشكل ببنيتها نفسها دلالتها الكلية، التي تتمثل في القطيعة التي هي عنوانها وفلسفتها معاً.

علي أن هذه الرواية لا تستقر حتي عند هذه الدلالة وهذه الفلسفة، بل لعلها تنبض بأزمة كتابتها نفسها. إنها تسائل نفسها دائماً، وتتشكك فيما تكتب. يقول:«أحس أن رأسي يابس، ومع ذلك أريد أن أحكي. أن أحكي ما مضي، ولكن أي ماضي؟ هذا؟ أو ذاك؟ الآخر؟ ذلك، كله زيف مطلق وتفسير ملفق لذهنية أكثر تلفيقا من التفسير. لماذا هذا الهذر إذن؟ لماذا هذا الهذر؟» ص ١٠٥ ويقول: أين هذه اللغة الحسية القاصمة التي ثرثرت عنها كثيراً؟! ولماذا يغدو الكلام مبتذلا منذ أن يصير مكتوبا؟ أية رقابة حمقاء تشل قدرتنا النقدية وتحيل اضطرابنا الجسيم إلي إشارات؟ ولم نعيش شيئاً ونكتب شيئاً آخر» ص ١٠٥ ـ ١٠٦ . ولهذا تنتهي الرواية بالتساؤل عن «من أنت خليل النعيمي؟ من أنت؟» إنه ليس تساؤلا عن شخص أو عن فكر أو عن هوية فحسب وإنما عن الكتابة

كذلك؛، وهو انتقال بالسيرة الشخصية من «الأنا الذاتية» إلي «الأنا الموضوعية».

إن رواية «القطيعة» تمثل مرحلة مغايرة في الرواية العربية المعاصرة. لا تكتب لتحكي، أو لتصف أو لتسلي أو لتعظ أو حتي لتنتقد بل لتنقض وتهدم، وتسعي لتحقيق تغيير جذري والقطيعة مع كل ما هو سائد في الرواية والفكر والقيمة والبنية الأدبية،. وهي لا تسعي بكتابتها الخشنة المكدسة المتشابكة إلي إقامة بنية جميلة بل إلي إقامة بنية مغايرة مقلقة محرضة علي التجاوز ولهذا قد يصدق عليها هذه التفرقة التي ميز بها كانط بين الجميل والجليل. فهي ليست الكتابة الجميلة المتسقة والمحدودة العناصر التي تثير الإحساس بالمتعة، وإنما هي الكتابة الغامضة الضبابية التي تثير الإحساس بالرهبة والعذاب قبل الإحساس بالمتعة، علي حد تعبير المفكر الفرنسي ليوتار تفسيرا لحركة ما بعد الحداثة. ولست أعني بهذا أن رواية «القطيعة» تنتسب إلي حركة ما بعد الحداثة. قد نجد بعض قسمات هذه الحركة من رفض للنسق الثابت المستقر في مختلف التجليات الأخلاقية والمجتمعية والفكرية والقيمية عامة، علي أن حركة ما بعد الحداثة كما يعبر عنها ليوتار كذلك تتضمن لحظة ما بعد الحداثة، أي تتضمن لحظة ما قبل

الحداثة ـ أي الكلاسيكية ـ إلي حالة الحداثة نفسها، ولكن دون أن تنتقل إلي حالة الحداثة، بل تظل لحظة انتقال متصلة معلقة، فلا تستقر أبداً علي حال غير حال الرفض والتجاوز المطلقين والقطيعة المتصلة، أي أنها ضد كل استقرار وكل مؤسسة. وهذا ما قد يسم حركة ما بعد الحداثة ـ في تقديري ـ بطابع العدمية. علي أن ما أستشعره من نبض وهم اجتماعيين، ومن حس تاريخي كلي في رواية القطيعة يجعلني استبعد نسبة هذه الرواية كل في رواية القطيعة يجعلني استبعد نسبة هذه الرواية إلي التيار الأدبي لما بعد الحداثة. علي أنه ليس المهم.نسبة هذه الرواية إلي هذا التيار أو ذاك لهذه الحركة أو تلك، فما أكثر الاختلاف اليوم في تحديد معالم المدارس الأدبية، وإنما المهم هو أن رواية «القطيعة» تعد إضافة غنية متميزة يضيفها الجراح الماهر والأديب السوري المتميز خليل النعيمي إلي الرواية العربية المعاصرة.



# القسم الأول

## ( ١ )

أنا خليل النعيمى، من البوادى والسراح. فى الثامنة والخمسين، وسنوات أخر، أخرج. أخرج من البلاد والعباد. أخرج إلى العباد والبلاد. أخرج الغار والمسار. أتذوق الليل. أتمتع النهار. أتناول الكون من أوله. أتملأ بامتعاض قاس، سكون العالم الجاثم، حولى بلا قرار.

سكون؟! توتر وانتظار.

صمت

صوت.

حسٌّ ضَّج غامض.

دبيب هائل. عديد. متواتر. وعنيد.

دبيب القدم القادمة من بعيد؟؟ على ألزق الحائط: الحائط

الصدئ المعمر من حجر الجثان. ألزق، وأنا أحث البصر على اللمح، والبصيرة على المسح. آه! النوء يتغير فجأة. والرغة كذلك. وكذلك الرهبة والانكسار. فى الأفق الساقط بعيدًا، يتراءى لى الزول. والزول يتقدم باستمرار وهولا، هولا، تغدو العتمة زولا: آه، يا هلا ياعباس! وأمام ناظرى المكبوبين يتحنح الزول. ومن جديد، أتهلل قولاً بعد قول: يا هلا يا عباس! العباس يتسلل خلسة من الفضاء إلى المضاء. ينفذ ويروح كما الروح ولا يبقى من الفوت سوى الصوت: آه! على كأس شاى ساخن أزيت به حلقى، آه!

كأس شاى؟! كأس شاى؟! أردد بحرقة واكتئاب. العالم يغدو هبابًا. أحسه يتطاير، أمامى. كذرات التراب المسفوحة فى الريح لاهيئة ولا توضيح. غمام فوق غمام.

العيون تظلم أم الليل؟! هذا الليل الآتى من بعيد، حاملاً أكوام البشر والعجاج، نافخًا فى الجو سماده ورماده. خلاء وظلام. وفى أعمق أفواهى يتدفق الكلام: الكهربا بعيدة. والليل يظلم أكثر فأكثر وباستمرار. والحسكة تستدير «غويران» تمسك به من الذيل. تدفعه بعيدًا عنها. لا تعطيه ضوءها ولا رؤاها. له البر والقتام.

«غويران» العجيب مأوى العمال والدلالين والمتواطئين والمتوترين وبعض البدو والحشرات وبنات ـ آوى والحصينات وآلات الحرث المزتوتة وأكوام الزبل المرمية وحفر الماء والأحجار والأشجار المنخورة والحشيش. به، تتجاور مقالع الجثان التى انبتت منها الحسكة، بيتًا بعد بيت. وعلى وجهه المحفور، تتراصف محارق

الجص والسماد. وتنتشر فى أنحائه مساطب البرغل والعتاد. وهنا وهناك، تتكدس فيه القمامة. قمامة المدينة المضيئة، لصقه، فى الشمال: «الحسكة» الغبراء، ذات المدى الشاسع والنهرين، آه! يا ليل ياعين: من هنا «الجغجغ» ومن هنا «الخابور»! ومن لا يصدق «يثور».

بلى؟ الحفر والقمامة واللمامة والماء، تلك هى مكوناته، وعوامل جذبه للنسوة العابرات. نسوة الاقتراب والانتصاب. حمالات الحطب. مصاصات القصب. أواهات البطحة. الممدات ظهرًا وبطنًا وعلى الأجناب والحنطة تعلو فوقهن: حنطة صفراء ذهبية تميل مع النعماء حيث تميل. حنطة ابن «جليوى» حنطنة ابن الكلب: الحنطة العتيدة التى يخترقها الدرب الضيق. والذى يضيق عامًا بعد عام. تغزوه سنابلها المتوحشة المجنونة. تلك السنابل الطويلة الميالة التى تغشى الأبصار، وتخفى الكون عن الأنظار. الكون اللبق والشيق، الذى نمر فيه جسدًا فوق جسد. والذى، فى فضائه الممتد حتى النهر تتمدد السمراء. تتمدى هوى وخجلاً ولهفة واضطرابًا. تتمدد وفى عينيها اللامعتين تنعكس سماء الجزيرة الزرقاء. الزرقاء حتى الموت. تنعكس فيهما، أيضًا، حركات زنديها الطويلتين وهما يشهلان الثوب. يشمران الجسد الأزرق المشدود.

تكشف ولا تنكشف! تسترها الحنطة الحانية. الحنطة الملعونة التى تعلو القاع والرقاع. والتى يسقط الشهيق فيها على الشهيق. ولا أعود أفيق. وتحمر الحنطة. وتصفر. واللهاث اللحوح، منها، يتلو

اللهـاث: وتتـلامس السنابل الحـمـر الصـفـر المشـحـونة. تتـلامس عـمـيقًا. وتلامس أهدابهـا الشـفـراوية ظهـرى العـارى. تحكنى فى البشـرة حكًا. حكًا! ورهبـة، والسؤال يتلو السؤال: الحنطة حنطتكم؟ لا. أحنا حـواصـيـدهـا.. حـواصـيـدهـا؟! وتقـفـز كـالظبى الذى رأى الصـيـاد. تقـفـز وهى تدفـعنى بعـيـدًا عنهـا. تدفـعنى يدًا، وقـدمًا، وبالأنحـاء جـمـيعًا، وبلا اسـتـثناء وأسـقط على الحصى والتـراب. الخـوف يملؤنى والخراب. صـوتهـا الذى كـان يفـيض بالغبطة صـار عـلامـة الحـبطة والخـواء: يومي دنا يا خـليل. الرجل شـافنا. يا ترا عـافنا؟ ومثل الغـيمـة المفـجـوجة التى تفرغ دفـعة، حـملهـا السـاخط بالماء، صـارت تذوب وهى لم تبـرح المكان. اللعنة! هـى الأخـرى، قـبل الأوان تموت؟! كدت أكسـر جذعهـا المتهـالك. أزتهـا، كلهـا، فى الماء. كنت أريد أن أبلع الحـقل كله. أن أشلع الحنطة وألقى بهـا، مع العـالم، فى الريح. وأن أهيل، بعـد ذلك، التـراب. اخلط القـد بالمد. بهذا السماد المتراكم أمامى، وهذا الحجر والشيح، بمن أصيح الآن. بمن أصيح؟! الخـوف الراعش، الذى حل فى الربع، خـرب الشـهـوة والاحـتـقـان، وكالمعتوهة الحـمـقـاء، انتشلتنى، مـرة أخـرى، من الغيم: سـمـعت حس التتك، الـواردات وصلن. واهتـز كـاليركـان الذى قـارب الانطفـــاء: الورادات؟! ورادات ابـن جـليـــوى. ورادات ابن الكلب. الرافعـات ذيولهن باستمرار. الكاشفات للريح أعضاءهن عليها، تقع الشمس عمودية. عمودية. وبلا قرار، شمس الجزيرة الحارقة، التى تكبل الأنظار، وتمـلأ الأنحـاء شهوة وانتشارًا. وكأننى لم أفهم الحال حـالاً، أعـود، قـبل أن أتدبر الأمـر، أنـط. أنط وأحط. أنط كـالمسـعـور

وبلا اتفاق. وتقع العين على العين. والثيان يهتز ويلتز. وطى رأسك، الورادات وصلن. الوردات اللواتى سرعان ما يردن النهر. يخضن ماءه الموحلة الصماء. تشق المويجات الصغيرة سيقانهن شقا. شقا. هن الأخريات، يبحثن عن الاحتماء والإرتماء! خوضى يا ولى. خوضى. الجزيرة ساكنة وأمينة. والحر يقتل الخنزير. وأكاد أرى الإنطواء والإنضواء: الواحدة تلحق الأخرى. الواحدة تلعق الأخرى! ويروج رأسى يغوص. يغوص فى المفرق اللحيم عميقا.. ولا أعود أسمع إلا النقيق: نقيق الضفادع الخاتلة، مثلنا، فى الاخماج، وصرير الأحياء التى ترد الماء حرى، وعنه، تصدر وهى مثل ذلك! وأصير أضرب الضوء والفضاء. أحمى جذعى العارى من البق. البق اللعين الذى لا يكف ولا يعف. بق ابن جليوى. بق ابن الكلب. وفجأة، كالمسحور، يهجر البق فضاءنا وحمانا. يهجرنا ليلحق السابحة فى البعيد؟ وفى لهب الرطوبة والنار، يصير غاما، يحيط بها، وهى تطين، مثل أنثى الجاموس: شمرا، شمرا، والماء يدفع بجسدها المكتز فى الماء. الماء يضم الساق. يصل الباب. وبالباب يتذهل الماء: يتأخر. يتقدم يتراجع ، ومن ثم يلثم الباب قبل أن يلجه من جديد.

وتكركر الجاموسة. تتكركر، والماء يدخلها، وهى تدخل الماء: زوف المية زينة. حارة. وحلها كثير. وعوداتها تلزق بالجسد والروح. وتومئ من بين الماء، على الورادات: المية هين عجيبة. فيها شىء يدغدغ. وفيها شئ يعض. وفيها ذيول مثل ذيول الخيل. ، والماشفت

تجئ تشوف. ويملأ تنفسها الفضاء. وأحس أشفارها العميقة تتحرك مثل ألسنة الحشرات الملتهمة وهى تداعب الفريسة والقرار. ويظل الماء يرتفع. يرتفع، حتى يغرق الماء فى الماء. ولا يبقى منها إلا الكتفان النافران، تسلقهما الشمس المجنونة سلقًا: شمس الجزيرة العاتية المتسلطة. وخلسة بعد خلسة، أشهل رأسى هائبًا ومريرًا. ألاحق اللعبة والمسار. أتابع الجسد المهيب المستلقى على الماء. ومن خلل الأشجار الخاضعة ببلادة لسلطة الحر والهجير، أتملى الجثوم والحسوم، أتسقط ارتسامات الحائط الأبيض المعمر من حجر الجثان. الحائط المهدد،منذ الأزل، بالسقوط، والذى يبقى، مع ذلك، واقفًا باتزان! وكارغاء المسحور أسمع، فى العمق، بعض لهيجى: جوعان، يمّا جوعان. وسريعًا، يضيع ذلك الغثيان الرتيب فى الضجيج الأصم: ضجيج أحياء الجزيرة المسعورة. الأحياء التى لا تكف عن التكاثر والإلتهام. إحياء الشجر الذى يتشاجر. آكل الجزيرة والريح. الشجر الحارس. نهاره عابس وليله دامس، هو الآخر، صار يصيح، يدل على العابر والسائر. شجر نمام! شجر الجزيرة اللعينة. جزيرة ابن جليوى. جزيرة ابن الكلب. العالم كله لابن جليوى، يا خلق! يا ناس؟! له الخابور. وله الشواطئ والزرياف له الغرب والحِور ومساكب البصل والفجل والرساد. له، أيضًا، حقول الحنطة والشعير ومطشات العدس والأقحوان. له النوء والضوء والماء والرواء. وفجأة ينبثق الدوار: الخوض يتلاحق والسطح يتساحق. وفى الفجوة يتراءى لى

الجلد. وللجلد مرأى آخر! الشجر أخضر. البق أبيض. الخنافس سود. الأسماك حمر العشب أبلق. الماء لحمية. لكن الجلد الطالع والمسحوب له الألوان كلها.

وله الأشكال كلها. ومنه تفوح جميع الروائح والأحماض. الجلد الملعون. جلد الجاموسة الراكبة الماء ركبا. وكالقنفذ العساس أحمى الرأس بالغصن الظليل. وأدع العينين تتسلقان حبال الشمس حتى الغياب، وأنا أتختل بين الشجر الكظيظ: شجر الجزيرة المحمية من هنا ومن هنا بالماء. جزيرة البق اللحوح والضفادع النقاقة وحيايا الماء المسعورة والأسماك النهمة وأحياء الكون الأخرى والزنابير المتوحشة المجنونة. زنابير ابن جليوى. زنابير ابن الكلب. الواحد منها يأخذ الآخر حتى الموت. يركبه. يعضه. يفضه. الثغرواها واها! وهو يرى إلى العينين تمتلكانه امتلاكًا لا حدود له، ولا قيود. وكالهالك، يرد الجسد نفسه إلى الماء. وأحس تكسرات أطرافه المذعورة تدفع الموج، دفعًا، تنأى. تنأى سرايا بعد سراب. وعلى القاع المنكرة اليابسة يسقط الرأس منى صريعًا. وسريعًا. يملأ غبار الوهن جذعى حتى الموت ويصير الخابور شريطًا فضيًا غائمًا، لا ماهية له ولا اسناد. الخابور الجائف. خابور ابن جليوى. خابور ابن الكلب.

ابن جليوى يروى زرعه من الخابور. من الخابور يسقى طرشه وحلاله وحرامه. للناس يبيع ماء لخابور بيعا. وهو، أيضًا، يحوِّل ماء الخابور إلى أشياء! يحولها إلى ألوان. إلى أصباغ، إلى ثلج. إلى

بوظة. إلى كازوز. إلى سبيرتو. إلى كحول. إلى حنطة إلى شعير. إلى مغر. إليى دهون. إلى فجل. إلى شوفان. إلى عدس. إلى شوريا. إلى مرق. آه! إلى مرق المرق. المرق الدهين الفضى اللماع المفلفل المبهر المبخر باستمرار مرق روح الدجاج والبصل والقراص. ذلك كله: الماء! الماء المنشور، أو الماء المنثور. الماء المعبأ أو الماء المخبأ. الـ ماء فى قدور. فى أحواض.. فى زجاجات. زجاجات قعورها نازلة، أو مرفوعة. قواعدها بارزة أو خفية. عنقها طويل أو قصير أو لا عنق لها على الإطلاق. لكل كائن مشروبه. لكل مشروب وعاؤه. لكل وعاء شكله. والكل ماء! ماء يحوى ماء، يحوى مْاء. ومن يملك شيئًا يشتر به الماء، ماء الخابور الداشر فى الفضاء.

آه! عباس لا زال يثوى فى الزواية. يثوى، بانتظار كأس الشاى الساخن الذى لن يراه. حلقه ناشف من الهرب والاغتراب. وكما كل ليل، دلف الليلة، منتظرًا ذلك السائل الأصفر الحار، المخلوط بالقرفة والبهار، المحلى بمصل السكر والزبيب: السائل المريب! الذى يتجرعه جرعة جرعة وهو يدندن أغنياته العذبة المجروحة. أغنيات الوجع والحب والعتاب. وكما كل ليل، تتحنح الليلة، أيضًا، مذكرًا ربعه بوجوده الملتم، ولاطلب يلحق الطلب: ما تغنى يا عباس؟!

وفعلاً، يصير يدمدم. والدمدمة تغدو همهمة. وشيئًا فشيئًا يرتقى الكلام. ينطلق الحس. يدوى الرواق. ويجتمع العشاق، مثل السكارى، مع العشاق. ويظل، من حين إلى آخر، يهتف، عباس: آه على كاس شاى ساخن أزّيت به حلقى، آه! والشاى لا يجئ.. هذا

المســاء لا يجئ الشــاى. ومع ذلك، يظل الكلام ينبــثق مــثل طلق الرشــاريش: كــلام يشلق الحلق. يبــاغت الـرأس، يخــرج من جــوف عــباس ملتاع.ومثل الشــرر الذى ينبئ بالحــريق، ينبئ الكلام باللوع والاحتــراق. يمـلأ اللـيل اضطرابًا الليل القديم الجديد: ليلة الحَسَكَة المستــمـر. وبهدوء، يتناوش عباس القمــر الأبيض الصافى الذى يرى ســاكنًا فى أعــالى الهضــاب، يتناوشــه، وهو يهدهد الكلام بالكلام. فــلا يتحــرك الليل. ولا يتحــرك القــمــر. ولا يخلص الكلام. وتظل الأفــرشــة، كمــا كــانت دائمًا، تخــالط بعـضـهــا بعـضًا: فــراشًا لصق فراش! فى كل فــراش كائنان لكل كائن جسدان. فى كل جســد أربعة أعــضــاء. أعــضــاء تتـشــابك وتتـلابك. ويظل هو وحــده يعــانــى الليل، وحــيدًا. وفـجـأة يتـململ. يقـفـز. يطيـر. وتخلو الزاويـة من كل شئ: منه، من الصوت الغــريب. من الأشـجــار. والأحجــار. والشــاى الســاخن لم يكن قد آتى بعــد. شــاى آخــر الليل: شــاى قبل أن يختفى عــباس. وأرى، من قــريب ومن بعــيــد، لمع قــدمــيــه يلون البــر الكالح.. يلونه بدوائر حمــر نارية مثل لهب التنور: دوائر مــخروطيــة عاجلة. تتبــاعد وتبــتـعــد مــعًا. وهـى تذوب بقـسـوة فى الليل. وفى الليل أخــرج ملومًا محــسـورًا، وأنا أنـده: عــبـاس! وينك ياعبــاس؟ ولا ألـقى الا تكســرات أغنياته المتلاحقة تأتينى هذبا هذبا.

وهَذَّبًا يختفى عباس. عــباس يبحث عن عمل. عم معاش! الحال واقف ومــاء الخــابور مــاشى. مــاء الخــابور الـذى يجـرى وحــيدًا. لا مالك لـه إلا الله وابن جليـوى.. وبقـسـوة أصــرخ من جـديد: عــباس، وينك يا عــباس؟! ولا أرى إلا صفق أجنحة الليل. طيـر الليل الخائف

الوجعان. أصرخ والبلل ياتينى من الجوف. من الحلق. من العين. عباس لا يزال بيتعد. يبحث عن حياة جديدة. عن عشرة جديدة. عن أصحاب جدد. عن أحباب جدد. عن أغنيات جديدة. عباس. عباس! وأحسنى، بهدوء كامل، ألتم بين ذراعين أليفتين: عباس ما هو من ريعك، عباس عامل وانت بالمدرسة. وكالجرذ المذعور انفلت. ألحق عباس المبتعد مع الليل. أحاذى أخاديد الدور الطينية الحائلة: دور غويران العبيط. غويران الذى خله عباس. آه، العالم كله نائم! السكون يملأ القلب ولا أسمع إلا الركض: ركض تنفسى المنهك وأنا أركض باستمرار.. أركض مرتجفًا كالمطلوب دمًا، وأنا أتلمس الحيطان: عباس! وينك يا عباس؟! عباس لا ينام.. عباس لا ينتظر. لا يقعد. ولا يقوم! ومثله أروح وأجئ. ومعى، يروح القمر ويجئ. وكما غاب عباس فجأة وذاب، يذوب القمر، فجأة، ويغيب. يغيب، ويدعنى مع الظلام وحيدًا وحيدًا. وبغيابه تستحيل الحيطان ظلالاً سودا يابسة هابطة من السماء. تغيب الانعكاسات الباهتة التى كانت تنتشر فى الفضاء، أيضًا. ومن عمق الليل إلى عمقه، لا يبقى حولى إلا الكلام: جيت؟! ما قلت لك يا عباس راح. عباس عامل يدور على عيشه، وانت بالمدرسة. آنى بالمدرسة؟ مدرسة ابن جليوى. مدرسة ابن الكلب. مدرسة الماء الموحل والظمآن. ماء الخابور القاحل. خابور الورادات اللواتى لا هم لهن إلا ربط بطونهن بالأحزمة الملونة المجدولة. واللواتى على أكتافهن ترتكز بعناية، قواديس الرى الفضية، ذات الحواف المدورة، المحشورة دائمًا بالماء. الورادات الشبقات الأمارات النفس بالسوء. المالثات الفضضاء

بسيلاتاهن الزنخة، المعروفة من بعيد ـ سيلاتات العرق اللاذع والحماض. من أمتى ما اغتسلت يا خوخة؟ نسيت، ما عدت أدرى وانت يا هبرية؟ آنى أغتسل من الحيض للحيض. من الحيض للحيض؟! والخابور يجرى عويلاً. عويلاً. مياهه بنية وحلاء. يغيض صيفًا. يفيض شتاء. وهو كله متروك لابن جليوى. متروك لابن الكلب. للتربة التى لا ترتوى. للجيلان لسواقى القطن الطويلة الممدوة حتى السراب: سواقى عباس التى حفرها بزنديه وبث فيها الزرع. والتى، منذ أن بزغ القطن منها وصار جروسا، كل شئ تغير فيها: تغيرت القاع. تغير الهواء. الآخرون تغيروا، كذلك. تغير النهر أيضًا: مهدت الورادات لهن، حوله، مطارح جديدة لغرام، وغدت الواحدة، منهن، تتبطح، وهى تقطف أزهار القطن البارعة، معطية كيانها الخلفى، كله، للريح! خلفها، ينسدل الغول. ينوشها، يحوشها، وشيئًا فشيئًا يدخلها حتى السواء. وماء الخابور ينقص عامًا بعد عام. يذهب به ابن جليوى بعيدًا. بعيدًا. حتى الهضاب. يمرره على السهول، أولا. ومنها، يرفعه عاليًا حتى السماء.. يرسله عبر اسطواناته المعدنية الهائلة أين يشاء. وعامًا بعد عام، حلت الأشياء محل الكائنات: لم يعد ابن جليوى بحاجة إلى عمال. لم يعد بحاجة إلى حفارين.. ولا بحاجة إلى سقائين، صار كالمرار يكفى نفسه بنفسه! وعباس سرى يبحث عن شغل. عن معاش. والشرح يتلو الشرح: العيشة صعبة وانت بالمدرسة. والمعلم يطلب عليك ليرة: ليرة للورق.. ليرة للغرق. ليرة للقرار. ليرة للفرار. ابن جليوى لم يعد بحاجة إلى أحد. الناس سوّتْ له كل شئ. العرب تحوم حوله

مثل البرغش. تأكل الأخضرواليابس. تلقف مايزتّه لها من نفايات وأزيال. حتى بقى حطب القطن اليابس أخذوه! حطب الأغصان الرمادية التى حشناها غصنا، غصنا. ونتفنا ريشها الأبيض الناعم ريشة. ريشة.. الريش الذى وقفنا محسورين ونحن نراه يحمل حملا بعد حمل. يحمل، بعيدًا عنا، إلى المدن النائية التى لم نرها قط: حلب والشام وحمص وحماة. بلى! المعلم يا وليدى بدّه ليرة.. والليرة بدها شغل. والشغل عند ابن جليوى وابن جليوى ما يريد. وعباس سرى أول الليل. سرى يدور على شغل ابن جليوى كفاه الخابور. خابور ابن الكلب. حتى المية صارت علينا! وأؤكد باكتئاب: سرى من أول الليل! وفى كيانى الخفى تتفاعل طعوم أغنياته. أغنيات منتصف الليل. تتفاعل وهى تتلاشى، مثل عرق العمال المستريحين مساء: رويدًا رويدًا وبانتظام.. تتلاشى، وهو يقودنى من اليد إلى اليدد: تودينى وين يا عباس؟ تعال. تعال أسولف لك. وسريعًا نختفى وراء الدور. وعلى كتف العلوة نقف جنبًا إلى جنب. ويتطلع عباس إلى الغروب: الشمس تقع فى الوجه. الفئ يمشى وراء. والسكون شديد الوطأ وقاتل. وأحس كوعه يالمس زندى: ضربته بالكاروك على رأسه وانهزمت. واجفل جفلا. جفلا: ليش ياعباس؟! ليش؟! ويحسنى: عباس من المفصل إلى المفصل، وعيناه تقعان فى قارة الضوء الآخذ بالذوبان: مرت الزينة وآنى أسقى القاع. ورفعت ظهرى أدحق بيها .وانكسرت الساقية. وسالت المية على القواطيع وهجمت على المية مثل السبع أردها عن البر. وصمت عباس.. صمت المحيط كله. كانت الشمس لاتزال تولى

الأدبار.وتنفس عباس عميقًا . وهزنى، هزنى بعنف. كاد يقطع وصلا من أوصالى: وامتلأت البرية ضحكًا وصخبًا . الزينة تدحق على، وأنا أأدير المى. وسمعتها تقول: شوفى، ويا ولى، شوفى حنية ظهره مثل كتف الشعيب. وسكت عباس. كان الدمع يتجمع فى المقل السود المسمومة. مقل غباس الحمر اللاهية. وبعدين يا عباس. وبعدين؟ وما أدرى، لا والكلب ابن الكلب يتفل على وجهى. يدوخنى، والنار تأكلنى أكلا، اه! بس لو ما تفل على وجهى، آه! وما أدرى إلا والكاروك تشق رأسه. والدم منه يسيل ويسيل. ومع الريح اختفيت. اختفيت، وتركته، مثل كوم الحطب، مطروحًا على القاع. وانحنى على النهر عباس. انحنى يتملى النهر الأحمر الموحل وهو يضيع فى بطن الوادى، يتسرب تحت الشجيرات الفضة، البائسة، المحملة بالثمر الردئ. وفجأة غداواقفًا مثل عمود التيل، وتنهداته المستمرة تختلط بالحرارة الراكدة، المقيتة: كلما ألقى شغلا انطرد منه! اشتغل بدراهم يطردونى. اشتغل بلاش يطردونى. ما اشتغل يطردونى. ويبدأ عباس يدمدم من جديد، أغنياته القديمة: غن يا عباس. دخيلك غنّ. أنت كمان تحب الغنا يا عجى؟! المدرسة ما علمتك شىء؟ مدرسة ابن جليوى، مدرسة ابن الكلب. المدرسة اللعينة اللاصقة بالخابور، المحاطة بفضاءات القطن اليابسة المنهوبة، وبالمساحات المزروعة حنطة وشعيرًا. والتى فى هوائها القاحل لا تتردد إلا عبارات القرف والتوبيخ: انت ما عندك مقعد؟! أقعد على الأرض، أستاذ. ويستدير رأس الأستاذ الأصلع الصغير،وهو يسد منخريه الحصانيين بأصابعه المعدنية: أقعدوين

ما بدك، بس ابعد عنى هذه الرائحة. ابعد زنخك عنى. ومن الفوهة السمراء الراجفة، تظل الكلمات تتلاحق فى نسيم العصر. وأحس بجلدى يكش، ويقشعر بدنى مثل بدن العصفور المجروح. عباس ينظر فى الغروب: اليوم كمان أسرى. أدور على شغل. ويغدو لسانى ثقيلاً مثل الصوف المبلول: أريد أن أقول له شيئًا، ولا أقول!

وأعطى وجهى كله للتراب. ويتنحنح عباس من جديد:

آه على كاس شاى ساخن أزيت به حلقى، آه! ويروح الصوت بعيدًا. ويجئ الصوت. وتكبر الدنيا. وتصغر ويتجمع الكون كله، ويتلاشى. ويغدو الخابور خيطًا من الوبر.. لينًا، متينًا. ولا يكف عن السيلان. وتستقبلنى القاع بصمت. دون احتجاج أو لحاجة. وأستدير فوقها. وتستدير. وانظرها بعينين متوحشتين، ولا أرى إلا الضياء الباهر، والفعل العنيف. وشيئًا فشيئًا أفتح فمى كفم الزقزوق،وأحس رأسى مدكوكًا. يجثم الشئ الهائل فوقه، باستمرار: شئ معتم. فاغر فاه. وبلا قرار! وأجدنى أختنق. لا يفيدنى التململ والحوصان شيئًا: الشئ الغريب يحيط بى إحاطة السوار بالمعصم. ومن هنان وهناك، يجللنى العرق والنز. عرق العصر الشديد، وهو يسقى ثنايا الأرض ثنية ثنية: دير المى هين. ودى المية هناك. سد الجال. اقطع المية. اقطعها: الأرض ارتوت. الأرض إلتوت.

إلتوت؟! وأفز. أفز: عيونك حمر مثل الدم! فراش عباس خال. الأفرشة الأخرى يدفئها الفساء والضراط: فسءء الفجل الحار، وضراط العدس الثخين. ومثل الديك الصغير أنط تاركًا كل المكان.

وعلى صخرة الجثان البيضاء البعيدة أقف. أمد عنقى إلى الأفق. أرى فى العرش ضباب الشمس التى ستطلع بعد قليل: أبيض نحاسيًا، بطئ اللمعان. وأرسل بدنى كله اليها. استقبل طلائعها النفاذة. أتنشق، عميقًا، هبوب الفجر النقى. ودفعة واحدة، أستدير اه! غوبران كله يجثم، تحت الفجر، فى الوادى الملئ خراء وأحجارًا ونفايات. تلفه غفوة عميقة، طويلة، ويائسة. أحصنة السقائين لا زالت تهمهم فى مرابطها. ودواب هميدى، لا زالت مربوطة إلى معالفها. وبناته العديدات لم يبدأن، بعد، حركاتهن العصابية الفاجرة، التى لا تنم إلا عن عدم الاكتفاء. والحسكة، البلهاء، كلها، مزتوتة على شاطئ الخابور، مثل السمكة المقتولة: لا حس ولا حركة ولا حياة. بها، يحيط قطن ابن جليوى، قطن ابن الكلب: أخضر. نقيًا. شديد الرواء. أغصانه المزهرة تتلاصق بإخاء: بين الغصن والغصن غصن آخر؟! عباس. وعباس سرى يدور على شغل يأكل منه. منه يتجوز. يبنى بيته منه. منه يربى أولاده وأهله والدواب. بس الشغل وين؟! القاع كلها مزروعة، ومحددة.

والعسكر تحمى الحدود؟ عباس.

عيونك حمر مثل الدم. مثل الدم الأحمر الأسود الأصفر.. دم الدجاجات البّرش التى انذبحت، واحدة، إثر أخرى، فى قلب الليل. الدم الذى اندمّ تحت الأرض.

قف. قف للتفتيش.

ويرفع عباس يديه، عاليًا، حتى السماء: ما عندى شئ.

ما عندك شئ!؟ أوصافك تدل عليك.. أسمر. مخطط. طويل. رفيع.

وجهك يُخوّف. فكك يرتجف مثل فك البعير الهائج. علامتك الفارقة: الحقد. عيونك حمر مثل الدم.. مكتوب على جبينك القتل.

قف. قف للتفتيش.

ويقف عباس فى الأرض خاليًا، وغريبًا. ويرفع، يديه عاليًا حتى السماء:

ما عندى شئ. ما عندك شئ!؟ أنت الذى قتلت الكلب، كلب صاحب الأرض، وهربت.

وانت الذى كسرت رأسه، رأس صاحب الأرض، وهربت.

تحقد على الدنيا وأهلها. أوصافك تدل عليك: عيونك حمر مثل الدم. واقفز، صائحًا بهياج: عباس. عباس.

وتتملأنى الوجوه الواجمة، المحبوسة، المحبطة: اشّ كال العَجى!؟ أِشّ كال!؟

العجى يقرأ قصايد.. ما ينام الليل.

ويقترب منى حتى اللماس: القصايد ما تفكك. تعلم الكون: حط لهذا عرقولا، وأضرب الآخر على رأسه، وأطلب البر.

العسكر، مثل أهل البقاع، ما لهم لا أمان. ولا مذهب. ولا دين.

وأخيرًا، تطلع الشمس حمراء مثل الدم: شمس غريبة تنشر،

دون اكتراث، أشعتها الأقحوانية فوق غويران. غويران الطينى الباهت، الذى يبدأ الآن، فقط، تململه، ويقظته.

وأطل، من على، نحو القاع. أستبين الأزوال السود الهائمة التى بدأت تضيئها، أشعة الشمس، تو ا: أزوال غويران النائم باستمرار. وفى الحضيض، أرى الأصوات الحادة المكلومة تمر: صوات الدلالين النابية. بيين أيديهم الشوهاء الجائفة تثغو الخراف المكتوفة. الخراف المجهزة للذبح والتقصيب تثغو. تثغو محتجة، محتجة! ومن أسفل، ألمح أياديهم، تعلو الغبار، مشيرة إلى: شوف العجى، من الفجر واقف على الحجر، مثل الطير! ويختلط، بازائى، روث أحصنة السقائين بالتراب الأسود المفعوس، يتلاحق، خلفها، وهى ترد الماء، حاملة تنكتها البيضاء الصدئة على الكتف مرة، وعلى الكتف الآخر مرة أخرى. ها هى ذى تصعد العلوة بصعوبة. تقف فوقى. تسأنى باعياء: إش بيك يا عجئ من الفجر واقف، وعيونك حمر مثل الدم؟ تسأل. تسأل. ولا أجيب.

وتبتعد فجأة، كما بنت، فجأة، فى الريح.

وتستمر الشمس بالصعود، تضرب أول ما تضرب، صفحة غويران الشرقية الخانلة تحت التل. وبعد، تنير المدرسة، المدرسة المهجورة، قبل أن تسقط على طريق الأسفلت المكسر والمفلوت: طريق النقطة سبع وأربعين. الطريق الذى سلكه عباس يومًا بعد يوم. ومن ثم، يغمر النور وجه التل، كله، باعثًا حرارة فجرية صفراء فى أوصال البياعين، مبدلاً أمزجتهم الغريبة بأمزجة أغرب منها،

وأشد لؤمًا. وأتبع الأشعة النفاذة عبر الواجهات المنشورة، مباشرة، على الطريق. الواجهات المشوقة، المملوءة بالخرز، والنمر، وعناقيد العنب الخريان، وحزم التين اليابس، والأزرار الملونة، وكرات الخيوط الاصطناعية، والدلاء البلاستيكية السود ولفات المرس القنبى، وقطر ميزات السكاكر، والمحمصات البيض، الحمر، البنفسجية. وبفعل أشعة لاشمس الباهرة، هذه، أصير أرى، بوضوح كامل، مجمعات ذروق الذباب، ذروق ذباب الصيف والخريف الفائت: أكوامًا فوق أكوام. وأحس، دون تلاعب، توتر الباعة واستياءهم. وبغموض شديد، أكاد أتبين منهم كلامًا أكثر غموضًا عن الوحدة، وعن أمور أخرى كثيرة، وهم يثرثرون! يثرثرون دون أن يتوقفوا عن إحصاء ما بقى عندهم من سكاسكر وألعاب وآمال وخيبات.

وبرغم بطاءة الشمس، لافت «كهلة» اللوفة واختفت نهائيًا عن الأنظار. الآن، لم يبق، فى فضاء الفجر، إلا نثار أصوات الدلالين، وثغاء أواجهم الحيوانية المرعوبة، يخالطها نهيق الحمالين المقادة باحتقار! وبين هذه وتلك، تتابع أحصنة السقائين سيرها مجهدة. حاملة ماء الخابور من النهر إلى الظهر. صاعدة كنف التل. هابطة بطن الوادى. وابن جليوى بعدها عدا. عدا: المى اليوم غالية. الدنيا مقبلة على حر شديد. يلا يا شباب. عدوا البراميل. عدوها تمام. البرميل بليرة. ومن لا يدفع مقدمًا لا يشرب. وتروح الأحصنة الحمر، الشقر، تجر براميل ماء الخابور السائب تبيعه لحساب ابن جليوى لحساب ابن الكلب. تروح جنوبًا حتى الليلية. وشرقًا حتى

مهاوى الحجر والجص. وغربًا حتى تل غرة. وشمالاً، شمالاً حتى أواخر بيوت كُرّد الحسكة الواطئة المصنوعة من القش والتراب.

وكما كل يوم، على طرف الجسر القديم، جسر العبور الوحيد، تتوقف الأحصنة مصطفة! تتوقف فى خط طويل. طويل، يكاد لا ينتهى. فاسحة، هكذا، فى المجال، لكى تمر سيارة المدير المعدنية الصفراء. مدير الشرطة الجديد، بعمرته المدورة، وأزراره الذهبية اللماعة، وسترته الصوفية المفصلة بعناية وتركيز. على يساره تقعد امرأة باستمرار. امرأة، هى الأخرى، جديدة. يتلون خداها بلون البنفسج والخرنوب. ويتفتح صدرها عن هيكلين غضين، صغيرين، كهياكل أجراس القطن الروى: هياكل صغيرة مدورة وبيضاوية معًا. لدنة طرية وقاسية أيضًا.

ومثل أسعار الغنم، وأخبار المطر، ومواسم الحصاد، واستيلاءات ابن جليوى، على الماء والقاع، انتشرت بين جموع الدلالين والسقائين وأعوانهم وأشباههم، حكمة «طايل» الجديدة هذى للفرجة، بس. عباس.

وتعود كهلة من جديد.. وجهها أصفر مقتول، شديد الإنهاك. تمر بى وهى تهذى: بس يكبر ابنى أحطه بالمدرسة. أعلمه، حتى ولو بعت حالى. وانحدر وراءها شغفًا، تغمرنى الشمس الناهضة من تحت الأرض. تغمرنى، بأشعتها اللطيفة المبهجة.. وأحس بنوع من الشعور بالراحة والاستفزاز: الآن فقط، بدأ غويران النائم يهب من سباته الطويل! واحد ينفض فراشه من التراب. آخر يلف أغطيته

البالية بعضها ببعض. وواحد آخر يرفع فوق أكتافه الواهية كل مفارش العائلة. يرفعها دفعة واحدة، وبلا استقرار! لكأنه فى سباق خفى مع الآخرين. وفجأة يقذف الأرض بحمله العتيق، ويركض عاثرًا نحو البر: الدرك. الدرك. ومثل الخلد القديم يختفى كله، فى القاع! عباس، هو الآخر يركض، الآن. هائمًا فى البر. يتختل من كوم إلى كوم. يمشى ليلا. ينام نهارًا: أخاف أحد يشوفنى. ولد الكلب كلهم متعاونين علينا: العسكر والمخاتير وأهل الخبر. أ! من يقطف عرنوس ينقتل. ومن يسرق دابة ينقتل. ومن ينهب كمشة حنطة ينقتل. ومن يشيل كومًا من الشعير ينقتل. والجوع لا مهرب منه ولا مفر. إن أكلنا نموت. وإن ما أكلنا نموت. الدنيا عوجا. ما عدت أتحمل. الدم. عباس.

الدم يفور أحمر. أسود. مخنفسًا. وخليطًا. لا أصل له. ولا قوام. من قال إن الدم نقى عباس. عباس لا يزال فى البرية يضيع. يشرب الماء والدماء. والبرية كشافة. البرية حمراء صاعقة. مملوءة شوكًا وأحجارًا وموتًا. بها أشياء وأحياء: أشياء كبيرة وصغيرة. وأحياء من كل جنس ولون.. من لون الأرض. ومن لون الحجر والشجر والتراب. من لون الشوك والعشب والسراب. ومن الأوان. جميعها مجتمعة كليًا أو جزئيًا. والموت فى البرية قريب. الموت من هنا أو من هناك. الموت من هذا أو من ذاك. اه الصوت الهائل المريع يتسلل فجأة مع السراب.

قف.. قف للتفتيش.

وترتفع اليدان عاليًا. عاليًا، حتى الموت. وسريعًا، تخفضان إخفاضًا قاسيًا ولئيمًا: نزل أيديك يا كلب.

وبمرارة قاتلة تنزل اليدان. ويأسف واستياء، تطاولان الهيكل الواقف فى العراء: ما عندى شئ.

أسمر. مخطط. طويل. رفيع. من امتى ما كلت، يا كلب؟

تونى أكلت. تونى.

أكلت وين، يا ابن الكلب؟

أكلت وين؟! والخير معبى الدنيا؟!

خير الخرا يا ابن الكلب. باين علىّ وجهك الجوع من سفر سنة.

جوعان وتكذب كمان!

مد إيديك. دير ظهرك. وطى رأسك. اقطع أنفاسك.

ويتلوى كالنمر المصيود، وهو يقضم الخيوط استياء: آه من الجوع والعسكر والمخاتير، آه؟

وبعنف يدفعه الدركى آمرًا إياه بوحشية ولئامة: الحق الحصان، يا حيوان.

وكالمسحور، اتبع الزول. اتبع عباس المكتف والمنتف، وهو يشحط حاله شحطا، لاحقًا أحصنة الدرك والمختار. وراءه انحدر شمالاً إلى الشمال. أنحدر وأنا ألمس حائط الجثان الوسخ بيدى. وأحسه: جافًا. محببًا. مليئًا بالكدمات والثقوب! ويحقد، أشحط عليه

ذراعى، كلها ، شحطًا . وأصير أتلوى من القيح، وأنا أستقبل الماء، والحسكة تستقبلنى من بعيد . سراياها لامعة نظيفة. حيطانها بيض. مائلة إلى الصفار. حديقتها مربعة محروسة. حول زواياها تقوم. عاليًا، أعمدة فضية طويلة . أعمدة معدنية مصقولة، يخر منها النور، خرًا، حتى القاع. منها، تمامًا، يبدأ الجسر: جسر الحديد الوحيد، حيث يمر كل شئ. تمر الدواب العابرة والتائهة والسيارات الكبيرة والصغيرة والنسوة وأحمال الحطب والروث وسطول اللبن والحليب وحمول القش والتبن والقصب والخرنوب. وأيضًا، مدير الشرطة الجديد وامرأته الصغيرة الملونة، سريعة العطب والغثيان. امرأته ذات الخدود الحمر، الخضر، والعيون البنفسجية اللامعة باستمرار - عيون التورط المستديم والرغبة النكوص - والأثداء الصغيرة المرفوعة بعناية حتى الخلق: أثداء القطن الصلدة التى لا تمتع، ولاترضع. على حديد الجسر الضيق، هذا، التصق، أستطيل، أترقق، أدخل بعضى فى بعضى، لتمر سيارة المدير. لتمر بارتياح، دون أن تلمس جزءًا منى! وهذه المرة، يكون وحيدًا . عابسًا . لابسًا حذاءه الأسود الطويل. قاعدًا بتجيح وتصمم. على جسده الهائل، المحشو شحمًا ولحمًا، تلمع أشياء كثيرة. وينعكس وهج لمعانها الأصفر على سحنته وعينيه، كاشفًا لؤم وجهه، وقسوته! ومنذ أن يقطع الجسر، يترجل المدير، ومن ثم يبدأ السير هادئًا ورصينًا . بطنه الكبيرة ترسل أحد يدابها إلى أمام وإلى الجانبين. وأترجل، أنا الآخر، عن الحافة المعدنية الدقيقة: حافة الجسر القديم: ومن بعيد لبعيد،أخوض الساحة، لاحقًا إياه. ماشيًا،

مثله، كالمأخوذ: أنساقًا. أنساقًا. وفجأة تهتز الحيطان كلها: ليش ملاحق المدير يا عجى؟ ليش؟!

وبعد الرجفة، يأخذنى الغثيان: صالح خوفتنى. خوفتنى يا صالح! وأحس بهيكلى ينجر كله، بلاعناء: تودينى وين يا صالح؟ تعال، تعال اسولف لك. وعلى شاطئ النهر المستقيم ننحدر صمتًا صمتًا، حتى القاع. وبانتباه شديد، أتابع جريان الماء: يأتى الخابور من بعيد. من بعيد. يتعرج. وقبل أن يمر تحت الجسر يلامس حيطانن الأسمنت الجميلة.

يلامس حيطان بيوت المحافظ. والمدير. والقضاة. والأطباء. وقائد الدرك. والكاتب بالعدل. ورئيس غرفة الزرعة وأغنياء البلدة. وتجارها. وأعيانها وبيت ابن جليوى، بيت ابن الكلب. وعلى ضفته الشمالية، هناك، فى غابة الحور الكثيفة هذه التى صارت تحاذينا الآن، أحنت المربوعة، بغتة، ظهرها الأبيض السمين. وبتوتر واستعجال، شمرت وكأنها لم تكن ترى أحدًا، صارت تبول!

وأكاد أصرخ: لم تقودنى إلى الماء؟ لم تقودنى؟!

ويظل صامتًا. غامضًا. ورأسه فى التراب! ما تحكى يا صالح؟! ما تغنين؟ ما تغنى؟!

لا. الدنيا صبح، والغنا الصبح حرام. ما تشوف الخابور ساكت. والشجر لاطى. والنوء فيظ. ونوء القيظ ملعون. ما جيت أغنى. جيت أسولف لك. وأظل منصتًا باهتمام: كان الطيف الأبيض

العارى يدور فى رأسى، ونفسى يملؤها الغثيان! غثيان فراغ خبيت يبلنى بلا. بلا. كنت قد بدأت. فى فراغ ذلك الفجر البارد. أحس بأمعائى تتحرك صاخبة مثل العرابيد.

ويضمنى صالح بتعجب وحنان: من امتى ما أكلت؟! منذ البارحة. منذ البارحة فقط. ويقترب منى أكثر فأكثر. يلتصق بى. وفى يهمس، يهمس، بتواطئ غريب:: المطربيات وصلن. وأنط كالممسوس «سيرى» وبنتها؟! إىّ، هى وبنتها. وأتفلت، أزيد أن أطير. أن أعبر الخابور جوا. جوا: صارت رائحة الشواء القديم تفوح. وأخذت، فى وجه الصبح البارد، كسرت الخبز الأبيض، المدهون ببقايا الشحم المحروق، تتراءى لى: وتبدت أمامى الأشياء الأخرى، كلها: بقايا المكولات العديدة المتخالطة باستمرار! وأقفز فعلاً. وفعلاً أريد أن أطير، لكن ذراع صالح الجهنمية تمسك بى. تشدنى تقعدنى أرضًا. ويتطلع إلى. ويعيد التطلع من جديد: بس، لى عليك وصية.

وأعود أقعد. ويحنى هو رأسه، وهو يقول: الناس شافوك. شافونى؟! إىّ، الناس شافوك تأخذ منهن كسر الخبز الملموم من أمام الدكاكين. الخبز البائت الملقوح. وانت تعرف انهن شحاذات. وأنت بن زهرة. وزهرة لا شحاذة. ولا مطربية. الجوع، يا خليل، ما يدوم.

ودفعة واحدة، تختلط الأمور على. تختلط الاختلاط كله. ولا أعود أفقه شيئًا.

وأكاد أبكى؟. وأبكى فعلاً. أبكى كثيرًا. أكثر كثيرًا من الكثير. ويرى دموعى بيضًا حبيبة، مثل اللآلئ. وينفض، بحسافة واستياء، يديه وهو يخبئ، هو الآخر،وجهه وعينيه. آه! لأول مرة، أحسست أننى عار. عار تمامًا. وكالمسحور يبدأ العالم حولى بالذوبان. معه، يتلاشى صالح هيبة ووجودًا.

ومثل الطفل الكئيب، أصير أحكى لنفسى. عن نفسى: سيرى رفيقة أمى. وزوجها رفيق أبى. وبنتها رفيقتى وكلنا نأكل من ذلك الخبر: خبز الشوائين والقصابن، الممزوج ببقايا الكباب الدهين الذى عافه الناس. كباب الجزيرة المصنوع ببالغ العناية والترتيب، لشيوخها،وتجارها، وأغنيائها، وأعيانها، وعساكرها ذوى الهياكل الصفر الصحرواية والرؤوس المكشوفة باستمرار عساكرها اللؤماء، الذين لا يأكلون وجباتهم إلا على قارعة الطريق. أمام «مقهى البلور» الوسيط، تمامًا،كانوا يلتهمونها دون اكتراث.ونحن نعد اللقم. لقمة. لقمة؟ عباس. وقبل أن يرتد طرفه إليه، أثب عائدًا إلى الخلف. ويثب معى، هوالآخر: وين رحت يا عجى، وين؟!

وأركض. ألاحقق الخابور، سائرًا باتجاه سيره، هذه المرة. وأرى مياهه البنية الخائرة تدرج ماء فوق ماء. تمر، بانكسار، تحت الجسر المعدنى الصدئ آتية من رأس العين. ذاهبة إلى الفرات. والفرات بعيد. دونه الذُروُ، ذلك السهل الحماد الشاسع، الملئ بالحيايا والتعالب والأفاعى والهوام. الحماد الذى خوفونى به، كثيرًا. وخوفوا به، عباس: حماد آبارالمياه الناضبة، ورجوم الحجر

الأسود. والشعبان وأحث السير، حثًا. أسرع. أسرع. وأصير من الخلف، أسمع نهيت صالح يركض دونى. وأكاد أير اهتزاز كرشه المخيف، وهو يهرول، محاولاً، دون جدوى، اللحاق بى. كان نوع من الاحتراق الخفى قد بدأ يستبد بى. يجلعنى كالسعيرة. يملؤنى بقدر هائل من الاستياء. قدر لم أعرف له من قبل مثيلاً. وشيئًا فشيئًا، صار صالح السمين يتخلف عنى. وصوت أسرع أكثر فأكثر. وبغته، بدأالندب والصياح: رحت وين يا خليل؟؟ تعال. تعال أسولف لك. ومن دبرى المبتعد أقذف له الكلام تلو الكلام، وأنا أتأرجح فى الريح: تأخرت على المدرسة يا صالح.

تأخرت على المخرسة.

( ٢ )

الآن، لا أعرف لم حدث ذلك، كله، ولا كيف؟ كل ما أعرف هو أن الجو بارد وردئ. وإن السحب البيض، الباهتة، تملأ الفضاء. تملأ الفضاء بحماقة لا حد لها ولا أبعاد. لا. لم تعد بى رغبة للم أشتات البيئة، ولا، لإعادة بنائها من جديد. بيئة تهدمت فلتتهدم، إذن، فلتتهدم! ولكن، لم يلمع البرق تائهًا فى الظلام مثل خيوط النار؟ ابرق الجزيرة القديم يروى زرعها وفرعها، وحناياها؟! ولم توقفت حركة الفكر فى رأسى دفعة واحدة، وباستمرار؟! وهذا الخليط الغامض المجنون لم يتكاثر الآن وكيف؟ ولِمَ صرت أحس أننى بت بعيدًا عن كل شىء وحتى عمن كنته من قبل؟! أنا الآخر، بدأت أنطفئ كما ينطفئ الزبد المرشوش بالماء؟! خراء.

لا تقوم علاقة حسية على أساس أخلاقى، والعكس ليس صحيحًا.

منذ متى بدأ الحصار، إذن؟ وكيف انتهى إلى هذه النهاية المخيفة؟! ولم يعجز الإنسان، دائمًا، عن حل ما يستعصى عليه حله!

الآن، بدأت أدرك، ولأول مرة، إن ذلك لم يكن إلا حقد الحب. حقد الحب الناضب. حقد الحب الكاذب! ولكن، أيكون ذلك ممكنًا، حقًا؟!

لأن لم يعد الأمر سهلاً على الفهم، ولا على الإتقان! ومع ذلك، مددت يدى القوية إلى شعرى، وصرت أشده شدًا، شدًا. لا. لم أكن أعرف كيف أشرح الأمر، بعد. وتبين لى، إننى إن عجزت عن شرحه، فستكون تلك النهاية: النهاية الحقيقية لأوهامى القديمة كلها. لتلك الأشياء الفاسدة البغيضة التى لم أكن أتصور أنها كانت تمتلكنى إلى هذا الحد! ولأول مرة، صرت أشعر إننى بحاجة إلى نجاح. إلى نجاح واحد يغير حياتى الواحدة. ولكم يبدو ذلك بعيدًا عن المنال؟ عباس.

اللعب على الكلمات: لعب على الذات.

الكذب والتظاهر، من تناذر الإحباط.

أضعف ما فى الإنسان هو ضعفه.

يجب ألا أقترف الخطأ التاريخى القاتل: أن أعيش حياة لا أحب أن أعيشها.

آه كيف أختصر التاريخ القديم، كله، بنظرة نقدية، وبسلوك نقدى؟! بعد أن اجتزت النهر، فجأة، توقفت. توقفت ناظرًا إلى

أمام. كنت أغالب رغبة عنيفة فى إلقاء النظرة الأخيرة عليهما. على الهيكلين العتيقين المتراكبين تحت الأغطية الرثة الكثيرة الألوان! ومع ذلك، تطلعت. تطلعت غائمًا،ولمحت الماء يجرى صامتًا، ووحيدًا. وفى البعيد، بدت شطآن النهر خامدة، ميتة، وكسولة.

كان الليل قد بدأ يتبدد لتوه. ولتوه، بدأ الصباح يأتى من الشرق. ومع الصباح الطالع، طلعت، هى الأخرى، وفود الآدميين، وأشباههم.

وبطرف عصاه اليابسة، ندغنى النادوغ: ابعد يا عجى. ابعد، لا تطحنك الخيل. وكالكلب المنهور ابتعدت، فعلاً، وأنا أرمق الرجال. أرمقهم، دون أن أقول شيئًا. وعلى الضفة الأخرى رأيته! رأيته واقفًا وحسيرًا؟ واقفًا يتطلع إلى. وما أن رآنى أتطلع إليه حتى رسم لى فى ريح الصبح البارد، إشارته القديمة نفسها: إشارة العام الفائت. العام الذى فات. الأعوام الأخرى التى لم تكف أبدًا عن الفوتان؟ ومن مكانى البعيد، رأيت يديه السوداوين المُكَمّشين تلوحان لى. ولوحت له من سكونى، ورحت أهرول من جديد.

استيعاب التاريخ القديم: هو التغلب، نهائيًا، على المفهوم الأولى عنه، وإنشاء إدراك نقدى جديد له. إدراك لا يفهمه فحسب، وإنما يكون قادرًا على تحقيره، أيضًا.

كان علىّ أن أصعد المنحدر الترابى، الزلق، قبل أن أحط على الرصيف المكسور. طريقى القديم نفسه! كنت أتمسك بجذوع الشجيرات البنية الباسقة، المغروسة فى عمق الماء، وأنا أتابع القفز

من شجيرة إلى أخرى. ومن جديد، جاءتنى تلويحته تحثنى من بعيد. لكأنه يقذفنى بحجر غير مرئى، يدفعنى بمخازر سحرية ممدودة حتى النخاع: إلى أمام. أمش. أمش. وأحسست بجسدى كله. يقشعر. يتداخل بعضه فى بعض. وكدت، لأول مرة، ألمس كيانى النئ لمسا، بعد أن تكتل، كله، فى أعصابى. كيانى؟! شئ ما، مثل هذا الشئ الذى أكتبه الآن. مثل ذلك الشغف القديم الغامض الذى كنت أحس به يمشى، مشى الأفعى، فى بقايا هيكلى المرتجف الراكض.. والصيحة تتلو الصيحة: المدرسة. المدرسة؟ المخرسة. عباس.

تلك، كانت تجربة حبى الأولى: حبى لى. كنت أحس، وأنا أنطلق قلقًا إلى الأمام، أننى، بعد كل خطوة أخطوها أخلف، على الأرض، جزءًا منى. غريب! انبجاس حس موحش كان يحيط بى! وتوقعت، وأنا أقارب الباب الأصفر الكبير، أننى عانيت ذلك الانبجاس الموحش، مرة أولى، من قبل: المرة الأولى التى رأيت فيها وجهها الأصفر الصغير. والتماعات عينيها. واحتماءاتها بثياب أمها. وأمى تضمهما معًا: «سيرى» تعالى.. تعالى. البنت بردانة. البنت الصفراء السمراء، ذات العيون البيض المدورة، والثياب الخضر الوارفة الألوان. والتى، لأول مرة، إزاءها أدركت معنى أن يكون الشىء موجودًا، خارجًا عنى!

وأفقت مرتجفًا وأنا أقص عليه رؤياى: شفت حالى أمشى، أمشى فى سوق «الدرباسية» وبيدى فانوس، فانوس له ضلوع كثيرة

مثل ضلوع البعير. واحاط بى من الكتف إلى الكتف: لاتحك حلمك لأحد. الله أعطاك العلم. العلم يا وليدى. العلم!

والآن. تأتينى إشارته البعيدة، الصارمة، لتدفع بى بعيدًا إلى التجهيز. حركته الغامضة، تلك، التى تشير، باستمرار إلى ذلك الفانوس، لا تزال تلحق بى! وعلى الشاطئ الآخر،، لم أستطع أن أقاوم رغبتى الحادة فى التوقف، والنظر إلى هناك. وكالأسهم السحرية، عبرت الأشعة المنطلقة من عينى، فضاء الماء. ماء الخابور المعدنية اللزجة. ماء الوادى الأجرب الملحوس. الوادى الذى حاشه ابن جليوى منذ قليل.

عبرت الأشعة ملتقى الأرض والسماء لتستقر، أخيرًا، على يمين التل. التل الذى تستقر على يمينه البيوت الطينية الخاتلة فى الأرض. البيوت المتداخلة دون فواصل أو حواجب أو أنحاء. بيوت غويران الكلسية الواطئة حتى الدم.

وعلى يمين اليمين، للناظر جنوبًا، بدت، أخيرًا، حيطان الدار الأخيرة تستند إلى الفضاء الخالى، غربًا. غربًا، حتى لواعج الجبل البعيد. جبل «عبد العزيز» الصخرى المحدد بالحماد. وقبله، بكثير، رأيت، من جديد، ذلك الدريب الترابى، الذى تحدثت عنه فى رواية «الشئ» من قبل. رأيته يتلوى صاعدًا. هابطًا. نافذًا فى الخلال، مخترقًا ذلك الفضاء الفسيح. فضاء الأرض المحروقة الحمراء. أرض ابن جليوى، أرض ابن الكلب. وفجأة، أحسست بألم موجع يتربص بى! وانطلقت لا ألوى على شئ: انطلقت شمالاً وأنا أخر

خريرًا. وسريعًا، اجتزت المسافة الصغيرة المدلهمة. وصرت أمام السراى. كادت إحدى سيارات الشحن الهائلة أن تفوت بى. سيارة شحن الحنطة والمحاصيل. وكالمطرود، انحرفت غربيًا، آخذًا بجسدى، كله، شارع التجهيز: آه، ها أنذا، الآن، على الأبواب!

أبواب التجهيز صفر. كثيرة. مغلقة كلها، إلا واحد واحد. وعلى الباب الوحيد الذى بدا لعينى طويلاً - أطول من «عذاب» زوجة دريعى الوجعانة - أوقفنى صفاقة: رايح وين؟! وأجفل: على التجهيز أستاذ. ويتطلع بعجب وبلادة إلى. يكاد أن ينفجر الأستاذ. رأيته بأم عينى - كما يقولون - يتمالك نفسه تمالكًا عميقًا. ويهدئ بالعمق، ذاته، من غيظه المكتوم، وهو يتساءل: رايح على التجهيز، حفيان؟! اللعنة! لأول مرة أحسست بوجود قدمى. وأحسست أكثر، أنهما مسئولان عن خلل ما. ولم أقل شيئًا. تطلعت. أنا الآخر، معه، إليهما. ومثله، تمامًا، رأيت، من علِ، جلدهما المحبب الغليظ. عليهما، يتراكم الوسخ طبقات. أصابعهما طويلة معرجة، ذوات حدبيات وأصماخ! واستندت عليهما بكل ثقلى. لكأننى أنتقم منهما العوق. كان قد حل فى الفضاء الصغير صمت غريب. لا، لم أكن أسمع شيئًا غير الهمسة المتواطئة خلفى: الأستاذ يسألك يا ابنى، حفيان ليه؟!

بقيت صامتًا. واقفًا. عارى القدمين والأشياء الأخرى، وأنا أتطلع من وجه إلى وجه: وجه الأستاذ أبيض ناصع دهين. وشعره أسود مزيت بعناية. وأكمامه نظيفة مردودة إلى الخلف. ووجه

المدير سمين، كامل التدوير: وجه بارد جامد، يكاد أن يكون حاقدًا. وتطلعت إليهما، من جديد: إلى قدمى.. إلى الوجهين العابسين المتحديين. وبتحفز وانكسار قلت: نعم أستاذ. ومن بعد حل الصمت. وهجم علىّ الصوت النزق المعصور: شو يعنى، نعم أستاذ؟! كان رأسى قد بدأ يدوخ. ودون تأخير قلت: نعم أستاذ، حفيان، وبدى أروح على التجهيز.

غريب! كم من الممكن أن نكون حزانى، ومضطربين. كم من الممكن أن تجر خطوة صغيرة، خلفها، آلاف الخطى الخطرة! كنت أحس، يقينًا، أن علىّ أن أحقق أشياء كثيرة، لم أكن أعفر حتى ما هى، ولا كيف تكون. إحساس عنيف كان قد تمكن منى. إحساس لم أكن أعرف مصدره ولا جدواه، هو الذى كان يدفع بى. يدفع بى دونتوقف. يدفع بى لكى أدفع حياتى البائسة ثمنًا لأشياء أكثر بؤسًا. أشياء كانت ستحصل عاجلاً أو آجلاً. كانت ستحصل حتى دون جهد: أشياء الحياة العادية المبتذلة. لكن ذلك لم يكن فى الإدراك. كل ما كنت أريده آنذاك هو أن أتابع الطريق. هو أن أجتاز، دون عوائق، باب التجهيز الأصفر الكبير. أن أزُتّ نفسى بين الجمع المختلط المملوء بالضجة والحياة. أن أسير ماشيًا على قدمى الحافيتين فوق بلاط التجهيز الملون، المرصوف بعناية وكبرياء/عباس.

وظلا واقفين. وظللت أنا كذلك. كنت أرى، من قريب، أزرار الملابس الفضية المعلمة وأخاف. أخاف أن أسأل من جديد: أين

تسكن؟ ماذا تأكل؟ من هو وليك؟ ماذا يعمل؟ سؤال قد يجر سؤالاً قد يجر السعال. ولأول مرة عرفت طعم الخوف. عرفته حشويًا عميقًا: بدأت أمعائى تتلوىّ داخل الجوف. اللعنة! أتكون التجهيز، هى الأخرى، محرمة على الجوعان والعريان والحفيان؟! عباس.

ودون انتباه منى سقطت النقطة فى عينى. سقطت سقوطًا مروعًا وكريهًا. النقطة التى لم أكن أنتظرها أبدًا. خدر متصل وسحيق تخلل بعض أركانى. خدر لم أستطع، على الفور، تحديد مصدره ولامنحاه. خدر أسود وبغيض، بدأ يدفع بالجسد، فجأة، نحو السقوط والانهيار. وصرت أشجع نفسى: لا يا خليل. لا تقع الآن. الدنيا لا زالت صبحًا لا. وتماسكت. فعلاً، وأنا أتطلع عاليًا. عاليًا، حتى المساء. وفى الغمامة البيضاء الشفافة استقر استقر. طويلاً قبل أن أسقط. قبل أن أسقط، دون إرادة منى، على جسديهما المترهلين الملوءين شحمًا ولحمًا وثيابًا وأدوات. ومعى تحط الغمامة على الأرض. تلفهما من اليمين ومن الشمال. تقصيهما فيتضاءلان! يتضاءلان أكثر فأكثر، حتى الزوال.

وبعد أن غابا، طويلاً، عادا. عادا، يتطلعان إلىَّ تارة، وإلى بعضهما تارة أخرى. كنت أقف بينهما كالتمثال المكسور وعلى بعد خطوة منى ينتصب المدخل المرمرى الأصفر المحظور. ومن جديد، صرت أحس لفحات نسيم الصبح البارد. نسيم الشجر الغربى الحاد. شجر الحور الباسق بانتظام. آه، نسيم ابن الكلب! لم يكن يعن لى على البال أن أحمى نفسى منه، قبلاً. الآن، أخذت تتالى

علىَّ هباته المتزايدة. صار الثوب يلتصق بى. وصرت ألتصق بالقاع. ذلك هو كل شئ. وهو ما كان يحدث دائمًا، وباستمرار. ولم يكن ذلك يثير الدهشة، من قبل. فلِمَ أثار دهشتهما الآن؟ ولِمَ، لا الا يستوقفانى بمثل هذا الإصرار، على هذا الباب؟؟/ عباس.

فلا تنكر لحياتى الأولى، كلها. ولعلاقاتى القديمة كلها، وليفعل كل منا كل ما فى وسعه أن يفعل لا ليصير أفضل مما كان عليه، فحسب، بل ليصير أفضل مما هو عليه الآن، أيضًا.

إننى بحاجة إلى حياة جديدة، ولربما كانت الحياة الجديدة، هذه، هى الحاجة إليها، فقط.

دخلا معًا. جلسا قريبًا منى. بحنان مطلق أرخت رأسها الجميل على كتفه الأيمن. وبمتعة شديدة مد يده الرقيقة لتلمس فخذها الأيسر. أنا؟ كنت وحيدًا. لماذا كنت وحيدًا؟! عباس.

بمواجهتهما، أحسست بى وحيدًا، معزولاً. ولم يوفرا جهدًا لإشعارى بعظمتهما الصارمة وعطفهما الكاذب. كنت أعرف،من بريق عينيهما، تصميمهما الخبيث على إعادتى، ذلك الصباح، إلى البيت: إلى الموت! وبالفعل قال المدير الدهين برقة زائفة: تعال غدًا. سكت. وأضاف فورًا: تعال مع ولىّ أمرك. كدت أنهار، من جديد: ولى أمرى، أستاذ؟! استدار مبتعدًا، دون أن يقول شيئًا. وكالكلب التبوع لحق به المراقب، الذى صار كاتبًا فيما بعد، وهو يردد من ورائه الكلمات نفسها. لا. لم يبق إزائى إلا أشجار الحور العالية، تهز ذُراها فى الريح، تردد بلثامة، هى الأخرى: تعال غدًا. تعال؟

عباس. أحسست بقلبى يمتلئ همًا وغمًا وحزنًا وكدرًا وكدمات: يمتلئ حقدًا ولؤمًا وإصرارًا أيضًا. ولم يكن ذلك كله عليهما؟! لا. لم يكن ذلك واضحًا قط. كان الأمر يتعلق بشئ آخر. شئ أسود أبلق كبير مفلطح يملأ الآفاق ويسد الأنحاء. شئ بنى غامق لاعرف له كنهًا ولا أبعادًا. شئ يخنق النفس ويملأ الصدر بالضيق والتوتر والانسداد كالغمام كنت أحسه يحيط بى. يحيط بى من الجهات، جميعها دون أن أتمكن من مسه أ ولمسه أو الإجهاز عليه. فى ذلك الغمام الطارئ والمقيم اختفى اللئيمان. صرت ألمح، خفقًا، مساطب الظهرين المقفيين. وأميز بصعوبة ظهرًا من ظهر. وهممت أن أبصق عليهما فى الحال، غير أن جفاف الحلق المفاجئ شل لسانى. باب التجهيز الذى حلمت به يومًا بدأ، هو الآخر، يبتعد ضائعًا فى الغمام. الباب المعدنى الأسود الكبير المهيب، صار يمشى، يمشى على دراجات عديدة، أسمع، حتى اليوم، صريرها العميق وهى تقترب دفة. من دفة ها هى ذى دفاته تتلامس. تلتقى دونى. تخلفنى فى البر وحيدًا، بل باب؟/عباس.

خرجت منتصرًا؟! يومها، لم أكن إجابه أحدًا، حتى ولا نفسى.

فجأة بدا لى الأمر واضحًا وخطيرًا: كان علىَّ أن.أبحث عن منفذ تاريخى، لا، كما سبق وفعلت، عن منفذ إدارى. ومع أن ذلك يتطلب قلب المنظور، كله، إلا أنه، مذ وعيته، لم يعد له بديل.

المأساة، هى إنك لاتزال ترث وضعك الإنسانى مبنيًا على أسس أخلاقية. أسس تتمركز، بدقة وصرامة، حول أخلاق الخضوع.

للأب والسلطة. وبما أنها ليست بالضرورة أخلاقك «الشخصية» فإن أى بناء يبنى عليها، بما فيه ذاتك القديمة، سرعان ما ينهار. وإذا ما انهار، فإن كل محاولة للتشبث به ليست إلا حماقة وانعدام وعى.

الأخلاق دائمًا استبدادية: أما أن تكون أنت لها، أو تكون هى عليك.

الأخلاق سامة، واستبدال واحد منها بآخر كاستبدال سم بسم.

إن ما بنى على أساس أخلاقى لا يمكن أن تهدمه الأخلاق. من هنا، ينشأ الخلاف العميق بين الإنسان وذاته. الإنسان الذى لا يزال يبحث عبثًا، عن استبدال تصوره الأخلاقى القديم للعالم بتصور أخلاقى آخر له. أن مقاول الأخلاق - لا معاولها - لم توجد لتهديمها، بل لتقويمها.

لماذا استوقفانى هذه المدة كلها، أمام الباب؟ لماذا ظلا يتطلعان، بازدراء شديد، إلىّ وعلى محياها تبدو الذريعة والخديعة؟! لماذا طلبا منى أن أمد يدى كالطفل العابث؟ أليتأكدا من أن أظافرى نظيفة ومقصوصة؟!

ليس الإدارى، بحد ذاته، شيئًا مهمًا، إطلاقًا، إلا أنه قد يصبح خطيرًا فى بعض الأحيان! وخطورته عندئذ تأتى من أنه يمكن أن ينفتح على التاريخى، رأسًا، يمكن أن يضعنا جملة وتفصيلاً أمام الواقعة: واقعة القطيعة بامتياز.

بدا الزمن صعبًا، غبيًا، وأنا أنتظر الأمر بالولوج. وأصبح لذلك الزمن معنى، معنى عميق، غريب الاتجاه، منذ أن تلقيت الأمر بالخروج. منذ أن رأيت الباب الأسود المدهون بدرج. فوق عجلاته الدائرية الصرارة، ليغلق دونى. ترددت قليلاً دون أن أقول شيئًا. انتظرت. لكن الأمر كان صارمًا وشديد الوضوح: امش من هون. إذن، لم يبق علىّ إلا الخروج. وفعلاً، بدأت الخطوة الأولى ببطء وتمهل، ومن بعد، خرجت بقسوة وتصميم: إذا تلقاك الموج احْجُمْ، وإذا استوى الماء اهجُمْ؟ عباس.

عندما تكون خصمًا فليس عليك. أن تكون عدلاً.

إن العدالة، بمفهومها السائد، تثبطنا. تمنعنا من أن نتجاوز حد الانصياع: حد الوعى القانونى السخيف.

أننا، فى الشرط التاريخى الراهن، دائمًا، أطراف. أطراف فى مجابهات لا تحصى ولا تعد. وأول ما يجب علينا أن نعمله، هو أن نميز التاريخى منها. وعندما يتعلق الأمر بهذا، فليس لنا أن نكون هَوْنًا. إن الصفة الأساسية التى علينا، حينئذ، أن نتمتع بها، هى امتلاكنا لوعى النقديين العظيم: الوعى التاريخى الذى يدفعنا إلى اتخاذ أصرح المواقف، وأقساها، وأكثرها تطرفًا. هكذا، فقط، يمكننا أن نتجاوز المفهوم النفعى للحياة، مقتربين من مفهومها النقدى.

خرجت راكضًا، طائرًا كالسهم.. اخترقت شارع التجهيز بسرعة نادرة. لم أتعثر، حتى، بالأحجار الكثيرة الملقوحة على الطريق. كان

الفضاء الغربى ينفتح بين صفين من الأبنية المرمرية الرائعة، المختلطة بالأشجار. أشجار الحور الباسقة المكشوفة. أشجار ابن جليوى، أشجار ابن الكلب. عبرها، بدت لى فتحة الأفق الأسود المخضر، كفوهة لحمية تفرج فى الحضيض. ومن جديد، ركبتنى الحركات المسعورة المريبة. حركات الاختلاجات الغضة المبهمة. الاختلاجات المشوبة بصواعق من نار. نار لذة وانتظار. انتظار الزمن الحاسم. زمن الولوج.. الولوج فى الفوهة السوداء الغامضة: فوهة التجهيز. الفوهة التى ولجها آلاف قبلى.

آه! كنت أحسب، قبلاً، أن الزمن يمكن أن ينقطع. أن ينكسر، هو الآخر، كعظم البعير. أن يغيب، فجأة، عن الوجود،مثل الموتى: زمن لا يتحقق فورًا، لن يتحقق إلى الأبد. كان الشلل الذى أصابنى آنذاك. نابعًا أصلاً من ذلك الاعتبار. من أين جاءنى ذلك الاعتبار المُحبط؟! لا. أفضل أن ألغى نهائيًا هذا السؤال الذى لا يحمل إلا معنى الاتهام الساذج والسخيف للذات، وأن أصل، دون تأخير، إلى نقطة انعدام الأسف، إذا أردت أن أتحقق، بشجاعة ووضوح، من صفاتى الشخصية.

على الطريق العائد، الذى قادنى من الحيطان العالية حتى ضفاف النهر، دست عشرات المرات على كسر الأحجار والأخشاب والأوثان والأدغال! ومرة بعد مرة، أحسست بألم حارق، فى القدمين. وبتشنج جهنمى فى الساقين وأسفل البطن والأمعاء. وأكثر من مرة، انتحيت، جانبًا، لألمس أطرافى لمسًا عميقًا. ومع

اقترابى المستديم من البيت، كانت تقترب منى صورة البنية الصفراء الناحلة، ذات الأفخاذ النيئة المستقيمة، والأرداف المدورة البارزة باستمرار. صورتها، وهى تلتصق بى، مخفية ضحكتها الملجومة المتواطئة بخفر كبير. وألتصق بها أكثر، متسائلاً: لماذا أنت نحيلة إلى هذا الحد؟ وتتضاءل الهوة بيننا تتضاءل. وتندمج الصورتان بتأنٍ مطلق وحزين.

لا. التمرد لا عمر له ولا موضوع. إنه مشروع دومًا! لكن ذلك لم يخطر لى على بال وأنا أدير ظهرى الصغير المنحنى، وأمشى متهالكًا،وكأننى فى أرذل العمر. أتمرد على المدير؟ على الأستاذ؟ على الآذن؟ على المراقب الربعة، ذى النظارات السود الغامضة؟ ياللهول! للتجهيز حرمة وقدس. وأنا لست إلا ورقة من الأوراق. ورقة خائبة من غويران البرى المهمل. إلا أن خيبتى لم تكن أبدًا نهاية. كانت، تمامًا، بداية. بداية حارة ساخنة متفجرة ومخيفة! بداية بداياتى. هذا ما شعرت به، وأنا أدير لهما ظهرى النحيل، الجائع، منتقلاً من موقع إلى آخر: من موقع الواقف على الباب، إلى موقع المواجه له: للباب الحديدى الأسود المدهون بعناية. باب السلطة الذي كنت أراه، لتوى، كباب الفردوس المعلق فى السماء. تحفه بساتين المعرفة. وتحيط به ملائكة الآداب. له، من الرهبة والتبجيل ما يملأ النفس خشوعًا وقنوطًا. الباب السحرى الذى يتصل بالأفقين شرقًا وغربًا. والذى يتبخر فى أقصى الفضاء جنوبًا، لاحقًا بالنهر. نهر ابن جليوى. نهر ابن الكلب.

لا، لم أعر الصيحة الأولى انتباهًا. ولا الثانية. إلا أن الثالثة، كانت حادة. كريهة. وأمرها صريح: صيحة صبحاء، دفعت بى لأن أتحرك، فورًا، مبتعدًا عن الباب ببطء شديدد. بطء ما لبث حتى صار عجالة. كنت لا أزال أحدق فى وجه الأذن الأعور الشديد، متلبعًا فى الوقت نفسه، حركة كفيه القويين، وبَلْع فكيه للهواء الساقط، وهو يأمرنى بالخروج: امشِ.

وفعلا بدأت الابتعاد مشيًا، حتى النهر. كان على أن أمشى الشوارع القديمة نفسها، عائدًا، هذه المرة. عائدًا بخيبة، لا يمكن إخفاؤها، قبل العصر؟

أعود و«سَيْرى» وبنتها لم تعودا بعد!

لم تعودا بالخبز المُلَطَّخ بسماد الكباب الحسكاروى اللذيذ، المُطعَّم بشحمه المحروق، وببصله الأحمر المشوى!/ عباس.

كان على أن أكف، منذ زمن بعيد، عن اعتبار الحياة لعبة. ولكن لماذا كان على أن أفعل ذلك؟! لماذا؟

ما أن اقتربت من البيت، حتى سمعت الصياح الصياح البغيض، نفسه. يخالطه بكاء كثير: بكاؤها، وبكاء الصغار المنتشرين حولها كالجراد. وصرت، أنا الآخر، أصبح: «طرفه»، طرفة! الدم الأحمر الأزرق الأصفر يتماوج فى القاع.

كانت يد «أهمد» فى رأس طرفة، ورجلاها بين رجليه، وهو يتهيأ للقضاء نهائيًا، عليها. وبأعلى صوتى صحت: اهمد. أهمد!

ولقحت نفسى كالبرغوث فوق ظهره. وتفّ أحمد كتفه العريضة الهائلة منى، فوقعت، متهالكًا، على الأرض.. كفانى التهديد اللئيم، وحده: ابعد، وإلا خلطت دمك بدمها. ابعد. وتشبثت طرفه بى: يا خيّى خليك.. يا خيّى وتشبثت، أنا الآخر، بها: تعالى. تعالى. وتجمع الصغار حولنا كالعصافير. وشيئًا فشيئًا أخذوا يَثْوون على الأرض، وهم ينتحبون: يا يَمَا يا يَمَا! وبعضهم صار يزيد: يا يما جوعان. وكالذئبة المجروحة، قفزت من مسقطها «طُرْفَة». وكأن شيئًا لم يكن، راحت تركض باتجاه الغار: التنور.. الخبز احترق. النار انطفت. النار. وكالمرضعة التى فقدت، إلى الأبد، رضيعهاالحبيب، أجهشت فى بكاء غريب صامت. وتعلقت أعين العصافير المكسورة الأجنحة بحركتها الملتاعة، فكفّت. وعلى الفور، أحاطتهم، جميعها، بحنان مفاجئ وهى تضحك من جديد. وابتسمت، أنا الآخر، مغالبًا انفعالى العنيف. كدت انفجر، ضاحكًا، فى الجو. كاد الحزن اللئيم الذى ملأنى منذ الصباح الباكر أن يجف. أن يسقط فى الأرض.. أكَلْتُ الرهبة والصباح! ولفترة شديدة القصر، نسيت، فعلاً، وجه المدير الغبى. وشوارب معاونه الكثة الدسمة. ونظارات المراقب السود الكبيرة. وزنود الآذن الأسمر القوى، وحذاءه الغسقى، وهو يلحق بى حتى الغياب. ولم أعد أسمع حتى صرير الباب المعدنى الأسود الكبير،، وهو يغلق دونى. وقبل أن تسألنى «طرفة» عن اليوم الأول فى التجهيز، خرجت. وعلى التراب، الأصفر المختلط بالروث والسماد، تمددت، والنحيب العاصف ينبثق منى عبرات عبرات. كنت لا أزال أتملى قطرات الدم الأحمر القانى تنفلت من سواد

الشعر الفاحم الطويل. وأرى، رفيف اللحمة الصغيرة، لحمة لوح الكتف المبلولة وهى ترتجف، مثلما يرتجف المحموم/ عباس.

الحياة قصيرة حتى الموت فيها قصير.

ليس لنا أن نعيش مع احتقارنا للآخر منذ أن نعى هذا الاحتقار.

معنى أننا تطورنا، هو أننا صرنا قادرين على أن نحكم على الماضى حسب معرفتنا الراهنة ووعينا الجديد، لا أن نحكم على الحاضر حسب معرفتنا السابقة ووعينا العتيق.

العلاقة بين كائنين، هى الأخرى، كائن حى: تحيا وتموت.

لمأ أدر متى نمت. نعاس قاتم وعميق لفنى لفًا. على التراب الملوث غفوت. ولولا مرور الأفعى الرقطاء المخيفة قربى، لبقيت ملقوحًا حتى الزوال. حفيفها الخافت. ونفيحها المرعب، أيقظانى من سباتى الرهيق. قفزت برهبة شديدة إلى أعلى. ولم أر إلا لمعة ظهرها العضل الطويل. وانسحابها العجل المميت، وهى تختفى لمعا فى ضوء القمر إلى الشمال. بحثت عن حجر. عن أى شئ آخر، دون جدوى. كنت أتعثر بالأحجار والأشجار والأنهار ولا أرى شيئًا! وصرت أتكمش بالشجيرات اللاطئة وأنا أصيح خسئت: خسئت. أفعى ابن جليوى. أُفعى ابن الكلب. ومن هبة إلى هبة،كنت أضربها بأشياء كثيرة دون أن أصيب منها مقتلاً. كنت أريد أن أقضى نهائيًا عليها، كيلا تعود، مرة أخرى، إلى هذا المكان. ولم يكن ثمة فى القاع سوى ضوء القمر الفضى المنحدر بهدوء، وبريق التراب الأبيض الناعم الحار. .كنت أدور فى مكانين وأدور. أبحث عن الحية،

والحية آمنة فى الغار. الغار الضيق والعميق.. لا، لا شئ خارجًا إلا الصفير، صفير النهر الذى لازال يجرى جنوبًا، ولمعان سطحه المترجرج فى البعيد. ومن جديد، صرت أبكى. أبكى بكاء مرًا محروقًا، وأنا أصيح. وعلى صياحى، هجم الصياح، فى ذلك الليل/ عباس.

وفورًا. صعدت الهُضيبة الصفراء الصغيرة، عائدًا بوجل واسستعجال. كدت أقع على وجهى، أكثر من مرة، ليلاً. وكالمذنب الذى جاء يعترف بما اقترفه من ذنب، جثوت، بصمت، عند رأسها المدور الكبير. كان لهاثها الحبيس يخرج بصعوبة من ثنايا صدرها. وبشكل آلى تأملت ارتفاع ثدييها المليئين.. وانحناءات جسدها المشحون. وبرجاء فائق لمست شعرها الأسود الكثير. لمست مفرق الشعر الذى يقسم رأسها قسمين متناظرين باتساق. كنت لا أزال مشغوفًا بالخط الأبيض الرفيع، الذى يمتد، صاعدًا إلى الخلف: خط واحد لا يتعرج ولا يتدرج.. وفى ضوء القمر الباهت، المنعكس بخشونة على الحائط الطينى العتيق، لمحت اللحاف الغامض ينسدل على الأجساد، جميعًا: لكل جسد فيه لون ومكان! لحاف الليل وبساط النهار. وبصوت منكسر، ملحوق صرت أون. وأون: جوعان. بما جوعان! وظلت تنام تنام النوم الخائف الملتاع، نفسه؟! لا. لم تكن قد نامت بعد. لم تنم أبدًا، ذلك الليل. الهاجوس الأزلى استبد بها، كما كل ليل، لا أكون لصقها فى الفراش. وبحركة متشنجة قمت.. قمت أبحث عن شئ. لم أر شيئًا: ظلام شامل يملأ الأنحاء.

عبثًا، بعثرت الخرق، والهدوم البالية، والمواعين المثقوبة. عبثًا كنت أبحث عن بعض الخبز الذى يمكن أن يكون قد بقى حتى الآن! ومرة بعد أخرى، اخترق جسدى الهش الهزيل ضجيج أوعية التوتياء القديمة، ورنينها الفارغ النَوَاء. أحسست بنوبة حادة من الجنون تركبنى. وكالمأخوذ، صرت أخبط بقدمى الحافية القِدْر المرمى، خبطًا عنيفًا، وبلا انقطاع. ودون أن أغلق الباب الوهمى، المصنوع من التنك القديم، خرجت. استقبلنى، من جديد، ذلك القمر الجهنمى البارد. وباحتقار شديد: بصقت بصقت وأنا ابتعد. ابتعد حتى الزوال/ عباس.

«ننتظر ظمأى. سئمنا البحث فى الكلام. لا نريد أن نحكى. نريد أن نضاجع. أن نضحك. أن نسافر فى رحلة. الفن يسئمنا. إننا بحاجة إلى قليل من الابتهاج»

(على حائط فى الحى اللاتينى)

«انظروا! خارجًا! يوجد الكثير من الفن. وكثير منه زائد عن اللزوم تخيلوا شيئًا آخر. ليس كل شئ فنًا»

(على جدار فى شارع السين)

«أحدهم قال: أن تمارس الحب ليس شيئًا جديدًا. الجديد هو أن تحب»

(على نافذة فى شارع چاك كالو)

قبل أن يغتنم الفجر الفرصة ليطل برأسه، بعد ذلك الليل

الأحمق الطويل، كنت أخبئ، تحت الغطاء، رأسى. وكالعادة، كنت أسترق السمع، متلصصًا من شقوق عينى، كانت تسوى ما لا يمكن له أن يسوى: هذا أحطه هنا. وهذا أوديه هناك. ولازم أغسل الغسيل. وأدق الجريش. وأعجن العجين. وأجهز الخبز قبل أن يعود. لا، ما عدت أريد شجارًا ولا نقارًا.

وفجأة، صدح الغناء، غناء عذب حار. وأصخت السمع عميقًا: أنه حِسُّهُ. حسه الحنون أعرفه من الحسوس جميعًا.

أعرفه بحرارة الجوف، وغزارة الشوف.

ولكن، لِمَ أخذ الغناء يتقطع وينوس؟! يتقطع، ويغيب بلا استئذان؟! ودفء الجوف الذى يحمى من الخوف لِمَ تبعثر، فجأة،وكيف؟

آه! الآن فقط أدركت أننى لن أستطيع أن أتحدث بفهم كامل عما كان يجرى/ عباس.

«لا توجد كلمات دون معنى. ولامعنى دون حقيقة».

«أن ننتهى من الوعى القديم: هو أن نكف عن أن نجعل، بعد الآن، من « الضمير» قضية».

«لا يأتى سوء التفاهم إلا من انعدام المودة».

غياب الحب يصنع المعجزات».

ودفعة، ركبتنى الحمى السوداء الرجافة. ركبتنى وبدأت أختلج كالطالع من سيل جارف. شئ ما فى كيانى بدأ يتداعى. انهيار

عارم، صار يأخذنى إلى كل مكان. يأخذنى منى إلى مكان بعيد، بعيد. إلى أين وصلت؟ لم أعد أدرى. وكالضوء انبثقت فى كينونتى فكرة سديدة: ثمة أشياء يجب أن تبقى سرًا وإلا فقدت الحياة طعمها الخاص. وتحفزت أن أسألها سؤالاً جديدًا، إلا أننى أحجمت فى اللحظة الأخيرة. لن أسأل أحدًا بعد اليوم. منذ الآن على أن أكتشف كل شئ بقوتى الخاصة: قوة جهلى. السؤال يقتضى دومًا جوابه السخيف. جواب القوة الأخرى، الكائن الآخر. الاكتشاف لا يتضمن سؤالاً. ولا يقتضى إجابة. إنه نوع من سيطرة اللذة على الذات. من تفتيت العالم بقوة الرغبة.

إنه الحياة نفسها! من قال هذا؟!

بتمهل، فتحت عينى. كان القمر قد بدأ يميل، غامرًا وجه الكون بنوره الجليل. قمر بدت بفعله الأشياء شفافة وقريبة من القلب. فى الوجه المقابل للضوء،أدهشنى الفراش القديم الذى تضاعف حجمه، فجأة: مرة أخرى واحد فوق آخر! وتلك الحركة الذاهبة الآيبة: وذاك الرج المتواصل المتفاصل. وصوت الندم العميق. ندم الآهات المتكررة برتابة متخامدة حتى القرار.

برعب شديد، أغلقت عينى، كلتيهما، مستبقيًا فيهما ما استطعت من ضوء القمر البعيد. أغمضت عينى؟! أغمضت كيانى كله. كانت الرغبة تشتعل فى جوانحى الملمومة، ليلاً. كنت أريد أن أذهب بعيدًا. بعيدًا. أبعد من البعيد. ضوضاء الفراش المضطرب

تحت ضوء القمر كانت تبعث الارتباك فى أوصالى؟ ماذا يجرى فى ذلك الكون المغلق تحت الغطاء؟!

مَنْ فوق؟ مَنْ تحت؟ من يتحرك؟ من هو الساكن العواء؟

لا، أريد أن أرحل. أن أروح. أن أبعد. أن أصل أقصى حدود الدنيا القصية. أن أخلى الجلة والآهات والفرشة المليئة بالأجساد النائمة، كأجساد الفطائس الفاسدة، خلفى. أريد أن أموت. أريد أن أفوت/ عباس.

وبأقصى ما أملك من قوة وبصيرة، صرت أبحث عن القمر، من جديد. القمر الذى لم يغادر، بعد، مكانه فى السماء! تتبعت حبال ضوئه الأبيض السليط، أبحث بشغف عنه. أين هو والآن؟ كيف استطاع أن يفارقنى هذه الفترة كلها؟ أى بقعة تحويه، هذه الساعة؟ اللعنة! أيكون، هو الآخر، تغير إلى هذا الحد؟!

وبدأت أسمع فى الصميم صوت عوائه المثير!

«سمر» سمر، تعال يا سمر! ولم أدر إلا وهو يتنفس أركانى يشمنى كالمرأة العاشقة التى تشم ثوب حبيب مات.

سمر، جروى الحبيب، ها أنتذا، جئت؟! لم يبق غائبًا إلاه! اه! وبقوته، كلها، هر قربى، وخر ساجدًا، ودموعه نهمى! سمر، أنت الآخر، تبكى؟! كان كل شئ يلتوى! وقررت: غدًا صباحًا سآخذه معى إلى التجهيز.

«ليست المشكلة تغيير الشخص المشكلة الأساسية هى قلب الوضع».

«الحب أنواع ثلاثة: حب الشخص

وحب الدور

وحب الوضع».

فى ذلك الليل المريب بدأت رحلتى الأولى فى الحياة. وتبعنى «سمر» يعوى. يعوى عواء مرًا، وهو ينثر التراب. ومن آن لآخر، يتوقف ليشم القاع: القاع التى بدأت تظل بعيدة فى الخلف. قاع ابن جليوى، قاع ابن الكلب. وشيئًا فشيئًا، غابت الدور فى غلالة الليل. وغدا القمر واهنًا وضعيفًا، مثل شيخ كبير. واختلف طعم التراب وملمسه. أين صرنا يا سمر؟ أين؟ ومن مشقة السفر الطويل، قعدنا نستريح. قعدنا. نمنا. غبنا. كان برد الفجر يحيط بنا من النواحى، جميعًا. فيه، فى ذلك البرد السافر، أحسست بحرارة الجسد تدخل بى. تلمنى. وألتم. وبين النوم واليقظة صرت أدس نفسى فيها دسًا، دسًا. وأخذتنى الحرارة من البطن والصدر. وأخذتها. وأخذتنى. وغبنا معًا عن الوجود! وفجأة،انتزعنا الصياح الغبى من قلب النوم: يا يما تعالى. لقينا خليل. تعالى شوفيه: نايم بحضن الكلب، والكلب بحضنه نايم.

**تجاوز اللغة القديمة هو تجاوز المشاعر السقيمة. مشاعر الخضوع المعمم، والشعور بالأثم.**

**اللغة الجديدة: هى أعادة ترتيب الوضع من جديد، وضع الكائنات داخل اللغة، وقلب علاقاتها الأولى، معها، وفيها، معا.**

الظلام، نفسه، يملأ المكان. الأنفاس القديمة، نفسها، تتخالط كالعادة فى الأنحاء: أنحاء العالم القديم. وعلى الفراش الوحيد، ذى الألوان المختلطة الغربية، امتدت الأجساد الأساسية كلها: جسدا لصق جسد.

الفضاء مكشوف، وهو أيضا محجوز. محجوز عما يحيط به ليلا - نهارا. محجوز بحواجز سحرية لا تراها العيون. ،ولاتلمسها الأعضاء: حواجز- حالات. لم يبق، بيننا وبين العالم، بفعلها الغامض، لا النافذة الخشبية الوحيدة، جنوبا. نافذة الظلام المخيف: ظلام قبل أن يطلع القمر من جديد وكما تترك الأفعى الجائعة غارها الخلى باحثة عن فريسة، تركت الذراع الصغيرة

قاعدتها الملتصقة بالأرض، وامتدت تزحف نحو الغار: الغار الفضى الخاتل فى العمق. ومن المخدة الواطئة إلى الطرف القريب قطعت يالذراع آلاف الأنواء والانحاء. قطعت مسافات مظلمة سودًا. مسافات مسكونة بهذا العضو، او ذاك. منها، تخرج ليلية متماثلة إلى حد الاختلاط: روائح أجساد متلاصقة باستمرار وبمهارة لا تقدر، تجنب الأول والثانى، وعلت البقية واحدا بعد آخر. علتها، دون أن تثير خشيتها ورؤاها. وأخيرا، مست اللحم. وكالمصطلى نارا ارتد اللحم الطالع إلى جذعه.

ارتد، وتقلصت الأحشاء تقلصات خافتة ملجومة. واختلج الكيان النائم. كله. اختلج اختلاجات رعناء أشبه ما تكون باختلاجات المخنوقين. وكأنما أصابها العطب، وحدها ظلت الذراع المرسلة ممدودة فى الفضاء دون حراك أو لغة أو اتصال. ظلت ملقوحة جامدة. فارغة من الحس، حتى الفجر. حتى الفجر الذى لم يغد يأتى ،.. فجر عباس الذى سرى، ذات ليل، حاملا ذلك البؤس الظامئ الملئ بالتوتر: توتر الحياة. سرى وهو يعلمنى: اسمع يا عجى، الموت الحقيقى هو موت النار. نار الحب المتقدة فى جنباتنا. ألم تر العطار الجائف؟ هل تعرف هو جايف ليه؟ واستدير إلى البر. أرى الثعالب المتعالقة كالنبات. ثعالب ابن جليوى المرباة نعيما، ثعالب ابن الكلب! أراها. ولا أقول شيئا. ولا يأتى الفجر. ولا يرجع عباس. ويظل الجو يغبق برائحة غريبة، حامضة، ساقطة حتى الفؤاد إية رائحة هى هذه يالرائحة المثيرة؟! هذه الرائحة الغريبة الحارة الشواء المحروق؟! عباس فى هذه الانحاء !؟ أيكون اقترب،

الآن، من البئر. بئر الرجم القديم، الذى تدلى به، ذات يوم، هاربا من الدرك والمختار؟!

إننى بحاجة إلى كل شئ لأحيا: إننى بحاجة إلىّ.

من تحت الغطاء الوسخ القديمى رأيت عينيها الشاحبتين تتسللان إلى. إلى جسدى الصغير الذى لا يزال ممددا كالعمود. رأيت دهشتها المربعة وهى ترى الأصابع السود النحيلة تدخل، توا، جوف حوضها الدافئ المستثار. ومنها، كلها، تنبثق متشنجة مهمومة، مملوءة بالرفض والاستسلام. حركات جوانبه مضطربة، تلتها أخرى أكثر عمقا واضطرابا. حركات لئيمة غامضة لم أرها، بشكل مباشر، من قبل. انهزمت، من جديد، داحسًا رأسى تحت الجلال الملون العتيق، والفجر يتسلل فى الخلاء من شقوق الحيطان الطينية الضيقة، جاءتنى أولى خطوات ضوئه. الضوء الأصفر البدئ. ضوء الشمس الأزلية الحمراء، التى تصعد الكون، كله، قبل أن تصل إلى تصل باهتة. حائلة اللون والقوام. ليس حرارة أو شرارة أو كيان. أمتصتها، قبل أن تصل الدار الغربية المدمومة تحت الأرض، الحقول المتناثرة فى الفضاء الشرقى، كله. حقول ابن جليوى، حقول ابن الكلب. فى ذلك الشحوب الكونى المهيب. لم أفهم شحوب وجهها الأصفر المخيف ! ولا من أين جاءها التعب القاسى، وهى لم تترك الفراش بعد؟

وبدت لى فى الضوء المتكسر، ذاك، غضون جسدها، الذى كان مشدودا، ذات يوم، عميقة متخالطة. وتدلى، بازائى، لحم وجهها

الصامت الخلق. الوجه البيضاوى الصابر، الذى لم يكن عابرا. تدلى كل شىء فيها وبدأت تنهار/ عباس.

**أين ذهبت طفولتك التعيسة السعيدة، تلك؟!**

**أنت الآخر تغيرت؟!**

**لن أمسك حتى بسوء.**

**لا يمكن لأحد أن يصل، وحده، إلى هذا القدر من الكره للآخر الحاجة لأن يكون الآخر بحاجة إلينيا هى التى يجب أن نتخلص جذريا منها.**

أخيرا، علت الشمس بعيدا. وتسلل نورها الغائر إلى. وأحسست بالسقف المقشش يرتبك بفعل الضوء، الضوء الذى نفذ عابرا من شقوق القش والحصير. الشقوق التى تنتمى إلى السقف أحيانًا، واحيانا إلى الخلاء وبإصرار مفاجىء غطيت رأسى، كله، وأنا أستعيد الذراع المدورة، دون أن أعيد مدها من جديد. ألم غامض صار يعبرنى، دفقات، دفقات: ألم الارتداد الخائب إلى الذات؟! بلى! شعرت فجأة أننى كنت 'أنزلق نهائيا نحو الخراب. وانها خلقت عندى، بشكل سرى، حاجة لم أكن أعرفها، لم أحتجها، أبدا، من قبل. حاجة صارت تتملكنى قبل أن استطيع تحديدها أو السيطرة عليها. الحاجة إلى أن أكون بحاجة إليها باستمرار: الحاجة إلى الخضوع.

أمد يدى، مرة أخرى، فى عمق الليل، إلى هناك! أمدها، خلسة، حتى أطراف القدم الممدودة باستمرار! القدم التى لم تعد قدما: تغير حالها. تبدل لونها. ثخن جلدها. وتفاقم بها الإحساس. وفوق أحيمها الأصيل تراكم، يوما بعد يوم، عرق وغبار ودسم وأشواك وتحولات وندم وأراض كثيرة وغريبة. كل شئ تراكم فوق كل شيء وظلت القدم القديمة فائقة الحس والانتباه! ما أن تمر بالقرب منها يد حتى تجفل وتستطير. تغدو اشتعالا واضطرابا. مرة أخرى، أعيد الكرة! مرة أخرى، أتحسس صلبى مستثارا، وأنا أتهيأ للتوجه إلى هناك/ عباس.

من ذلك الحيز المجهول، الخاتل بين النار والنار، انتشلتنى اللمسة الملعونة: لمسة الصبح الموقوتة. وفورا، غدا فضاء المتعة المبهج كابوسا. لم يحدث شئ مما أريد! تتلو اللمسة تتلو اللمسة. العينان تزدادان غموضا وإبهاما. ولم أكن أريد أن أفقد ذلك المشروع الجميل، مشروع اللذة الأولى، هكذا، دون مقاومة أو عناد. أنام أكثر فأكثر اذن؟! لكن اللمسة، الآن، غدت حكا. حكا لحوحا. والرقة صارت، فى طرف الأصابع اللامسة، عبوسا وندغا: المدرسة راحت. الدنيا نهار. وانت تنام؟! واقفز مرعوبا. اتطلع حولى بعبوس واكتئاب: لا أحد فى الحال البيت فارغ. أمى، وحدها ، تروح كالمحكوم بالاعدام تكاد تحمل البيت، كله، على ظهرها. تتمتم فرحًا: خليل يروح على التجهيز! ولم يكن أحد يسمع لأحد مسمعا. أحياء الحى الغابر كلها تتحرك، معا، فى نفس الوقت، وفى نفس الاتجاه: المدينة، على المدينة يا شباب. وبقيت واقفا. أتأمل

المكان بروية وهوس. أبحث عن شئ اعرف، تمام المعرفة، اننى لم ألقاه. مع ذلك، كنت أبحث عنه بإصرار ذلك كله فاجأها وآذاها. معى. صارت، هى الاخرى، تتطلع بغرابة فى المكان. تتطلع دون أن تميز سرا. وبرقة أحاطتنى، وهى تسألنى، بعجب : ضيعت شيئا/ تبحث عن شئ؟ عن أى شئ؟! وانتظرت إجابتى دهرا: لم أقل لها إننى أبحث عن حذاء. ولم أقل لها ذلك حتى الآن/عباس.

## (٤)

قبل أن يترك النظر القدم الحافية وانحاءها، استوى خلفى. وتملى بمودة فائقة، شعرى المنفوش من الخلف والجانبين. ولم يتسن لى أن أرى وجهه المغضن الممتلئ بالرش، ولا يديه الكبيرتين المختلطتين بالحطب اليابس والخرنوب. من اللمسة الخاطفة عرفته. ومع أشعة الشمس النافذة التى غدت، الآن، بيضاء كالحة، رأيت المحيط، كله لامعًا: الأوانى القديمة المزبوبة، الأثاث المهترئ المنفوض. والقامة الطويلة باعتدال. ابتهجت قليلا وأنا أكادأصدق ما أرى! وأعدت النظر، من جديد، وأنا أفرك عينى فركا عنيفا. وقبل أن أقضى على آثار النوم الكابوسى المخيف صرت أردد باقتضاب: جئت؟! جئت؟! كان كل شئ يمر سريعًا كالنهر الفائض فى الحماد. ولم أدرك، فى مدى البصر اللصيق، ألا ابتسامته الوالهة الغامضة التى اختفت كالبرق. وحركة يده البيضاء الساطعة

التى امتلأت بها يدى. بخجل شديد، ضمنى وقام. وتبعت قومته، بشغف. عاليا، شهلت اكتافه العريضة رداءه البنى الكالح. شهلته إلى أعلى ما يمكن، كدت أضحك من حالى غير أنه استدار فجأة وعاد. وبشئ من الاضطراب قال، وهو يتربع على التراب: أريد اشوفك وانت تمشى على التجهيز.

وبعد فترة من الصمت، أضاف: احلف. احلف انك ستعلمنى القراءة والكتابة. قلت: بلى، أعلمك كل ما أتعلم. اختفى صمته القاحل وهو يتملانى بشراهة وتسديد. ومع ابتسامته الرديدة مد يده الطويلة إلى ما بين فخذية. من صرته العتيدة اخرج بعض النقود المحروقة والمسروقة، ودسها فى جسدى الصغير، دسا وأنا اتمنع بالحاح: يكفى. يكفى كنت حقًا على حافة البكاء.

يكفى؟! ردد ضاحكا فاتحًا الأرعط الكبير، مكومًا عضل وجهه، كله، فى وجنتيه: خداه، كتلتان مزروعتان فى الوجه. كتلتا زعل وعظام. وكيانه، سفر واختلاط. اختلاط العرق بالحرارة المقيمة بالتعب الذى لا راحة بعده بالغضب والحياء والاستياء. كدت أرى الجبل والحماد والبر فى مقلتيه ولأول مرة، رأيت، قريبا منى، اسنانه البيض القاسية تملأ فمه بلا انتظام. فى ثناياها. عثرت على بقايا الخبز المأكول منذ دهور، وعلى فتات الأعشاب البرية المجهولة، والحيلوان. فى بعض انحائها كان يتكوم شئ أبيض فطرى يشبه اللبن الخربان. وقريبا منه، كانت تصعد ثنيات اللحم الأحمر - الذى غدا أسود وهشا - إلى أعلى الجدار: جدار الفضاء/ الفم.

وكأنه فرح من عجبى به، صار يغالى فى تضحيك نفسه. كاشفا، أكثر فأكثر، عن أعماق حلقة الواصع، وعن خفاياه. وفجأة أصابنى غث يشبه الحمى والارتباك: الجوف اللحمى المغفور، إزائى بدا امرا مثيرا للعجب والخوف! من هنا يعبر كل شئ؟! كل شئ من هنا يمر! الطعام والكلام واللوعة والاحتضار والكره والاستياء والتعبير عن الحب وعن الرغبة وعن الانكسار.

**الانسان صفاته. وصفاته قوامه**

**الحياة؟! ماهى هذه الحياة التى لا تنى تخيفنى بها؟**

وقبل أن أحدد هدفا اغمضت عينى واختفى الزول الفاغر فاه.

اختفى فورا. أشياء أخرى عديدة تختلط فى فضاء عينى الغامض وبدالى، كالحلم، اننى كنت فى وضع متحرك ومحرج . وضع تمتزج الرؤى فيه بالمرئيات. ليس لى منه خلاص، برغم يقينى الغريب، بأن الفصل الاساس، من ذلك الوضع، الذى اندخل فى كيانى اندخالا لا فكاك منه، صائر إلى زوال، إلى زوال آنى وكامل. وإلى الآن، لا أدرى كيف ملأت نفسى تلك الرغبة السحرية المحرقة! ولا كيف كسرت العود الرفيع الذى كان بين يدى، كسرته وأنا هائج وحزين.

فى صمت ذلك الصباح العنيف، كان الحس، الذى انبثق، فجأة، فى الكيان يختلط باللمس الصلب المدوس، كنت ارتجف أخاذا ، وأنا لا ألمح الا الظلام.

آه لماذا تختفى البهجة من هذا العالم، ولا يسود فيه إلا الخوف؟!

ومن أين ينبع ذلك الاهتزاز الدائم، الذى يحرك القلب، ويملأ النفس بشئ جارح كالحقد؟ حقد مطلق يشل الرغبة فى الضحك والبكاء، معا.

ومن جديد، صرت أحس رأسى ثقيلا. ثقيلا حتى القئ. لم أعد أقوى على حمله وإسناده. لكأنه كتلة من الرصاص . وبدأت أشعر، شعورا سليطا، بأننى لم أعد أرغب بشئ آخر، فى هذه الحياة، غير سنة طويلة من النوم/عباس.

أنت مخطئ. وخطؤك الرئيسى هو العجز! وطالما تظل عاجزا فستظل مخطئا: هكذا تكلم العراف.

فى عمق الليل أيقظنى ألم حارق. ألم حارق فى المعدة والأحشاء. ألم اليقظة الأولى: يقظة فى عالم بلا احساس.

صرت أحث نفسى على أن تستسلم ! ولكن لمن؟! لعدوها السخيف الذى استسلم لها من قبل؟!

ابحث عن حبك لى، لا عن فهمك العميق للعالم. ولكن ، هل يستطيع أن يجب من لا يفهم؟!

لم أخلق لهذا «الانسجام» خلقت لأ بقى خارج كل نظام.

لم أعد أريد أن ألقاك، لم أعد أريد أن ألقى أحدا، بعد اليوم، بوجه حزين.

وهذه المرة، فى عمق الليل القادم، تأتينى الذراع اللدنة الضفراء الطويلة. تمسد شعرى، تمر مرورا مريبا على وجهى وشفتى. تتأكد كما كانت تفعل دائما، من أن عينى مسدلتان، وفمى مزموم، وجوانحى مملوءة بالقشعيرة والاهتزاز.

ومن جديد، تطلق من بدنى الخفى تلك الروائح الغريبية اللجاجة روائح التفتح والانتشار. وتجعلنى ارتجف كالمحموم: ارتجف ارتجافا مصحوبا بمتعة غريبة، تشع منى شعا.

**أين كانت هذه الأشياء، كلها تختبئ حتى الآن/! فى أى جزء منى، وفى أى مكان؟!**

**الإنسان البائس هو الذى لاصفات له، ولا قوام؟**

**الحب كالحياة، إذا انتهى مرة، انتهى للأبد.**

وتستمر الذراع الهائلة فى نزولها إلى القعر: قعر الكيان الذى لا مثيل له ولا شبيه. وأحسنى انشهل انشهل عاليا حتى الطير. أقارب السماء. ألجها من أى مصدر اريد. الجها، وأنا لا أدرى ما أفعل، توتر مفاجئ وعذيب يحولنى من المكان إلى الجنان.

وفجأة يتحول اللمس قبضا. والرقة شدة. والمقاربة حصارا: الذراع اللينة الصغيرة تحتلنى كلى! احس بها تسرقنى من مكانى وحوائجى وأحشائى وانحائى. تأخذنى إلى حيث أدرى ولا أدرى والبلل الهش الثخين يتساقط منى، هبات. هبات! تجرنى. وانجر وبالفعل أترك منامى الدافئ إلى منام آخر. وأترك جلدى إلى جلد

آخر. وكينونتى إلى أخرى. وأريد أن التم فأتمدد، وأن أنام فأصحو. وأن أصيح فأسكت. وأن أفر فاصمد. وألا افعل فأفعل: كل شئ يصير ضد كل شئ. قبضة الذراع العليمة، التى استولت على، من قبل، تستولى على، من جديد. وشيئا فشيئا يجئ الموت/عباس.

**ماذا تعنى العودة، مرة أخرى، إلى هناك، غير الوقوع، من جديد، فى غموض ذلك الوضع المبهم!؟**

ما أنا بحاجة إليه، إذن، هو الوضوح، والوضوح ليس نقدًا ذاتيًا، ولا يكتسب عن طريقه، إنه نقد الآخر بقسوة ، والوقوف نهائيًا إلى جانب الذات. إنه الفعل الذى لا يعيدها إلى جادة الصواب الغبية، بل الذى يدفعها خطوة أخرى على درب القطيعة.

الانتصار على الذات هو التخلى جذريا عن أوهامها القديمة.

انتهى الجلم قسرا. قبضتها العنيدة شدتنى من كل شئ شدا. شدتنى لتضع الضياء الباهر فى عينى، وهى تشير إلى الكون الخارجى، الذى امتلأ صياحا وضوضاء: انظر. انظر. الناس أين، وأنت أين وانظر اسفل العين. وأرى كل شىء، الدلالين والبياعين وحاملات اللبن والحليب والوردات والعمال والسائقين وسائقى الحمير المحملة عشبا وروثا. كل شئ يمتزج بكل شئ الا أنا. الا أنا الذى لا زلت أغط فى خمول عجيب. وأغمض عينى على الصورة دون نواح. وتعود تلمسنى باهتمام: يا وليدى رأسك حار. العرق يرخ منك رخا. جلدك رطب، مبلول، مثل جلد المدفون تحت القاع!

وبقسوة أبعد يدها الواقفة فوقى، وأحفز، ولابد أنها رأت ارتفاع الثوب بين الطرفين. رأت العسر الذى لم يتحول بعد، إلى يسر. رأت انتصاب الجسد الصغير الذى صار يتمرد الان. يتمرد على الحافظ والمحفوظ. وكالجدى الفجوع، أصل الكوخ القبلى،. سريعا. أصله، قبل أن يرتد، إليها، طرفه. وأحس بها، تلحقنى وهى تتمتم كلمات، كلمات. ماذا كانت تتمتم وتقول: امرأة الحثول والبقول؟! امرأة الحقول الغبراء الضاربة فى البر: من الحسكة إلى رأس العين، ومن رأس العين إلى «الدرباسية». ومن هذه إلى «تل أبيض» ومنه، من ذلك التل الأسود الاجرد، إلى الحماد: الحماد الذى يضيع فى خلاء الكون، جنوبا، حتى «الدير».

ماذا كانت تقول، تلك المرأة المرغوبة عن نفسها، الغارقة فى الضيم؟ لا أحد يدرى، حتى، ولا أنا! ودون تأخير، ألج الكوخ الغاطس فى الحضيض. أصب الماء الصقيع على هامتى الراجفة. وأتابع القطرات اللاسعة تترى حتى جدرى، تسبل، فى انحدار إليتى الضامرتين، باعثة فى إحساسا مائعا وبديعا. وبثوبى الوحيد، الذى كان يرتفع حتى العرف، حففت شعرى، ووجهى، وبطنى، وجففتها قبل أن أغادر الجوف الطينى الرطب المليئ بالعفن والهباب الأسود المتراكم هباب نار القش والروث والكعوب.

النار التى تسوى الخبر والحنطة والماء والهواء. وتحرق الأخضر واليابس. وعليها يتحمى الباسم والعابس. وفورا، قلبت وجه الثوب ليحتل مكانه كما كان، قلبته بلا اهتمام. كنت أعرف، هذه المرة أن المدرسة قد فاتت. وأنه، لم يعد أمامى إلا الركض. الركض الهائج

حتى انقطاع النفس والموت. كنت أريد أن أصل التجهيز. ولم أنس - مع ذلك - قطعة الخبز الناشفة المسمدة الكرداء المتآكلة القلب والانحاء. والتى لا تنقص، برغم ذلك، كله! لا. لم أنسها، ولم أمسها بسوء. مررت بها عابرا ومغيرا، لا، لم أكن قادرا على تأمل المشهد أكثر من ذلك كان على أن استطير راكضا حتى الغياب بلى! رأيتها تلك القطعية الغريبة، ولم أقربها. هذه المرة، أيضا، لم أكن عازما على الوثوب. لم أكن راغاب فى الأكل. راغبا فى أى شئ آخر سوى الاهتزاز، الاهتزاز بحرقة واكتئاب مثل القرائين الأئمة الكبار.

كنت أريد أن أحاذى. من جديد، جدار الشط الأرق المخضر. ماشيا سطح القاع من الجنوب إلى الشمال: راكبا ظهر النهر. مبتعدا فى زوايا المدينة المجنونة، الحمقاء. كنت أريد أن أصل التجهيز، قبل فوات الآوان، إلا أنها امسكت، بحنان اسر، بعضًا منى، وهى تقاوم: لا . لا. كل شيئا. لن أدعك تذهب على الريق. النهار طويل أشرب قليلا من الماء. الماءء بلاش يا وليدى وبمهمهة. فارغة من الكلام أفهمتها أننى لا أريد شيئا.

أننى لا أريد. وارتاعت. ارتاعت مثل كل مرة، أهمهم فيها دون أقول شيئا محددا بالذات، مع أننى أعنيه، بعد ذلك لم تقل شيئا! أعيتها المقولات السخيفة التى كانت تخترعها باستمرار. فيوما بعد يوم، كانت تتهاوى أمام إصرارى العنيد تدابيرها الصغيرة، تدابيرها البائسة، المستوحاة من فقر الضوع ورثاثه، لم تكن تصمد طويلا أمام القرف العنيد والاستياء المخيف اللذين ملآ نفسى مند الخطوة الأولى.ودون أن أقول شيئا خطفت نفسى، وطفقت أركض فى البر.

كـان على أن أنط من فـوق التل الكبـيـر: ««تل غـويـران» الناهد بكبرياء. أن أقفز النهر الأملس الموحل سطحا وعمقا. أن أمر، برقا، فى الشـوارع الأخرى ذات الأطراف الدامعـة، متـحمـلا نظرة المارة والقاطنين، متجاهلا حذرهم المجنون: ياه! حفيان. عريان ويركض على التجهيز.!

الدنيا خربت؟!

إى والله.

وفجأة، صرت أمشى الهوينى: هيأتى، كلها، تغيرت، وأنا اقترب من الجدار الأصفر المخيف. خشية رعناء، وشئ يشبه الخشوع، أحاطا بى من هنا ومن هناك.! هانذا أقف، من جديد، أمام الباب. البـاب الذى انطّردت البـارحـة منه. طردنى القـوم، وأعـود اليـوم/ عباس.

وفـورا، أرسلت سـمـعى فى الفضـاء الصـاخب الحـامى: فـضـاء التجهيـز الملئ بشـرًا وحكايات! من هنا، خـرج المحـامى ابن جليوى. وابن جليوى المحـافظ كـان يدرس هنا. ومنه تخـرج «التـخـتور» أبو نظارات سودا. ومنه، أيضا طلع صاحب الصيدلية وأستاذ الفلسفة الأشقر الضعيف. ومن هذا التجهيز الأصفر، بالذات، نبغ السياسى اللاسع، ابن جليـوى، وابنه الآخـر، الذى ينظم الآن حـركة الحـومـة والانحـاء: يرغب الزعمـاء والشـيـوخ. ويرهب الفـروخ والحـرامـيـة. ومنه، خـرج صـاحب الكراجين: «كراج الجـزيرة» للسـيارات و«كـراج الجزيرة والفرات» لكميونات الشحن الكبيـرة من مـاركـات: بيـريللى

وفولفو وبوزينغ الهائلة الحجوم، ذوات الدواليب السود القاسية، التى تدوس كل شئ دون أن يضرها شئ أبدا! وقبله، أخوه الذى يملك «ساحة العرصة» كلها يؤجر دكاكينها لمن يشاء. بما يشاء كيفما . يشاء .

ومن هذا التجهيز الذى أقف الآن على أطرافه، خرج ذات يوم، أيضا، ابن الغسالة، أم جرجيس، الذى صار مثالا: جرجيس الطويل النحيف الخائف المطارد دائما. والذى لا يخبى فى حواشيه الا الكتب العتيقة ذات الأغلفة المزورة. الكتب التى تحكى عن الحتمية والتقدم والثورة. جرجيس الحذر، ابن غسالة البسط والأوانى. ابن أم جرجيس، التى، ما أن ترانى، حتى تضمنى باكية مذعورة، لكأنها تفشى سرا: أمك كيفها؟ أبوك كيفه، عندك خبز؟ عندكم ماء؟

وجرجيس، يا أم جرجيس؟ أين هو الآن ؟ أنا؟ صرت أروح على التجهيز.

ويخبرنى الدمع شيئا، والقول شيئا آخر: جرجيس يا وليدى راح يتاجر. ويختلط الصمت بالتوتر والا كتئاب، وأكاد أسمعها تضيف ولا تضيف شيئا آخر غير ذلك الصمت الثقيل. صمت أم جرجيس التى تبدأ كرها على الماء، وفرها منه. بيديها أكوام الغسيل المبلولة باستمرار: شوف يا وليدى الى لوت ايدى: وصار جلدى مثل جلد الأفاعى له أثلام وحراشف وامتدادت. ولم يعد غسيلى يرضى الخواتين!

آّ ه يا ولديدى آه!

آه البلل يتساقط منها حبات. حبات. أصابعها الهزيلة المرتجفة توحى بالخرف والقرف والامتعاض. وتلمس كتابى لمسا خفيفا، وهى تحتثى بحنان: عجل. عجل. المدرسة راحت. وأروح ركضا. وتظل هى قاعدة على الماء. تفرك أصابعها الركبتين والثياب والأشياء والماء نفسه تفركه بالماء.

آه! التجهيز، الذى أصله الآن، يضج بالصياح والهياج. الكلام، فى ساحته الواسعة الرهيبة، يتلو الكلام، وفورا. أمد قامتى الضئيلة نحوهم . أراهم واحدا واحد. أعرفهم ولا يعرفوننى . بلى! أعرف الجمع المجتمع هنا، وهناك، وهنالك. وفى الزوايا الأخرى البعيدة، كلها. وركضا، أقترب من مصادر الضجيج واللجيج. وبلا تأخير، تتوافد الكلمات واللهجات والنعوت والصفات والاحتمالات. واسمع الكلام وال أفهم معناه. وأرى الحركات ولا أدرك فحواها. وأكاد أطير. ألاقى الأول والثانى. اسألهم عما يتحاورون. ويصدنى الجدار. ومن خلف الجدار، العينان العابستان الملفعتان بالنظارات السود المليئة بالغموض. نظارات المراقب الذى حال البارحة بينى وبين الولوج.

ولأول مرة أحس بالحب. بالحب الذى يشبه الحب فعلا: غريب يقربنى، كلما اقتربت منهم، من نفسى!

أليس ذلك وقعا؟

كدت أنسى أهلى. ونسيت تماما، أننى جائع حزين.

شعور غامض كان يملأ أركانى.

وأقترب، أكثر فأكثر، من مصدر الصوت. وكالبارحة تماما، افتح أفواهى، كلها، للإنصات، ويجيئنى الكلام مختلفا، هذا الصباح: لم تكن الضجة فارعة مثل البارحة عصرا! كانوا يتحدثون عن أمور كثيرة لم أسمع بها من قبل. عن أساطير. ماذا يقولون؟!

أدنو. أدنو، أكثر. أكثر. أشق الجدار. الج الجمع ولوجا بلا تماس.

وبتوتر، لا حدود له. ألم أشتات الكلام: القول والفعل والحركة والسكون والعقل والمادة والانعكاس والانبجاس ومثال الحية التى تسقط من عل دون أن تتكسر والعصا التى تتكسر من دخولها الماء. والشعب. أى شعب؟! كدت أنادى الرائح والغادى.

وتتابع الأقوال والأمثال، وشيئا فشيئا، تختلف الأحوال: فجأة يدق الجرس النحاسى الأصفر، ذو اللسان المعدنى الطويل. وترن دقاته الحادة فى أركان العالم، ودفعة. يحل الصمت. تموت الحركة. ويسود السكون. وأظل وحيدا خارج الخلاء. وحيدا، أتملى الباحة والساحة. وأرى، لأول مرة، مشاجر الاعشاب اللاصقة بالتراب. أعشاب التجهيز الحميمة. وأكاد أمد يدى، أقطف غصنا منها، لولا الهجمة المفاجئة التى صدتنى: أبعد ايدك.

ابعد. ابعد. وابتعد داخلا جوف الزاب. جوف الحقل العتيد. حقل ابن جليوى. حقل ابن الكلب. الحقل الملاصق للتجهيز المستند إليه. وعن كثب، تتراءى لى شوامخ الحور هفهافه، يلطف العابث سكون التجهيز الذى خلا فجأة من الحياة.

وفجأة، فى ذلك الفضاء الكبير الفارغ، أسمع وقعها لئيما. أحسه ينادينى: تعال لم اتحرك. لا لهفة ولا خوفا. العالم،حولى، مات. غدا جثة. جثة تمتد من أطراف التجهير القصوى، حتى أطراف تل غزة البعيد. الحياة صارت مرتبطة بدقة الجرس. بهمهمة المراقب اللئيم، ذى النظارات السود، الفارغة من الطيش. النظارات الآجرية الصملء. ويستعيد الصوت المؤدب نفسه، من جديد: تعال. لم اتحرك. كان رأسى الصغير قد امتلأ أصواتا وجراحا وضوضاء ونداءآت وخيالات وكلاما كثيرا وكبيرا! كلاما لم أكن أفهم له معنى وكنت أحفظه عن ظهر قلب. ومقولات سودا حمرا بيضا أحسها ولا أدرك مغزاها. وعبارات غريبة أخذت بمجامع قلبى، ولم أعد أنام. أنا أيضا أريد أن أحكى. أن أحاور. أن أداور. أن أحاكم الأمور. أن أتملى الوجوه عطشى إلى استماعى، والاستمتاع بما أقول! ويوما بعد يوم، كنت قد تعلمت، تعلمت سمعا، أشياء كثيرة: تعلمت الفعل والواقع والأشياء الواقعة فيه. وكثيرا غيرها! ولكن، ماهى هذه الحرية التى لا يخلو منها كلام؟ ولم يتعلق بها الجميع إلى هذا الحد؟

وحسبت، فى خضم تلك التساؤلات المريبة، أن ذلك الصوتى ليس لى. ولكن بلى! ولكن لا. ولكنه الصوت الواحد. ذو اللحن الواحد. والشدة الواحدة. وأصخت السمع، من جديد بلى! أنه هو. صوت الواجف. الذى يصدم بصفاقة، جذوع أشجار الحور النحيلة. ويخرب هدوء ذلك النهار الجميل. من غيره يستطيع، يجرؤ بالأحرى، على تعكير صفو الكون؟! أيكون هو فعلا؟! أكاد التفت.

التفت حقا. أكاد أطير. أطير ساقطا فى القاع: المراقب السيد المهيب ينادينى! أجىء لاهثًا، ارتجف كالعصفور: نعم استاذ. لم يقل شيئاً. آشار باصبعه النارى إشارة واختفى فى الجدار. وفجأة، نبغ المدير: الرجل الاسمر السمين، ذو اللغدين المليئين بالشعر والبثور، والفم الغليظ القابض على الحياة. على عينيه، هو الآخر، نظارات خضر، أكثر سماكة وتبجيلا. ومنذ أن حاذانى، تملانى وبغتة قال: آخيرا، فى أمل، أخيرا فى أمل!؟

تطلعت نحوه بعجب كأنه يسقط من السماء. وبلمحة أحطته: بذلته رمادية غامقة. أذناه عاريتان، وكشوفتان للريح. عيناه يلتمعان كالجمر. فمه سرى غامض. وبطنه ينهض إلى أمام. هز رأسه وهو يسألنى بتواطئ: أليس كذلك؟! لم أقل شيئا. من حركته المبهمة السريعة فهمت أنه يطلب الانصراب الآن. وبالفعل بدأت أمشىْ. امشى وأنا لا ألوى على شىء نوع من الامتصاص المريب بدأ يحتل اركانى. لم يكن الأمر واضحا بعد. ولم يكن كذلك فى أى يوم من الأيام! ومع ذلك، أحسست ببهجة غامضة، تشبه، إلى حد بعيد، بهجة الإخفاق/ عباس.

( ٥ )

• صراع الحب تعبير عن علاقات التسلط بين الناس.

اللغة الجديدة: لغة فيها انذار بالشر.

التحرر ضرورى من «مبدأ ضرورة التحرر».

لكى تحل علاقة جديدة، محل أخرى قديمة، يجب ألا تبنى على أساسها وألا تحمل منظورها.

بما أن الوضع القديم لم يعد موجودا ولا ممكنا، فإننا لا نفهم كيف يظل بعضهم يعتقد بأنه كان من الممكن لذلك الوضع أن يحدث على نحو آخر! وأنه، لو حدث على ذلك النحو، الذى لم يحدث عليه، لكان من الممكن له أن يؤثر، وحتى أن يغير، ما جاء به المستقبل. تحت ضغط ظروف أخرى. فيما بعد!

السقطة التاريخية هى الاعتقاد بفكرة الذات الأولى عن نفسها، والرضوخ لتصورها الأولى للعالم.

الآن صرت غريبا غربة مطلقة: هناك لم يعد موجودا، وهنا لست عندى.

تمايلت صاعدة كتف العلوة الترابية النابعة من الأرض: الأرض الغبراء المحشوة زبلا ورملا. على رأسها، تتوس تنكة الماء الصفراء المضيئة بعد أن ملأتها من الخابور.

وعلى مسافة منى، وقفت. وقفت تعب الريح الحارة، عبا عبا. وكأنها كانت على علم بوجودى المستشار، تصنعت وقفة خاصة، ابرزت، بشكل علنى. جمال ردفيها الصغيرين.، وحررت. قصدا، قساوتها لتصل، بين الريح والريح، إلى وبوضوح حسى كامل، حددت مكان الثلم الفاصل بين الفلقتين، وتحته، إلى اليمين واليسار، معا، خط انكسار الردف المستدير الخط الذى يعلن دقة ارتماء القمتين، خلفا وإلى الوراء: خط الاستواء المقدس والمحظور. مع الخط، صعدت وهبطت. وقبل أن أصل النبع، غيرت هيأتها، ومشت فى الطلق. بعدها فى المكان، نفسه، وقفت، وقفت أتأمل التراب والسراب. وقفت أتمثل تلك الوقفة الحادة، التى لم تكن تنم، إلا عن التحدى والحرب! كانت، حقا، وقفة قتال وصدام. وقفة إنذار عاصف بالشر. مع ذلك، تبلغت الرسالة. تبلغتها كاملة وعلى استعجال/ عباس.

الخطر العظيم هو أن تظل ترى العالم كما رأيته للمرة الأولى
لست أنا السبب، السبب هو الوضع الذى تغير كثيرا، والذى مع ذلك، لم يتغير قط!

لا يهمنى أن أكون أكثر سعادة. ما يهمنى هو أن أكون أكثر جذرية.

يجب أن تغامر بكل شئ للخلاص من شئ ما.

بنوع من الخدر رحت أتتبع آثار أطرافها المنهجية. أطرافها الوالهة وهى تطأ القاع الساخنة واها، واها. ولكى تسدد الضربة القاضية إلى ، مدت دون احتشام، كفها الأيسر اللواح. مدته إلى ثوبها المبلول الذى التصق بجلدها الأملس التصاقا شديدا. وبحركة بهلوانية ساخطة، . حطت الثوب حول خصرها المتهالك، حطا، حطا. تغير الوضع كله فى ثوان: الدنيا صارت حمراء من القيظ. السهل امتلأ فيضا. الخابور الموحل صار يجرى أنهارا أنهارا. ولم أعد أرى، منى، إلا عينى اليابستين، وهما تمتلئان بللا واضطرابا. ورأسى وهو يرتجف من الخشية والموت. يغدو تخينا، واجفا فى الفراغ، مثل رأس الثور المنحور. ومع ذلك، ظلت قدماى تتابعان. ترتميان الواحدة تلو الأخرى مثل أقدام الناس ـ الآلات . لم يعد للأرض ماهية أو لغة أو ملمس أو قوام. صارت مداسا . مداسا . أرض رخوة صفراء حارة مرمية فى التراب. أرض ابن جليوى. أرض ابن الكلب. وسريعا لذت بأقرب كوم من الرمل، وعليه ارتميت ارتميت آخذا وجه القاع، كله، ببطنى. بطنى التى انحطت، دون

حواجز، على القارة الرملية اللاهبة المشموسة. ولم ينتظر السماح له بالولوج. صار يندس عمقا فى بطن الأرض الرخوة، المتورمة من الحرارة والقيظ. ومنذ اللمسة الأولى، بدأ الدفق السار. الدفق الملتهب المأزوم. وكأن شيئا لم يكن، رحت أنام. أنام مرتميا على التراب/ عباس.

كان على، بعد ذلك، أن أصعد الدرب الضيق الملحوس، درب القطن العتيد. ان أحاذى الجيلان العلوية الحادة. جيلان الخابور السائب فى السراب. أن أرى، يسارا إلى البعيد، تلك الأراضى الواسعة المتشققة من العطش والخوف. أراضى الفلاة المستقيمة كالخط العدل صوابا. وأن أتملى، فى الوقت نفسه، ذرا ت الماء المتماوجة كالشعر الجميل، تغوص فى العمق القريب. تغوص دون فواصل أو حدود. لا يرد الأخدود عنها سوى الأخدود. كان الجوع الاسود تمكن منى. وأحسست بجسدى الصغير يتهالك ينطوى على نفسه يموت. وأنا أقطع الفيافى والقفار من «غويران» المترب إلى «الليلة» البائسة. ومنها، من «الليلية» إلى أرض «الحمزات»، حيث ينتظرنى «برهوم» وقدريه التوتياء العتيقة الملحومة! التوتيا تتلحم يابرهوم؟! ويتعجب برهوم من العجب: إحنا نلحم الما يلتحم، تحتسب اننا هبلان؟! قدرية التوتياء الوسخة المملوءة بنقيع البندورة الخربانة والبصل والزيت الحائل الخرنوب . منها، أتعشى وأعود. وإن لم أتعش هناك فلن أتعشى فى مكان آخر من هذا العالم/ عباس.

وكالعادة، سأقضى اليوم التالى جائعا، ملموما على نفسى. أتفرس فى الوجوه الحائثة قدامى. فى الأبدان المنشورة كالزنابير. عاما بعد عام: محاصيل ابن جليوى، محاصيل ابن الكلب.

وكالعادة أيضا، سأتملى حانقا لغد الأستاذ السمين. اللغد المرتمى على الفك كالزائدة. فوقه، تمام، ترتكز، بأبهة بليغة، نظارتاه السميكتان الخضروان اللتان يعد لهما تعديلا مبالغا فيه، كلما طلب من أحد منا الظهور، أو القدوم، أو المثول بين يديه ورجليه: أجلس. أجلس يابنى لأعلمك. اجلس. المرة القادمة اقص منك قصا. هل فهمت؟ اقص لحمك إن تخلفت. وان لم تحفظ درسك آخذك معى إلى البيت. وفى البيت احفظك الدرس. هل فهمت! وإن لم تفهم أتكفل بك من جديد. يقول هذا وهو يلتصق بالواحد منا التصاقا حميما! ألتصق أنا الآخر، بالدرب: البيت هنا؟ لا. هناك! بيت العجاج والدجاج المسروق. بيت الريش المنتوف ريشة. ريشة: هدى ماهى عيشة. بيت من البيوت الكثيرة. بيت لا حفيظة له، ولا قرار. اى بيت هو؟ وكيف ألقاه؟ كدت أصيح بأعلى صوتى، برهوم، برهوم! لكن الليل الذى كان يحط بسواده البهيم منعنى من الصيح.

مع ذلك، القاه! هو، البيت الجوانى، الخاتل فى زوايا البيوت جميعا البيت الوحيد البعيد. أول بيت أشم فى حناياه رائحة الشواء والعواء. والذى، على عتبتة المصنوعة من التربة والريح، يقف برهوم واجما وهزيلا. ينتظرنى حتى أجئ: يا هلا يا خليل. يا هلا وحياك

الله. تعال تعال. ويدلج خليل الوافد من الغربة والاضطراب. خليل، القادم من أم الدروب، يتقدم بهيبه النازل من الشبح والقراص. يتعجب وهو يرى الوجوه ملجومة، كالحة كحزم الحطب القديم. الحطب الذى جف ومات: لا نار ينفع ولا أقواتا. ويأخذ «برهوم» بيد الخليل الطالع من الظلام ليرميها، بمحبة وإصرار فى صحن المرق والثريد: كل يا خلى. كل الصحن كله لك . لك وحدك. نحن أكلنا. نحن نأكل كل يوم.

وأصير أتملى، كما الدوم، وجه برهوم المعفر بالتراب، ويديه السوداوين الناحلتين، وهيكله البنى القانط. وتقع عيناى الخفيتان على قدميه الناشفين كقشور القطن الجافة. قطن العام الفائت فى «الحمزات» . وعلى بطنه اللاصقة بالظهر..وعى النحر. برهوم المائى يسد وجه البيت! يومئ بيديه، من بعيد! لكأنه ينادى شبحا خرج توا من الغيم. يصيح عاليا وباستمرار: ترانا هين. يا مضيعين الدرب. ترانا هين! وعلى الحس أجئ. أقاسمه لقمته البنية، المغمسة بزيت القطن الحائل، الملفوفة بقشور البصل الأحمر الورام: بصل أرض الحمزات الطالعة من الماء. وأرى، فى ذلك الضياء القاحل، اعناق الشجر القصير تتطاول مع الغروب. ومن بين كثافات النباتات التى صارت تحاصرنى الآن، ألمح، من آن لآخر، ذؤابات العروق البرية تتخالط فى الحضيض. وأظل أتابع، بوجل، نقل قدمى العاريتين، محاذرا لسع الشوك الأسود الوخاز. الشوك الوحشى البارد. شوك ابن جليوى. شوك ابن الكلب اسرع أكثر. العشاء صار جاهزا حتما، وبرهوم ينتظرنى بفارغ الصبر، على

الباب. وأكاد ألا أصل البيت: شوك يحاصر شوكا. نباتات برية يلتصق الغصن منها بالغصن، تملأ وجه الأرض، وأفاع صفر خضر طويلة، ذوات رؤوس صغيرة مسطحة، وألسنة لاذعة، تختل فى كل مكان! أين أدوس؟ اين أضع حالى؟ كيف أتابع المسير؟/عباس.

وفجأة، ينبثق الصوت من السكون. ويرج النهر صراخ قاس جارح: واع واع! ومع ارتماء الصوت فى الفضاء، أرتمى، أنا الآخر، على الأرض. وأحسنى أنجر طولاً، سائلا على النبات. هابطا نحو الماء. وأتشبث، باحثا عن مسند أو قرار. ولا أجد شيئا. وجع القاع أملس مثل ابط العروس. اشجار القاع السود المنخورة، كلها، لمناها، حجرًا، حجرًا وكومناها على الخابور. وقبل أن أتعلق بقرار الشوك الواهى، كان الصوت يغادر المكان: البومة البرية التى أخافتنى عافتنى! ووجدت حالى انلقح على الأرض ومشتقاتها، وأنفاسى تتلاحق كالعصافير. أطير ولا أطير.

كالبرق، ابتعدت البومة فى مساء الشمال الصافى. ابتعدت صافقة بجناحيها العريضين. خارقة هباب الليل القادم من الشمال. تعجبت: ليل شمالى!؟ أأكون انهبلت؟ وتسقط اليد منى على القلب. على القلب الصغير الخافق، باستمرار. غثيان حامض وردئ كان يصعد النحر واللسان وأريد أن أصيح لكن الصوت لا ينبع من الرغبة. الصوت ينبع من الأحشاء والأحشاء تموت، أحيانا، كما تموت الخيل.

وكدقات جرس خرافى صارت تتتالى، متخامدة، صيحات برهوم

الغاطس فى البعيد. تتتالى مقتربة منى دون أن تمسنى أو أمسها.
آه ! كيف أحرك العضل والجنان؟! كيف اخترق هذا الصمت الأسود البغيض! كنت استأنس بالصوت. الآن لم يبق فى المحيط سوى التلاشى: لا شىء. يتحرك لا يحمل الريح نداء. والماء يجرى هادئا كالحرامى. لا شىء أبدا، لا شئ وبغتة، ينبثق الصوت: خليل. خليل. خليل. وأحس ارتعاشته القلقة تدخلنى من هنا ومن هناك. وينتظر الصوت صوتى الذى لن يصله. ويتردد الصوت، من جديد، مبعثرا فى كينونة الليل. يجتاز المسافات الشاسعة، كلها، ليصل إلى. يصل نحاسيا، فاترا، محبطا، ومريرا. وكأن تلك كانت صيحته الأخيرة قبل أن يولى الأدبار، عرفت، كأنى رأيت، أن برهوم يستدير الآن، داخلا باب البيت الذى لاباب له ولا أسباب. يتوقف حائرا، هنيهة، ومن ثم يعود. يعود، يداعب شاربيه الكثين بمرارة، قبل أن يصيح، للمرة الأخيرة: خليل. خليل. خليل. وهذه المرة، لن يقطع الصياح قطعا، بل يكسره ويشظيه، دافعا بجزئياته المتناثرة حتى حدود الضياء: ضياء المدينة الغارقة فى الظلام. وبكيانى كله احفز. أجئ حثيثا مع الصيح. لكأنى صرت اعرف الأمكنة والسواقى والجوالى والأواطى والأعالى أعرق أخاديد المطر المحيطة بالبيت. أعرف أيضا مصدر الصوت. شدته. اتجاهه. منحاه. والريح التى تحمله شرقيا حتى أوائل البر. وهدأ روعه، دفعة، منذ أن رأى الزول. وكالأم التى افتقدت وليدها والتقته، هجم على هجوما. وضمنى ضما، وهو يردد غير مصدق: قلبى اشتعل عليك، وصلت؟! ويعيد بلهفة: أخيرا وصلت. تعال. تعال. ويتملانى.. ولا يرى الا الظلمة

والختول. وينتظر الكلام، ولا يشم إلا ، الا الصمت، لم أقل له شيئا. كانت البومة الجهنمية، ذات المنقار العصبى الحاد، كمنقار السيف المسنون، تلوح لامعة فى الرأس. والارتجاف يأخذ باللباب: اللون الأسود خداع. الابيض موت.. الأحمر نار. والأصفر؟ العتبة الأولى من عتبات الدرك الأسفل والغياب. لا. لم أقل له شيئا. لم أقل إننى ارتميت. لم أقل إننى خفت. لم أقل، حتى، إننى جوعان/ عباس.

وبين النظر والنظر، يمر الحس المخبول، صوابا: هذه الدنيا الحقيرة من ينتقذنى منها؟ من؟! ويتبع المنهك جعبر خالص مستشار، مثل جعبر الثور المذبوح: آخ. آخ. بعد الجعير الحا فى يرث الصمت الخلاء. يرثه برهة قبل أن يصعد العواء المشقوق مثل عواء الكلبة الوالدة، من جديد يلى ذلك، كله، وقع ارتطام الجثة المفاجئ بالقاع. واستجير: برهوم! ودون أن يقول شيئا، ينظر القديم المسالم، نفسه وهو يردد بصوت خفيض: لا تخف. هذا هو الملا صالح. صالح المزعل.، ابن لعوب، هل نسيته؟! وأردد وراءه: صالح! صالح! والبقر الكثير الاصفر الاحمر البنى المخطط يتقافز فى رأسى. «بقر» الملا صالح الذى ضيع شبابه لاحقا به، كما يلحق الوغيد أمه . آه ! الجعبر العواء الكلبى العائر، ومن ثم،و تقع الصدمة الرهيبة: صدمة الرأس القاسى بالجدار! رأس صالح المزعل الذى لايكف عن الترديد: الظلم ظلام، ياناس. اجيرونى من الظالم. أجيرونى. أجيرونى. يردد الكلمة بعد الكلمة وهو ينظر، خلسة، إلى هناك : إلى الدار البيضاء القاطعة، التى تحجب شمس الصباح الساطعة، عن البيوت النازلة فى القاع.

ولم أقل شيئا. كان الليل الوليد يملأ المكان. والناس تخر فى البيوت المحفورة خرا، خرا، وشيئا فشيئآ، أخذت القاع بمقعدى، وصالبت، ببراعة رجلى، وأنا اتملى الوضع، حولى، بخشية وازدراء. اتطلع يمينا،. اتطلع شمالا. خلفا وقبالا. اتطلع كالخائف الرقاب. باحثا فى كل شئ عادا كل شئ: اللحاف. المخدة. طاسة العصيدة. الفراش الملحوس. الحذاء الأصفر القديم.تنكة الماء المطحة الملحومة لحامين. كيس الطحين الفارغ. والأشياء الأخرى اتى لم اراها من قبل. أعد هذا. أعد ذاك. اغير، فى الوقت نفسه، جلستى ووضعية ساقى. أفعل ذلك. كله فى الصمت: صمت أول الليل القاسى. الصمت المرهوب الذى يسبق العشاء. آه! شئ ما ينقص. احد ما ينقص. بشر كثير لا اراه، هذا المساء. ويتسع المكان الضيق يغدو متاهة، ضربا من الخشية والغلواء. يصير الفضاء المحصور كونا يضيع العالم، كله، فيه. ماذا دهانى؟! ولم لا ارى إلا ظهر برهوم المقفى، مقرفصا، ينفخ النار؟ ينفخ النار، ساحبا أزمات الدخان الأزرق الحارق. دخان أغصان القطن المبلولة، التى تعاند الاحتراق. ينفخ ويسب: قطن ابن جليوى، قطن ابن الكلب. تى النار ما تقدر عليه! وفجأة، ارى الغطاء يعلو عن الأرض: هناك، تحت الكومة البالية. الغطاء يتحرك! يكاد يمشى. يريد أن ينهض، ولا يقوى، الغطاء كله، يتململ وكأنه يخبئ أفعى هائلة! كدت أصيح. لكن الجرد العصبى، ذا الحركة المحورية الحادة، أضاع صوابى. جرذ آخر، طلع من وراء العمدان المنخورة، الملاصقة المسحور! ولكن لماذا لا يلتفت برهوم؟ لماذا لا يطرد الجرذان من البيت؟ لماذا؟! جرذ ثالث

خالط الاثنين الطالعين من الأفق. وكأنها تشاورت على أمر ما، اختفى الأول، ثم الثالث، ثم الثانى. بترتيب مثير، اختفت الجرذان تحت الغطاء! واصابت الهزة الرجافة الكوم! اللعنة، من اين نبع الرأس المدور الملهوف؟! اين كان يختبى؟ ومنذ متى، مات؟ وأخذتنى الرجفة العنيفة، نفسها. كدت أصرخ، لكن الظهر المنكب على النار استدار، بغتة، وقام. وبخطى يائسة وملولة، اقترب برهوم من الرأس الملثم. ومسح العرق المتناثر، كحبات البرغل، عن الجبين، مسحه، و هو لا يلتفت إلى: تمزق اصفر وغريب، تمزق جوفى مفاجئ احتل كيانى، كله، شلنى عن الحركة والانتصاب. هاهى ذى تمد لسانها اليابس لترسل السلام إلى. ترسله، كالعادة، بعد الغروب بقليل. ترسله، هذه المرة معزولا: لا قبله. لا حركة . ولا التصاق. أتكون هى الأخرى، تريد أن تموت؟!/ عباس.

بلى! السلام رخو. مشلول. متهامل. يكاد يكون مسلولا. سلام ميت. ميت منذ دهور: (بس) اشلونك؟! ولا أعرف ماذا أقول. كلمات عجلى. ساخنة، ملتهبة من الحرارة والحمى، تراكمت على شفتيها المحروقتين. كلمات تتالت دون معنى، أو سياق؟ واختلط صوتها المتخافت عواء الملا صالح، المفاجئ، الذى راح يشق الفضاء:

«هذه الدنيا الحقيرة من يجيرنى منها؟ من؟» تلاه، ذلك الجعبر المشئوم. جعبره وهو يعد البقر الاصفر السمين بقرا بقرا، قبل ان يعوى من جديد. واكتفيت بأن همست، أنا لآخر، همست أشياء

كثيرة لا علاقة لها بما يحدث فى آن. وسمعت نفسى، جليا، دون أن افهم شيئا مما أقول صرت أخرس؟!

رأتنى أتمتم. صارت تمتم، أكثر فأكثر، وبلا ارتباط، وأراد برهوم أن يعيدها إلى القفص الجهتمى: خشى خشى. البرد ماهو زين. وتيبست قاومت، بمل ظل لها من بقايا القوة الصفراء المنتهية قطعا: لا. خلنى اشوف خليل. اريد اشوفه قبل أن اموت. ماذا كانت تعنى تلك الـ«لا» التى انطلقت، كالرصاصة الحمراء، إلى مكان غير محدد، ولا معروف؟ كاد «برهوم» ألا يرضخ. عند. وعندت وعندت. صارت الأنظار الصفر الثلاثة تلتقى، لما، وتغيب. لتلقى من جديد. وبين كرها وفرها اختفى الجوع القديم. وأحسست بى متخما حتى الاقياء. لكأننى قمت، توا، عن صحون «الداموك» المليئة لحما وثريدا باستمرا. آه! الغثيان. الجيشان اللعبان. الحرقان. الحمضة الطالعة من الساق إلى الترياق. الحمضة المنبثقة، كالحجر الهابط ثقيلا إلى الرأس، من اين جاءتنى؟! أنا الآخر، اريد أن أقئ؟! وأفر كالثعلب الذى قارب الانصياد. أطأ الأرض. منلقحا، على وجعى ووجهى، والماء الحامض، النابع من الشرسوف، ينبجس منى سيولا، سيولا وكالقنقدة المرعوبة تدخل، كلها. فى الغطاء. ويعود برهوم، كله، إلى النار. يعود ينفخ الحريق. ينفخ بملل واستياء. ويصير يسب، وهو يزيد النفخ نفخا: حطب ابن الكلب لا يحترق، ولا ينسرق، اوف . اوف. اوف ينفخ وينفخ. وشيئا فشيئآ، اصير اسمع النفيق: نفيق النقيع الذى قارب الغليان. ويظل ينفخ. ويظل الشرير

يتطاير، كالفراشات المضيئة، فى خلاء البيت. والسماد الناعم، كالطحين المدقوق، بتراكم فوق وجهه وشاربيه. ولا يسمح فمه ولا شاربيه ولا حاجيبه. يظل ينفخ، منهمكا، ويسب: نار ابن الكلب، تسل وتعل. نار ابن جليوى نار النهاب ابن النهاب، وبلا التباس، يحل سرواله، أو ما يمكن أن يسمى هكذا، وبامتعاض صارخ. يقف فوق النار ويرسل الصبيب. صبيب بوله الذى اندفق كالسيل. ويش. واصير ارى سحب الانطفاء. سحب اللهب المنكفى، وهى تتعالى فى الريح. يرافقها أزيز مكتوم، مقفل، مصكوك، مثل أزيز الوحل المداس. وتتحول النار، سريعا، إلى رماد. ويتنفس برهوم الصعداء: نار ابن الكب، ما يؤكل حارا يؤكل باردا. يقول هذا ويبصق . ويبصق عباس.

بين البصق والبصق، ناس الغطاء: الزواية السوداء الخفية. وارتفع الرأسى المثخن بالحمى والاصفرار . ارتفع، ليلقى النظرة الأخيرة على الساحة. ليتأكد من أن الطعام، الذى كان ينتظره منذ الصباح، غدا جاهزا، وصار. وتحركت الشفتان الغليظتان المحشوتان بأوائل الموت، احتجاجا: ليش طفيت النار؟اش صمت، اسود مكتظ ملئ وقاهر. الاحتجاج والارتجاج: ليش طفيتها!؟ خليل جوعان. خليل بردام. وأجد نفسى، من جديد، أحكى. احكى قليلا. احكى كثيرا. اقول اشياء لاعد لها ولاحصر. اشياء لا تتعلق بها ولا بالنار ولا بى ولا ببرهوم. آه! من اين كانت تتوالد تلك الاشياء الغريبة مثل الجراد الهاجم فى الخريف؟ ولم امتلأت أنا الآخر، فجأة بالإصفرار؟! اصفرار وجهها المخيف؟ وجهها الأخضر الداكن.

وعيناها اللبنيتان الصفراوان المحروقتان. اى لون كريه، هو. هذا اللون العتيق، الواهن، الثخين الطيني، الغميق، الذى يلوث بضاضة جلدها القديم! وكأنها اشارت إلى: اسكت. ولم اسكت. كان الكلام يتطارد فى رأسى كالجرابيع.

وهتفت به: برهوم! وبحنان غريب، استدار نحوى. استدار دون أن يقول شيئاً. كان يتوق السؤال الكريه، أكيدا. ومن جديد، أدار ظهره المسنن الطويل، وراح يسوس الرماد. ليش ما توديها على الطبيب؟ ليش؟ ومشى إلى النار. مشى بخطى طويلة خشناء. وألقى بالحطب على السماد. ألقى بالحطب كله، وبلا استثناء! وفجأة، انبثقت أولى الشرارات، ومن ثم التهب الموقد التهابا. التهب من المحيط إلى المحيط. الموقد المطفأ غدا، فجأة لجة من النار! وأخذت ألسنة اللهب النقى تلتهم الظلام ألسنة شمطاء متطاولة. اطرافها حادة مسننة كالحراب. من حواشيها تفيض الحرارة فيضا: كانت الريح قد بدأت تهب، ريح الغروب الآتية من بعيد. فى وجهها أح برهوم وقح: آه يا هلا بالريح!وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا، زت بقية الاغصان فى النار، زتا، وعاد ساكتا من جديد. ولم يعد يسمع الا صريرا احتراق الحطب المسكور. الطبيب؟! البارحة، جاءتها لعوب، ام عويد، سوت لها حجابا من الودع والخرز والصوان. وسقتها من نقيع الخرنوب الممزوج بالدفلى والزيرفون. وبخرت رأسها بحريق السماق وطحالب النهر البعيد. «أم عويد» تعرف كل شىء. أنت تعرفها جيدا. هى التى شفتك يومك أردت أن تموت نسيت؟؟ لكنها صفراء. صفراء صفرة عجيبة. صفرة ثخينة تلتصق

بالجلد والاحشاء. حتى اظافرها، يا برهوم، صفراء! «والذيب». الطيب أحسن. أحسن يا برهوم. الطيب هو الله. أم عويد قالت: هذا هو أبو صفار. ومن أصابه أبو صفار، عليه أن يقعد بالدار، منتظرا حكم الواحد القهار. وكأنها أرادت أن تشاركنا بحث مصيرها الرهيب، تحركت، فى العتمة الشاملة. تحركت لامة، بحركة رخوة، أطرافها الصفر الهزيلة، إليها. تكومت بأعياء على مقعدها المنتفخ السقيم، كاشفة، هكذا، هيئتها المريبة التى لم أستوعبها، أبدا، من قبل. غريب! كيانها منفوخ مبتذل، كأنه المريبة التى لم أستوعبها، أبدا، من قبل. غريب! كيانها منفوخ مبتذل، كأنه محشو بالماء. لا أصابع لها. ولا مفاصل. ولا أنحاء: امرأة كتلة! جلدها توسع حتى الافجار. وحل محل تكوناتها القديمة الجميلة تكونات مستحدثة. تكونات كريهة. تتكاد تكون تشويها مقصودا. وبحركة مملوءة توترا واضطرابا، لمست، لمست مرارا بطنها المتكوم أمامها، وقالت: لولا هذا الشئ الذى فى بطنى، لولاه، لما همنى الموت/ عباس.

- طالما أن التراجع ليس ممكنا فى التاريخ، فأى شئ آخر يمكنه أن يمنعنا من أن نتقدم، غير القمع؟

إن كان هذا، كله، قد حدث بسبب أخطائى، فلأخطئ، مرة أخرى، فلأخطئ.

استهلكت الاحتمالات، كلها، لكثرة ما تصورتها، وأستهلكتنى: التصور، هو الأخر، كالحياة يقتضى زمنا ومقاما.

عندما نخاف نشجع الآخرين على ألا يخافوا.

أحسست بالنقيع الصامد يكف عن الغليان. يهدأ قليلا. تتفقئ فقاعاته البيض الاهليلجية. تتفقئ، تاركة صوتها المائى البلل، يطير على السطح. ومع طيران الصوت الساخن، كشف القدر عن بعض مكنونات جوفه. جوفه الملئ بالمرق والنزير. وفى البعيد، صرت أرى، ثملا من شدة الجوع، كسر الخبز القديم تطير من شقوق النخلية إلى: النخلية النحاسية الصدئة ذات الأسلاك الواسعة المحفورة فى الخشب الرطيب: نخلية ابن الكب لا تحمى شيئا من شئ الفيران تدخلها، والحشرات، والبق، والخنفساء، وحتى الافاعى.

كان برهوم يردد ذلك مستاء. وبالفعل، غدا أنفه دقيقا، حادا، يقطر حرقا، ومرقا وسيلانات شتى: سيلانات بيضًا لزجة مطاطية رجراجة. لها إشعاعات مثل إشعاعات القمير الدانى من الذبول. وعلى جبينه، صارت تسيل حبوب العرق المكفهر: عرق النفخ والحاجة ولرضخ. وفجأة بصق: تفو على هذه الحياة!

وانكمشت انا انكماشا لم أفق منه بعد: لماذا لم يأخذها على الطبيب. الطبيب. مع الطبيب، رأيت الصفار الغامق يخف فورا. يتلاشى محله، تحل حمرة سمراء ندية. ويزول الوهن العميق الكاسح الذى كان يتملكها حتى الاعياء! وشعرت بنفسى تمتلئ بقوة خفية، تنبض بالتوتر والإزدراء. قوة شيطانية، ولدت من حضيض الشعور القاتل، الذى انتابنى بلا انتظار، وزال فجأة، أثر الجوع المحط الذى كان يستولى بفجاجة، على صرت أريد أن أجر نفسى.

ان أخرج إلى البر أن أتنشق قليلا من الهواء. أن أرى الماء الذى لا يزال يجرى ضائعا، فى القاع، أى شىء تغير، حتى اتغير، أنا، إلى هذا الحد؟!/ عباس.

وبغتة ركبنى الصَقَع وملأنى السواد بالرهبة والإرتباك. التساؤل الخفى الهائب، الذى التجأ منذ الوهلة الأولى إلى الباطن، بدأ، الآن، يمد نفسه يتمدد كالحديد الحامى. يغدو ملحا ومخيفا كلما تقدم الليل فى الليل وصرت أتمتم كالمجنون. ولكن أين اختفيا عنى، هذا المساء؟! اللعنة! أية أفكار جهنمية تراودنى عن نفسى، الآن؟ ولم لا يعود، فجأة، عباس؟!

ورأيت برهوم يحوم. يحوم كالمضيع شيئا لا يمكن العثور عليه ماذا جرى له، أى سوء أصابه، أى يأس غبى يملأ أوصاله الملتهبة العجفاء؟! ولم لا يكلمنى اليوم، كعادته، بحنان؟! أين، أين حطمها، إذن هذا اللقى الشقى العاثر القطب؟! آه، فى غموض ذلك الليل الملعون وضح لى فجأة، كل شىء، لابد أنهما ماتا! ماتا؟ وقد تركتهما، منذ قريب؟! لا. لا. وبين الصيحة والصيحة ، التفت برهوم هادئا، مغلوبا على أمره راضخا - مرضوخا. كنت أصيح: برهوم، أين هو «فجر» الصغير؟! «فجر» الوليد الذى لا يكف عن التقلب والإرهاق؟ وأين هى «خزنة»؟ خزنة الرضيع، ذات الوجه الخانس،، والفم الكانس؟! وكالجال العريض، يرتمى برهوم، فوقى، وهو يردد بآلية مخيفة. اهدأ يا خليل. إهدأ يا خوى. فجر فداك خزنة فدتك، الله يعطى ويأخذ، اهدأ يا خليل. اهدأ . تعال نأكل، تعال، تعال.

وأحسست بى أدخل التربة ، تربة الخابور اللئيم. أنا الآخر أحسست بى، أندم مثلهما فى التراب، وبدأ رأسى الصغير الأسود ينوس، مثل رأس الذبابة المذبوبية ذبا، لكأن شيئا ما انتهك فى، وهذه المرة، لم يكن المنتهك ابن جليوى، ولا الدرك، ولا المختار . هذه المرة. كان المنتهك هو.. هو من؟! لم أعد أرى؟ أين المفر إذن؟ أين المفر؟ فجر راح ، وراحت خزنة، ولا مطر يسيح المكان، ولا مزنة! ومنى برهوم بحنانه القديم: القصيد ما يفك أحدا. الأولاد ياخوى راحوا. والبقية بحياتك، وعبر هيكل برهوم. الذى غدا شفافا، التقت عيوننا معا: عيونى الحمر الذابلة التى إرتدت إلى أحشائى ، وعيونها الصفر المنفوخة العيون التى لم تعد تمتلك ماء لتبكى. ولا عرقا لتنز، ولا سيولا لتقطر، ولا دموعا لتمطر! آه عيونها ماحلة ؛ وأرضها قاحلة وانتظرت أن تقول لى شيئا : أى شىء . كان لسانها الأصفر المفنوخ يستدير ويستدير، ولا يقول كلاما، وعيناها تتابعان الفتح والاطباق، تصلان إلى ولا تصلان ، أى شيطان رجيم، هى، هذه الحمى اللعينة! وفجأة ، كف برهوم عن حركاته العصبية العنيفة التى كان يبعج بها بطن الأرض الهشة بقسوة، واستدار من الطرف إلى الطرف ، من أعلى إلى أسفل، وليس العكس وراحت نظرته المريرية تسقط على. تأكلنى أكلا. نظرة غامضة. مرعبة، مرعوبة، نظرة مليئة بالتحدى والقسوة. قسوة الحب المسلوب! نظرة تخبئ اضطرابه ولا توحى إلا بالنقمة. النقمة التى لم يعد من الممكن إخفاؤها: نقمة على كل شىء. ولكن، من أين جاءته تلك النظرة الشاملة، بعد نظرته الخاملة؟ وكيف

صاير يعبر، حتى با كرم، عن قراره الجديد؟! قراره مواجهة ما لا مفر من مواجهته، بعد الآن؟! أيكون هو الآخر. مس؟! وكالبرق البعيد، لَمّ شمل نفسه، وبتمهل وكبرياء صار يقربنى من الطعام العشاء جاهز، تعال نأكل. عشاء الموتى؟ لا. لا أريد أن آكل. لا أريد. وبهدوء ردد: عشاء الموتى أو الأحياء، أى فرق؟ تعال نأكل. تعال. لا! من يستطيع أن يأكل بعد اليوم؟ مَنْ يستطيع أن يفعل شيئا من لا شئ/ عباس.

وكالملسوع أخرج خطفا إلى البر، ويلمنى من الشليل: أين نروح؟ ولا أرد. ابتعد. وأنا، أصيح: أريد أن أبول. أن أبول. وعلى التراب انقح. وأقوم وانلقح، وأقوم وانلقح من جديد. وأقترب،وابتعد ولا أستدير، وأستدير أستدير ظلاما. أى خفوت الضوء ومواته المستديم،. ويتراءى لى البيت قابعا، وحده، فى المكان. بيت الشياطين المقرنة والأزوال. بيت الأموات والأحياء آه لأبد أنه دفن الاثنين معا، تحت أرض البيت، ولكن كيف استدل إلى نهج الخلاص، ومن أى الزوايا ألتمس العون؟ ابتعد إذن؟ ابتعد على حدود الكون الواطئة، أصير. على حدود السراب الليلى، أتوقف، أتوقف واستدير من جديد. استدير غربا، غربا حتى الهباب. ولا أرى سوى الدمع يتقاطر من المقلتين. يرافق الدمع إفرازات غريبة، شتى، تتبع من أنحاء بدنى المرتعش؛ جميعا، وبلا استثناء. ودفعة، أبدأ الركض. أبدأ الركض فى الفضاء. وشيئا فشيئا. يأكلنى الظلام. الظلام الغاشم واللئيم: ظلام كل شىء. لا ليس قدامى إلا الأرض المفلوحة بعمق، المملوءة بالأتربة والإحشاء والأقياءات

والحشائش المختلفة الأنواع والأجناس، تعلوها حروز القطن المستديمة. قطن ابن جليوى. قطن ابن الكلب.

على جدود القاع والأفق أرتمى. أرتمى، ربما جوعا - ومن لم يهن بالجوع هان بغيره - والجوع قتال. الجوع الأصفر المخيف. جوع الجزيرة الخضراء. وأتطلع يمينا، اتطلع يسارا . أتطلع خلفا وغرة وأماما وتحت إبطى وعند قدمى، وفى الأنحاء العديدة الأخرى، أتطلع، ولا أرى سوى القطن. القطن يملأ النوء والظلمة والضوء. القطن فى الماء. فى الهواء. فى الأرض. فى السماء. القطن فى كل شىء حتى فى القبور. عجبا! من أين ينبع القطن المسعور. هذا؟ قطن فوق قطن. وكالمنوم، عدت ركضا ركضا. ركضا . وأنا ألهث: الطبيب. الطبيب. ولصق البيت الأسود المشقوق، توقفت عن الحركة والكلام، نهيت عميق وتأوه قاس، بصدعان سكون الليل، ومن منافذ الضوء الخافت، تجلى لى المنظر المريع: أشلاء، توسلات، احتجاج وارتجاج. كل شىء كان يختلط بكل شىء: آه ! الحقد الأسر الذى كان يملأ أركانه. هو الذى دفعه إلى إلتهام اللحم المريض بمثل تلك القسوة والانتقام!؟ كان هجومه حارا . شبقا . حيوانيا عنيفا . لا زحمة فيه ولا احترام : هجوم متوتر. لا يمكن رده. ولا صده. ومع ذلك، كان الاصفرار السقيم يدافع عن نفسه، كما يدافع سقم عن حاله. ولم يفده ذلك الدفاع الواهن شيئا . كان القضيب الأسود البارز، المحشو بالدم والغيظ حشوا، يتقدم الهيكل الناحل إلى الأمام . يتقدمه!؟ يجره. يجره بخيوط لا مرئية. خيوط لا خلاص منها، ولا إنفكاك: برق من الفورة المتفجرة المجنونة. برق لم يفلح

صياح الرعب فى صده دخليك أبعد عنى. ترانى أموت. أموت. آه!
حاوت أن تصده ولم تقو. أن ترده ولم تقدر. أن تهرب منه ولم تتأ.
كل ما ما كانت هى قادرة عليه. هو أن تستدير. أن تستدير، منقلبة
من جنب إلى جنب، دون أن تبرح المكان. وبهمجية لا مثيل لها،
اعتلاها، وكأنه أراد أن ينتقم من موتها المحقق والقريب/عباس.

## (٦)

لا تعادل قوة الحقد إلا قوة الحب، ولا قوتيهما معا إلا قسوة النسيان. الناس الذين يخافون يخيفوننى

النهر يبتعد. غابت الأرض والسماء معا. ولم يبق فى الكون إلا الأشجار القصيرة النابتة، توا، بحذر شديد، كنت أنقل أقدامى. أريد أن أروح. أن أذهب بعيدا، إلى أبعد نقطة فى الأرض. أن أضل طريقى، منذ الآن، وإلى الأبد. لم على أن أعود؟ أن أسكن فى نقطة ثابتة فى القاع؟ أن أساكن أناسا ساكنين، أعرفهم ويعروفننى، أحبهم ويحبوننى، حتى الموت؟ أى ربط مخيف، هو هذا الربط/ عباس.

قبل أن ألتف حول العلوة المملوءة بالشوك والحماض والقراص والخراء وحفر الأبوال النازلة من عل كالمزاريب، قبل أن ألوف حولها من النبض إلى النبض، لاقانى راكضا، رافعا شليله، ويده

الصغيرة تهفُّ فى هواء القيظ الحامى. وقبل أن يرى علائم الغيظ والشر على وجهى، قال لى باسما كما من قبل: شوفنى، وأشوفك. بقيت صامتا، أذرع الأرض المدورة التى لا تكف عن الانحدار إلى النهر. بقيت صامتا. أذرع الأرض المدورة التى لا تكف عن الانحدار إلى النهر، وبدا الماء ، فى حضن القاع، أحمر، قانيا، شديد اللزوجة ومن جيلان الأرض الهابطة حضيضا يخرج، بين الحين والآخر، ما لم أكن أتوقع خروجه أبدا: يخرج السف والحصان والثلم الأسود العابس والشيطان. ابليس الرجيم، ذو القرون المقرونة بحيا حمر نارية مشحونة بالشر والخطير. ودون أن التفت إليه، قلت له: امش. امش. لم يمش: الغبى، ابن المختار. ابن الرجل الطويل العريض اللابس الألوان كلها. الملثم صيفا وشتاء،. المثقوب ثقوبا، ثقوبا! من ثقوب الرصاص القديم إلى ثقوب الحفر والتنقيب عن الأورام. إلى ثقوب العاهات العديدة الأخرى.

لا. لم يتحرك ذاك السافل، المحتال، بل: دنى متأهبا لرفع ثوبه إلى أعلى. ليكشف لى. كما هى العادة، عن قبة بطنه البيضاء اللامعة، يصير يقهقه باصقا حثالة لعابه الأزرق فى القاع، فاتحا للريح شدقيه ، من أين نبع ابن الكلب هذا الآن؟! وكيف يخلق التراب مثل هذه الأشباح اللدنة الصماء؟ لا. لن أكشف أعضائى لأحد، بعد اليوم. امش . أمشى، أنا الآخر، مستاء والأرض ترتجف تحت قدمى. أمرتنى؟! أمرتنى! أعاد من جديد ومن جديد، قال متهكما ملفوفا: أتأمرنى يا ابن الشحاذة والشحاذ؟! وبرقا، طلع الربوة الترابية القاحلة. وشمر باعتداد هاك انظر. انظر، وأرنى فى

التو مقلتيك كان الاصفرار الغامق يهيمن على الفضاء، يؤذيه لون الكره. لون الموت المفاجىء لون الحنطة حين الحصاد: كان كل شىء أصفر: السنابل تسقط حين تصفر. العشب يموت أصفر. الإبل تفطس عطاشى وصفرا، ولا تهذب الخيل اصفرارا. والأرض القاحلة، تكون هى الأخرى، صفراء. صفراء مثل الموت. وهى؟؟ آه ها هو ذا، لا يزال واقفا فى الفوق.. محزمه عار. وسطه متدل فى الريح، والكون معتم وكئيب بأى حق يدل آلاته على؟ ولأية غاية سلطان؟ لا. لن أرضخ لأحد، بعد الآن لن أرضخ/ عباس.

وكالعصفور الذى يلتقى بوليفه، نط مقتربا منى. نط مبتسما، ولكن يتحفظ، هذه المرة، لكأنه استشعر خللا فى المسار ويلمح البصر، تناولت الحجر الأسود الصلد. حجر الصوان القاسى وعلى قرنه الأيسر الصغير استقر فجأة. كل شىء: الحجر، وثقل ذراعى، وآهتى، وانصباب الكثافة وقدح الشر من عينى. وكتلة اللحم الأصفر، والتوتر. والاستياء وبعد الاصفرار القاحل، أحمر كل شىء، الجلد والثياب، والفجوة والتراب. ووجهه . ووجهى وبقعة السماء المكشوفة للريح. والحقول المترامية الأطراف. وحواف النهر. وبقية العالم، الذى لم أعد أرى منه شيئا سوى الدم/عباس.

وحلت المصيبة على العصيبة، لماذا ضربته؟ أين اختبئك، أين؟ أبوه يلقاك ولو دخلت بطنى، تعال، واختل، كالعصفور الملهوف تحت الثوب الأسود القديم. تحته، بانت على الإغواءات جميعها، دون حجاب: آه! ما هو، هذا الشىء الأسود الصغير الكبير الذى يكاد

يكون مغيرا؟! وهذا الفم الآسر المتذلل المتطاول المختبئ في التحت والإرتفاق؟! وبدأت أخرج من الغلاف. أشق الجلد الرقيق الساتر. أى جلد لعين، كان يحجزنى، قبل الآن؟ وأى مدى، بعد الآن، يلمنى ويشفينى؟! لا أختل ياعجى. أختل وأختل فعلا. ألزم الصمت والإندهاش. أحط حالى فى حالى ، وأنا أتبين الانبهار والانكسار شىء ما أحال خوفى إلى طمأنينة. وبأسى إلى انغماس انغماس فى تهور الكلأ الأسود والمطر النزيز. لا، لا نأمة من الأعلى ولا سلطان. تبجيج هائل يملأ الجسد والأحشاء، ويحل الكلب والخماش فى أجزاء من أجزائى، وفجأة أغادر المكان ، وتصير تتلمسنى، ولا تلمس إلا الهباب، كنت قد صرت خارجا وإلى الأبد. صرت خارجا منذ الآن/عباس.

هذه المفارقة المقيتة لصالح مَنْ وكيف: كثيرا ما ننبهر بالبعد اليومى لحياتنا به أساسا. ونخفى ، مع ذلك، هذا البعد أدبيا. نغيبه فنيا. نكاد نلغيه! لصالح من نفعل ذلك؟ ولم نفعله؟! الآن هذا البعد غير مستقر. غير ثابت. متحرك. سيار. حيوى إلى حد أنه لا يمكن حتى كتابته؟! أمن أجل ذلك، أيضا، نعمد إلى تأليه بعد الحياة الميتافزيقى، فى الأدب، كما فى الحياة؟! ولصالح من؟ مرة أخرى، لصالح من نفعل ذلك، بل ونفتعله أيضا؟!

كيف حدث هذا الانشقاق اللعين بين الكتابة والحياة؟ ومتى؟ لماذا ا نكتب حياتنا كما هى. كما حدثت فعلا. فهى إن لم نكتف بنفسها، فلن يكفيها شىء، حتى ولا التشويه المكتوب. أى إغراء

ملعون، إذن، غير الإنسلاب العميق، يجعلنا نشوه عظمة «الحادث» ليتطابق مع تفاهة الأفكار؟ لماذا كل هذا الحماس الكتابى، والمغالاة اليائسة فينا؟ أمن أجل رسم صورة لعالم لا يخصنا فى شىء، فى حين أن الحياة الأساسية ـ الحياة الوحيدة اللتى عشناها - تموت!

كان على أن أبتعد أكثر. أضع الخابور فى ظهرى وأن أروح ولكن إلى أين؟ إلى أين مكان؟ أية نقطة يمكن أن تحميني. يمكن أن تشفيني؟ آه الأرض محدودة: الماء شمالا، والصحراء جنوبا. اللعنة/عباس.

أحس أن رأسى يابس مع ذلك، أريد أن أحكى : أحكى ما مضى ولكن أى ماضى ؟ هذا؟ ذلك؟ الآخر؟ ذلك، كله، زيف مطلق، وتفسير ملفق لذهنية أكثر تلفيقا من التفسير، لماذا هذا الهذر، إذن؟ لماذا هذا الهذر؟!

كان الصوت يقترب فعلا . صوت أجش أرج أبق مثل صباح الثلج الكبير. صوت أشبه ما يكون بصوت الطاحونة الخشبية الراسية فى أعلى التلال، مع الحس الملوث والمخيف، ذاك، يتراقص، ملوعا، حس آخر. حس ضامر مضطرب هائب يتلون بين الهَدَة والهدة، يجيب ولا يجيب : هو الذى ضربنى هو. هو. وبين الهواء، والعواء، تندس اليد الحديدية ، تندس فى الجسد الصغير: هو الذى ضربك!؟ ابن الشحاذ، صار الآن، يضرب ابن جليوى؟ تعال نشوف. تعال. وتتعالى الناقة الحمراء علي. تجثم فوق البيض والقيظ وصوتها المنكتم يستمر فى الصعود واهبوط. ضربته! أخبئك أين؟

وممن أقدر أن أحميك؟ وأتضاءل كالمهر الملوث بالماء. أتجسد قنفدا وفحيحا: أين اختفى عباس؟!

باستمرارى، هكذا، أشوه كل شىء، ومع ذلك، أحس أن على أن أستمر. ه هذه هى مهمة الكتابة؟ هى، هذه بالتأكيد.

عالم قاحل يملأنى بالقرف والإنسداد.

أين هى اللغة الحسية القاصمة التى ثرثرت عنها كثيرا؟! ولماذا يغدو الكلام مبتذلا منذ أن يصير مكتوبا؟ أية رقابة حمقاء تشل قوتنا النقدية، وتحيل اضطرابنا الحميم إلى إشارات؟ ولم نعيش شيئا ونكتب شيئا آخر؟ ألا تنبئ هذه العملية السمجة، التى تكاد أن تكون قسرية، عن قدر هائل من القمع المستبطن العميق؟ ليذهب ابن جليوى إلى الشيطان.

على أن أكون أكثر قسوة مع نفسى، لا مع المحيط الرهيب، فحسب

ارتمت على. ضمتنى بين فخذيها العميقتين ضَمَّة أراحتنى، وأنبأتنى بالمرارة والقذار. الرائحة الحامضة الممضة، المستورة منذ دهور، صارت تفوح فى العمق والانحدار، الرائحة الشمامية العفنة، المنشورة على الجلد والانحاء، رائحة الحياة الأولى، لم تعد تكف عن الانتشار وأتعالى على الجانبين اللعينين، جانبى الجبل العارى والوديان. أريد أن أصل النبع، أن أشرب ماء قراحا. أن أستبيح الثغرة والقرار، لكن الصوت الرائح الآتى، صوت ابن جليوى النائح الباكى، كان يطن مثل كوم هائج من الزنابير: ادم. يابا، الدم. صوت!

الصوت اللعين، ذاك ، خرب كل شىء دفع بى إلى الانحدار عمقا، حتى الزوال: أهرب قبل أن يمسكوك ويأخذوك. أهرب. أهرب. حالا حالا. أهرب إلى أين؟ إلى الأحشاء الأولى التى ما كدت أصدق كيف هربت منها، خارجا، إلى الحياة؟! لا. لن أبرح المكان. لن أندفع كالعجل المرعوب إلى البر. لماذا الخوف، ونحن من سقط المتاع؟/ عباس. بلى! بلى! انظر: انظر الجموع السود الهائجة. ألا ترى الأيادى الطويلة حامة مذاريها الحديدية الحادة، وسكاكينها البيض تبرق فى قساوة الشمس، كالسيوف! وتلك الأرجل الشاحبة المسورة بالوسخ والصديد، أرجل الرجال الحمقى. كأرجل الخيل المطرودة، وأجسادهم العملاقة، التى لاتنى تهتز، مهددة بالموت والثبور، ألا تراها؟! أين تريدنى أن أخبئك؟ وكيف تريدنى أن أحميك؟ وعباس ليس هنا. وليس هناك أبوك ولا أخوك ،. ولا أحد من الناس! وهم، كلهم يجيئون جموعا،. جموعا يجيئون من العزيزية، من «الليلية»، ومن «العالية» يلتمون: مات ابن المختار، ابن جليوى الصغير انقتل اقتلوا القتّال . خربوا البيت. احرقوه. أشعلوا النيران فيه. أمسكوا العجى الصغير واتركوه. خذوه فغلوه، وإلى المختار ودوه.

من شق الثوب الأسود العاتى، أتناوق أرى الجموع الغاضبة تحتشد فى الفضاء،. كه: هنا. جموع صَمَاء لأننى تنادى على: اطلع يا ابن الكلب. اطلع يا ابن الحرامية. يا ابن القحبة. اطلع. وهناك فى طرف النهر الآخر، تتابع بقية الجموع الدوران، والتقدم والاقتراب، والفلول الأخيرة تحتشد، هنالك فى البعيد، على أكتاف نهر «جفجغ» الآسن، شمالا، وشرقا.

حتى نباشوا القبور هبوا تاركين الجثة مسجاة بجلال، مكفنة بكفن شديد الأناقة، محظوطة فى تابوت لامع من خشب الزان. بلى! هبوا منذ أن مر بهم جمع المختار المتكاثر بخطوة بعد خطوة. آه المدينة كلها تتقلب فى الفضاء تصير هنا. لا هناك. أى عرس صاخب يحدث فى الأطراف، الآن؟ وبدل الإثنين، صرنا واحدا، ورحنا نموت/ عباس.

لم أفعلها قصدا. ومع ذلك. فعلتها، بقصد آخر.

وهجمت الأصوات، كلها دفعة واحدة: اخرج. اخرج. لكى نذبحك ونسلخك، ونشويك، ونأكل لحمك أكلا. أكلا. وأحسنى أدوخ. أسقط فى الغميق. تدوخ هى الأخرى، وتسقط على. تسقط والضجيج يتلو الضجيج.

وألتوى كالقرادة الممطوطة ألتوى: أبله ألصق، محتوما. بتسايل الرشيش البولى الحار منى، كلعاب الأرامل الشبقات، على: آه! أين هو، الآن/ عباس؟!

وأخرج، أخيرا، من تلك القبة الغريبة، محموما من العرق والنفاس كان كل شىء قد انتهى! لم يبق، من ذلك العالم، إلا تلك الرقعة التى امتدت أمامى وعليها نثار الخبز الأسود، وفصم التمر العطن المأكول، وشىء من بلل الزمن الفائت، وبقايا أخرى غريبة لم أرها من قبل، شعرت بلعابى الأصفر يغادر حلقى، وإليه يعود: هذا كله لى؟! لك. لك وحدك. لك ارقعة والقاع، والتمر الأسود الجائف، ودوده الأزرق المتطاول الأذناب، دود الحشيشة المخزونة أعواما، ولك

الصئبان البيض المتسابقة بين أفواج الشعر الأسود الطويل الملتوى من شدة الليل، لك هذا، كله. لك أيضا، جدران التجهيز المشدودة بحبال الطين الصفر المشوية فى حرارة القيظ زاد إذن. زد. لك، أخيرا، كسرة الخبز اليابسة، هذه، كسرة القاع المشوية فى عمق التنور الآجرى الأحمر. هذه الكسوة التى صنعتها يدا «طرفة» باتقان، أيمكنك الآن أن تأكل دون لوعة أو مقت أو اضطراب؟ أم تريد الماء الآسن، تزيت به، أنت الأخر، حلقك اليابس من الرعب والخوف، ماء الحمزات العطن اللعين. الماء المذموم المتراكم فى الغار منذ قرون الماء. الماء الذى قتل أباك وأخاك وعشيرتك الأولين.

لا. إن شربت الماء، هذا، أى خبز تأكل؟ وأى جمهرة من التمر الأسود الحثلان تمضغ؟ وبأى شىء تسد الرمق عصرا؟ وكيف تجدد اللحظة بعد اللحظة قواك ؟ كل قليلا، إذن. كل. ولا تأكل. لا تكسر الخبز الكسور، ولا تنقص الرقعة من محتواها، ولا تمس التمر بالسوء، ولا تقرب النثار، ومع ذلك، لا تظل جائعا، بعد الآن! تعال تحلل. تعال نأكل معا، ومعا نتناول الماء الغضار، الدرس يحين بعد قليل، وبعد قليل، يجىء الموت، ربما يجىء الموت، بعد هذا القليل الذى يظل قليلا، وقليلا قليلا يجىء كما جاء مرة من قبل! يوم تخلقوا، حولى مذهولين: عيسى وبرو وصليفج وبقية طلاب قرى الشمال وأريافه . تحلقوا ناظرين إلى خلاء الرقعة الممدوة، على الأرض، قدامى. ورؤوا، عجبا، إلى لوك حنكى اليابسين، قبل أن تتفقىء ضحكاتهم الهمجية: العمى! يأكل هو ابن العرص! ودفعة واحدة، تصيبنى العيون والألسن. وبلا انتظار، يحس الواحد بعد

الآخر، منهم، محساتى المرمية بإهمال، على القاع، والعجب يلد العجب: شو تأكل يا وله! ما معك خبز. ما معك شىء. هذا تمر؟ هذا روث يابس. تعال نأكل معا تعال. تعال يقودنى الواحد بعد الآخر. يشممنى أكله الطرى، الطازج، المطبوخ بلبن البقر والقراص، المعطر بالعطر الجميل: عطر القرنفل والحلباء، ويتبجح شديد، يصيرون يكشفون على أشياءهم الغريبة الأخرى: أشياء العالم الأسطورى التى لم أرها من قبل، وأتملى الهيئات العجائبية: هيئات الأطعمة الكثيرة، المتمازجة بتناسق لذيذ، ولا أمس شيئا منها/ عباس.

ومن جديد تقترب العيون أكثر فأكثر، منى تحملق، بقرف وخوف، فى الأشياء المرمية قدامى، العمى! يأكل دودا! وفجأة يعلو الصاح: تعالوا شوفوا. تعالوا.

وبلا تأخير ادحس آخر اللقم المريبة فى فمى، وأروح أبلع الهواء. أبلع البلع. أمضغ تمرى ودوده والنشار. لا. لم تكن تلك هى المرة الأولى التى أبلغ فيها التمر مشويا بالأحياء الكثيرة المدورة، المتطاولة، المستديرة، ولم تكن الأخيرة. أيضا. فلم أثير سوؤهم، آنذاك؟!/ عباس.

مرت فترة من الصمت. بعدها انفجر الضحك عاليا وكثيفا : آه يا ابن (....). بطنك مملوء دودا. بطنك مملوء قملا، بطنك. بطنك. صارت الأصابع الصغيرة اللئيمة تجس البطن والظهر والأحشاء، تقلب الكيس العتيق. ترض العظم رضا، رضا تدخل وتخرج،

كالحراب الحادة، بلا استئذان ، ومنذ الرضة الأولى، جاء الألم البائس المميت الذى أعرفه تماما : ألم الحشا المخالف للطبيعة. الألم القارص كالعقارب: الألم القارعة، وألتوى، ألتوى، كالجراب اليابس، بعضى على بعضى الآخر، آخر صريعا ، ويظلون يتصايحون: تعال إلى هناك. تعال إلى هناك. تعال، نخرج منك التمر والقمل والديدان المستطيلة السود، والعناكب البرش التى مضغتها مع التمر الخريان ومن تعال إلى تعال، أتدحرج على البر . أتدحرج، مثل حمل القطن القديم، لا ألم، ولا إرتكاس. هوة سوداء ملأتنى . ملأتنى ملئا لا حد له ولا ضفاف ولم أعد أرى من الأشياء إلا أحشائى السائبة فى الخلاء، أحشائى التى بدأت تنطق التعبير تلو الآخر: تعبير بغثيان. تعبير بقىء حامض ردىء . تعبير بمغص شديد. تعبير بلا تعبير. وتعبير بنوم مفاجىء وطويل. آه! للأحشاء لغتها الخاضعة. وتعبيرها الفرد، واضطرابها، كذلك للأحشاء أحشاء! لماذا تركتنى، إذن، وضلت الطريق، لماذا؟! وكالغريق أمد يدى الطويلة نحو أغصان الحور الثابتة فى الهواء، أحاول أن أتناول أحشائى. أن ألمس البعيد منها والقريب. أن أعيدها إلى منبتها الأساس، ولم أجد فى يدى إلا السراب. الألم الحاد الوحشى استحال إلى نوم. إلى نوم أخاذ شديد الطول، دخل الآخرون الاصطبل ودخلونى اصطبل البقر العتيق الذى صار مدرسة، بأمر من المختار. مختار «السنجق» القديم، ذو العباءة الحريرية المملوءة بالتمر والزبيب والأعشاب السرية، أبو دحام وعيسى وصلخد وسنجار. بلى! جميعهم، دخلوا وخرجوا، دخل النهار وخرج. أيضا .

حل الغياب ولم يحل النوم عنى. كأن الألم يغيب ببطء شديد، والصحو يظهر بالبطء نفسه/ عباس.

ومع الدخول والخروج، بدأ صياحها العالى يتطاير بين شظايا الليل، الليل، الغائر بين السنجق و«عامودا» ومع البرد المنطلق، فى ضوء العتمة الكونية الشاملة، تلك تطوح صوتى الهلع محمولا بالريح الباردة السوداء: الريح ! لا عيون لها ولا أنحاء، من هنا تهب، وتهب من هناك: وكيفما هبت، تجب المزن إليه ، إلى ابن جليوى، إلى ابن الكلب، وكالخارج من نفق طويل، بدأت أعود إلى نفسى، أعود معددا ومدهوشا: أين ..؟ ابن الأستاذ؟ أين صلخد وعيسى وهشام وعمرو وشواخ والآخرون؟ ولم لم تعد الشمس موجودة؟ ولا القمر ولا الضوء ولا الظلام؟ أين اختفى النهار؟ وأين هو كيس التمر والدفتر العتيق؟ ولم تمتد أقدامى بعيدة، هكذا ، عنى وكأنها تريد أن تركب وحدها الدرب؟

وأحاول فى حدة الضوء الأسود الكثيف، ذاك، اكتشاف الليل والبرية والخفاء، عبثا! أسئلة حمقاء شدت أحشائى بقساوة وبأس: لم تركونى وحيدا؟ وأين هو الآن ثوبها المربوع الفائح برائحة الخبز والسماد؟ وكيف أرد عنى هذا الجوع البغيض الذى بدأ الدغدغة من جديد؟ وأقعد. وأقوم وأتطلع . وانظر وأكاد أبصر فى ذلك العتام الأصهب المنتشر غلالا، غلالا، «تل كر خالد» واقفا فى الفضاء: نهدا مكورا وخاليا من الأثلام نهدًا أعذر، أكثر من نهد، شيئا دابرا لا يطال. من تحته، تماما، يجب أن أمر . أن أمر دون أن

أعير انتباها إلى الأحياء الشائه، ذات الألوان الغامقة، المليئة بالوبر والأشعار. الأشعار الحادة الواجفة كالمخارز بهدوء شديد، أعدت قدمى المبتعدتين إلى. تلمستهما باردتين. لا مباليتين. خاليتين، تماما، من الحس والآثار، وبحثت، قاعدا، عن الكيس وأحشائه عن الأوراق الصغيرة المصورة عن المسطرة والأقلام. وأخيرا، عن نفسى.

آه بقعة القىء المفروشة، قدامى، على التراب، هى التى ذكّرتنى بكل شىء. وكالذى أصابه مس مفاجئ وعميق، حفزت واقفا. اعتدلت مضطربا على ساقى، وبتوتر صرت انتفض منظفا كالعصفور، حالى من الموت.

الآن إلى أين أتوجه؟ وكيف؟ يمينا. يسارا، شمالا. جنوبا . إلى هنا إلى هناك؟

كان القمر قد بدأ يزهو فى ذلك الليل الخارق. نوره الأغبر المنثور فضح الوجد والاستياء : حدود الدنيا من أين إلى أين؟!. ليس من السنجق إلى عامودا. ولا من عامودا إلى الدرباسية. ولا من الدرباسية إلى رأس العين! هذا الفضاء الأسود المخيف، ألا يحوى أشياء أخرى، غير النهير الناشف، والأبقار السارحة، والروث، والحشرات؟! بدا الليل غريبا، حقا. لكأن الأشياء غيرت مكانها، وتغيرت الأنحاء. كيف أروح إذن؟ كيف؟ أحط السنجق على اليمين. وعامودا فى الظهر، وعلى اليسار، كله، الحقول كلها، حقول ابن جليوى، حقول ابن الكلب.

هكذا، يصبح البيت قدامى. وما على إلا أن أسير، وأن أسير. أن أسير بحذر واكتمال. فالأفاعى البرقاء تملأ الدرب ليلا. تبحث عن آثار الأقدام الآدمية، تبش لها. وتلحق بها حتى المراح. ألم تقل،هى، ذلك، ؟ وأخشى ما يخشى العرابيد. والزواحف السود المرقطة بالأحمر والبنى، والحيات ذوات القرون، الصفر، الحادة التى تكاد ألا ترى بالعين! وجميعها، هشة طرية ملساء، تنام على القاع وكأنها منها. ما أن تدوسها حتى تهب صافرة متلوية. تنط، كما تنط الطابة النطاطة، لتقع على الوجه واللحمة والبين وكلها، يتربط بالإنسان شرا. ولا يعطى أى منها أية إشارة تدل عليه، إنها المنية، وما من المنية مهرب، ألم تقل، هى ذلك؟ ألم تقل، أن أحسن الأسلحة، لمن لا سلاح له: الصوت. فلأغن إذن فلأغن. وفعلا أبدأ الصياح. أصير أغنى. ويملأ الإنشراح المفتعل أركانى المتجمدة من الرعب: الصوت، هو الآخر، علامة. علامة، بها يهتدى الداشرون. وقاطعوا الطرق. والحرامية. والأحياء السائبة فى الحضيض: أحياء الوادى المستميت قيظا، الأحياد السوء المرصعة اخضرارا، واحمرارا، واصفرارا. فلا ركض إذن. أُخلف الصوت ومراميه. ولأحذر. أحذر الظهورات ليلا. ظهورات الأزوال والأحوال ظهورات الأكوام الترابية التى لا تنى تسبقنى على الطريق: فى كل كوم جنية حمراء الشعر، يفترسها الشبق والهبال، ما أن تمسنى وأمسها، حتى أستحيل ثورا لا يكف عن الجماع، ألم تقل، هى، ذلك؟ الجنيات لا يرتوين من مص ابن آدم. أى، الجنية إمرأة حذرة صيادة: أن تملأها الرجل رَعّته. وأن تغاضاها مجته. ان جامعها ربطته. وإن لم يتبعها تبعته. إنها

الشهوة. ألم تقل هى ذلك؟ ألم تقل أحذر النسوان والشهوة والحيايا والمياده والوديان والرعيان والأعيان والرجال ذوى الأسنان المفروقة والأعضاء المرقوعة، والأعشاب والأخشاب ولا تسلك إلا الدرب السلطانى القويم، الدرب الذى يؤديك من هنا إلى هناك، والذى يجيبك سالما كما وداك وأمش نهارا ونهرا ولا تمش قهرا، ألم تقل هى ذلك؟!

وامش، امشى والدرب يطول آه! قبلا، كنت أرى الاصطبل العتيق، الذى صار مدرسة للبنين، قريبًا وبعيدًا وعلى حد السراب. الآن. لم أعد أرى إلا الظلمة المختلطة بالتراب. اختفى السراب تماما، وحل محله غمام فضى بارد وخمول. غمام جامد لا يتحرك، ولا يلمع. ولا يترك المكان. غمام ميت، لا يوحى أملا ولا يشف حياة. غلالة واحدة متجانسة الأنحاء، تربط فضاء القمر العالى بفضاء الأرض الواطئة. هذا، هو، حتما غمام الجن! فلا ركض إذن. فلا ركض . واركض، اقطع النفس بالنفس. أتشمم حواف القاع، أتنصت وقع مشيتها المشدودة. وأكاد أحس رجيج التربة تحت وقع الأقدام القادمة من بعيد، أقدامها، هى، المشبعة بالخيبة والحياة؟ أقدامى ـ أنا ـ الراكضة بلا توقف أو أمان؟ أى شىء يطأ، القاع بمثل هذا العنف والالتصاق؟!/ عباس.

ولكن، لا، ها أنذا أسمع، فى العتمة الكونية الشاملة صوتها الواحد والوحيد، يدور صاخبا فى الأعالى. يدلنى على الطريق: الطريق الذى لم أعد أريد أن أرتديه. بلى! انه هو نداؤها المؤلم

المستطير: خليل. خليل. النداء العاتى الملىء بالرأفة والإنتكاس. وفجأة، أتوقف كالمرسون، أتنشق سريان الصوت وفوحه. ولا أرى، على الطريق، سوى الظلام: عتمة مستديمة حتى الأفق. ومن جديد، أتملى الدرب. وأراه ملقوحا أمامى. ممدودا حتى آخر الليل. درب التراب الناعم السحيق. الدرب اللعين، نفسه، الذى مشى عليه، من قبل، صاحب الوشاح، تسوقه أحصنة الدرك السمينة الهائجة، الأحصنة التى لا تكف عن إجترار العلف، ولا عن الترويث، الواحد منها قَدّ الدار يأكل الليل والنهار! ولكن، لماذا لا أسمع الآن، صياحها القديم الصاخب، يوم كانت تلاحق ظهره المبتعد، وهو يغيب، فى السراب اللامع، هناك؟! وأين هى، اللحظة؟ وأين، هو، كوم البيت الخالى؟ وأين قتامه الظليل، الذى ينحدر، من فوق، ممتدا على خد الأرض اللاطئة تحته، كالماء؟! لا ليس حولى إلا صوتى السرى المكتوم. صوت الخشية والوحدة والقهر.

صرت أقلب النظر والنظير. فكرة قاهرة بدأت تستبد بى. تستبد بعنف وجدانى هائل، منذ أن رأيت القمر، قبل قليل: لماذا نخاف؟ لماذا يخاف الناس؟ لماذا أخاف، أنا؟ وممن؟ وإلى أى حد؟ الخوف، الخوف المرعب الفعال وحده، كان يسيطر، ذلك الليل، على الجو. اللعنة! من اخترع الخوف؟ ومن نصبه قهرا على الناس؟ وكدت أصرخ يا أماه. يا أماه! كان الأمرر غاية فى التعقيد. وبدا لى، أن صوتها، وحده، قادر على تمييز الألتباس. اركض، إذن؟ امشى الهوينى؟ أتابع الدرب؟ أتوقف؟ أعود إلى الاصطبل الذى صار، بأمر المختار الأشقر الجميل، مدرسة للبنين، لا للبنات؟ لكن

القمـر، هذا القمـر الفائض عن الحـاجـة واللزوم، لماذا يتـوقف، هو الآخـر، كـالعيىّ فى الفضـاء؟ ولماذا صـارت الأمـكنة، كلها، متشـابهـة إلى هذا الحد؟

وبدأت رغـبـة غـريبـة تأسـر لبى: أزتُ حـالى فى الماء، الماء لا يسكنـه الجن ولا الأفاعـى ولا الأشيـاء الأخرى المميـتـة. الماء قـائم. قـاعد. حـار. ساكن. ألم تقـل، هى، ذلك: المَىّ، المَىّ، يا وليدى، يغسل الميت والحَىّ، ولكـن لا. لابد لـى من أصل التـل العـــاصـم. التل القـاصم. وكـأننى تلقـيت أمـرا سـريا صـارمـا، توقـفت فـجـأة، عن المسيـر. رقيت، بحـذر كتف الـدرب الترابى النابع من الـقـاع. صرت أتطلع فـى كل مكان. وفى كل مـا يحـيط بى: أبحـث عـن عـلامـة. عن ضـــوء. عن هـدى. عن ســبـيـل. عـن خليل، انـتظـر الحس! الحس الواجف الذى لا بد وأن يأتـى من نحـو مـا. لقـد ضللت الطـريق، وضللت الهيئة والمكان. وما على، بعد الآن، إلا أن أسـيـر. أن أسير. وبغـتـة، برق الضـوء، ضـوء حـاد. سـاطع. لماع. سـهـمى. آت من بعيد لبـعيد، إلـى أى الجـهـات أمضـى؟! الضـوء طـائر فوق الأرض،. متجـه بكليته إلي منى، يقـترب بشدة. ومع اقتـباس اللون الأبيض السـاطع، اقتـبـست الروع، صـرت أعـرف، الآن، انهـا، هـى. هـى سـيـارة المدير. سـيارة الدرك. سـيارة المختـار. سـيارة الرجـال الصـفر، بائعى الهـقط والألبان والأغنام والأشياء اللدنة الأخرى. سـيارة ابن جليوى. سـيارة ابن الكلب. وهـاهـى ذى تكشـفنـى الآن: أميل يسـارا. أمـيل يمـينا. أميل وراء. أمــيل أمــامــا. إلى أى ركن أمـيـل، يأخـذ الضــوء الســاخـط بأنحـائـى.

وكالجريوع المطارد أركض. اركض مبتعدا عن الزى والطريق: أروغ. وأروغ أحسست، راكضا، بلسع الشوك القاسى فى باطن قدمى. على لحم ساقى العاريين. وحتى على جدار البطن والأحشاء، الشوك الكمجنون صار، هو الأخر، يلحق بى! يطاردنى حتى يصيبنى ويدمينى. شوك أسود . طيار . فوار. ينبع من القاع يهجم على أحيانا يصل الرأس. أحيانا، يستقر فى القلب. وأحيانا أخرى، يرتمى على الوجه والدماغ آه! الآن فقط عرفت من أى شىء تظل أقدام «أبو الوشاح» تنز دما دما وبلا روية قذفت بنفسى على القاع. أحسست بسيقان الحنطة الغضة تتكسر تحت ثقلى. تندهك كما يندهك لحمها تحت لحمه الثقيل . الحنطة الصفراء المسترسلة تتكسر. كعيدان القصب الهش، وتحتى، يتكوم الملح، والكدر، والتراب. العذاب العذاب. الضوء الغامر الطيار يهب مع الريح. يلقى بثقله الكاشف الفضاح على هيكلى الصغير. ضوء ضوء أحمق ينقلب فجأة إلى سواد وعدم. وأرفع رأسى، بهدوء وحذر، مستطلعا سر الضوء وزحامه الذى فات كالبرق. كالبر. كل شىء صار خلفى، الضوء التافه، الذى غاب، فجأة، دون أن يخلف اثرًا، بدا مثيرا للكآبة والوجس.

آه! من جديد حلت الوحدة السوداء، ولم يبق فى الفضاء المحيط بى إلا العتمة والضياع. وبمثل الخوف القديم، تماما، حفزت من رقدتى العاثرة، وتوجهت، ركضا، عائدا إلى الطريق، ثمة ، توقفت أتشمم الحس. كان على حسها الباطن أن يجيئنى مع ارتجاجات الأرض، أن يعبر الزروع، كلها، وليصل إلى: زروع القزم اللئيم صنوا

ابن جليوى، الآخر ذى اللحية الزانية المدهونة بالزيت والدخان، الرجل القصير، البارد، ذو الرجل الضامرة القفعاء، والثياب الزاهية المبطنة بالفستق والحرير. «جلو» جلو الجبار»، الساكت دوما. سيد عامودًا ورجلها الكبير. الرجل النحيل الصغير القليل الضئيل المالك البر والضر والانحاء والأمواه والزنجبيل والحرير والخام التخين والرقيق والدقيق والفواكه والخضار. جلو الجنة والنار. باستار! «جأو» السخّار المكار الدافن الحب بالغار الذى يسخرنا كل صيف لحصد زروعه الصفر المنتشرة حول شطأن النهير المسور بالشوك والأحجار. حصدها!؟ حصدها ونقلها وبيدرتها ودرسها وتذريتها وعزل حنطاها عن زوائها وأخيرا دفنها فى الأجفار. الأجفار التى علينا أن نقوم بنبشها كلما أردنا أن نرى كفًا من الطحين! ونحن الألى لم نأكل الخبز مرة/ ولم نشرب الماء القراح ولم نبن/ نقلنا صخور الأرض من جانب اللجى/ إلى جانب التل الكبير على المتن/ صخور نقلناها وعشنا بظلها/ وصرنا نعانبها وصارت بنا تعنى.

وبغتة، صرت أرتجف: التل الأعور الكامد الذى لاذت به شَفَّحَة ودوابها العتيدة، ذات يوم، بدأ يشق الغمام! التل الذى ما أن ترقاه حتى ترفى بيانا وترى عيانا: ترى هاجر وبجعة وأباها الأعور الدجال وحمارها الأشهب المربوط وترانى وترى جروى «سمر» الهزيل الناعم الشعر والحواف وترى صاحب الوشاح الأصفر ذا الهيئة الجليلة والحركة القليلة وترى الحّواج الأحول وبغله الضحاك الذى لا يخرج رأسه من كيس العليق المعلق بحلقه باستمرار، والذى على ظهره العدل السمين تتوازن الحمول والحوائج والصناديق.

وترى الجرجر العتيق الذى دارت شفراته الفولاذية القاطعة فوق أطرافى وقطعتها تقطيعا. ترى أيضا وكيل «جلو» اللئيم ذا الرأس الباهت المدور والبطن النازل فى الثياب . الذى لا يمشى إلا وحيدا. يتبعه المنديل الأصفر الحريرى الطيار على بعد فضاءات منه، منديله الذى يلتصق به كالظل الكثيف، والذى ما أن يرى الأزوال، حتى يصير ينادى: تعال يا حمد تعال يا حمادة تعال يا ناصر وخزعل وخجر ونهير وعشبان. ونادوا من ورائكم على خابور وحسن وحسين وحسون وروث وعوث وبجعة وأبيها وأختها وأخيها، وخلوها تنادى على وطفة وحسينة وشمسة والشغيلات جميعا، لا يتخلف أحد منكم اليوم. أنه يوم الفكاك.، وبعيد يوم الفكاك وهو يشير باعتزاز إلى جيوب جلو المنتفخة بالأوراق، صائحا، من جديد: تعالوا. تعالوا. ولا يتخلف أحد منكم. ومن يتخلف لن يرى درهما بعد الآن. يصيح ونظراته البلهاء السادرة تتساقط، كحبات البرد، على مؤخرات البنات الناهدات بنات الحنطة الصفراء والشعير الأسمر، والعدس الملتصق بالأرض/ عباس.

وفجأة، يرتج عصبى المستطير: تفجر سرى صاعق يقلب البر والمكان يغير مزاج الجو. حركة غامضة تنبع من الأرض. تأتى، أحيانا، مع الشجر القصير وأحيانا أخرى، تأتى مع الريح. مرة تزحف. ومرة تطير. يحيط بها، نوع من الطحن العميق الصامت: خليل خليل. كان على أن أرده، إذن، ولكن كيف؟ كيف أرد وأنا لا أزال أضيع بعيدًا! قاطعا درب الليل الخالى، ركضا ركضا، حتى الضياء؟ وخطر لى خاطر خطير: من يطحن اللغة والصوت غير

سكان الليل؟ وسكانه كُثر ومتبدلون: جن وسعالى وزواحف وعرابيد وثعالب وطحالب وبشر وذئاب وأحياء شوهاء لم أر منها حيا قبل الآن، وأركض جنوبا . وشمالا أركض، أزت نفسى، صامتا، مثل الموتى الفزعين، بين أيدى العالم الأعمى ذى الألوان الغاطسة المسلوبة! من يحمينى من الشىء، من؟ وأحس بالطحن الغامض يقترب، يتبين صوتا صوتين. أصواتا صغيرة، وكبيرة، مثل أصوات النائمين جماعا، جماعا .

وأقفز. أنطُ كالجربوع. الصياح، هو الآخر، يلحق بى، ينادينى يصيحنى صيحا، وقبل أن أواجه المدى والصوت، التوت القدم، وانفتل الجسد، وهويت على القاع.

كان علىّ أن ألحق نداء اللى ركضا، قبل أن يغيب فى البعيد، وفجأة توقفت توقفت عجبة واضطرابا، وبمثل الرهبة الأم، صرت أمرر يدى على عينى، أمسحهما من ضباب العتم والظلام. آه! الفانوس الصغير، المعلق فى الفراغ، يلمع الساعة فى وجه الليل؟ كدت. أهُلّل .هناك، فى أفق القمر الواقف منذ أول المساء، أراه. فانوس اللعنة. أين كنت تختفى حتى الآن؟

بإنهاك مفاجئ أخذت القاع بجسدى، كله قاعدا حتى التراب قاعدا أستريح قليلا، قليلا، قبل أن ألج اللجة المستثيرة: لجة الفانوس العابس الذى اقتبس النور منه كل مساء.

وبغتة، بدا الجو هادئا ولطيفا : صرت أشعر بأمان غامر يملأ قلبى حتى الشغاف. كنت قد بدأت أعرف طعم الأرض الأولى التى

نَبتُّ عليها: أرضى القليلة المحصورة بين البيت والدواب. كدت أصرخ ويمّا ويمّا . ترانى هين. لكن الباح اشتد من جديد، وهذه المرة، لم يكن نباح «سمر» ولا نباح من أقرانه. كان نباح كلب هرم بلا أنياب. كلب عبوس، قدير، فاقد البصر والأعصاب، أى كلب، هو، هذا العواء ؟ أيكون هو، كلب المرأة السوداء، ذات اللغود الهشة المتساقطة على فكيها، والأرداف الصفر المتمايلة ذات اليمين وذات الشمال؟! لا هو كلب آخر؟ كلب مسحور نبغ الساعة من جوف القاع وآخُرّ ساجدا، كليل البصر، كسير القلب: من يحمينى من هذا العواء الداخل فى الأعصاب؟ هذا العواء المكلوم كنواح إمرأة فقدت لب القلب، لا هذا ليس عواء كلب جائع . ولا عواء كلب ضائع. لا بد أن يكون هو عواء كلبها. كلب الحزينة أم الحزين. أم الحرامى الذى لم يعد مذ ذلك المساء. ذلك المساء العاصف الذى غاب فيه عن أمه الوحيدة، وكان ابنها الوحيد، بلى! انه هو، هو، كلب المرأة الهائلة التى شممت، مرة بعد مرة، رائحة جلدها العرقان، والتى ، مرة بعد أخرى، أحسست تكورات لحمها الشهوانى المثير. لحم الحزن والانتقام. لحم الشهوة الملجومة منذ الأبد وإلى الأزل، آمينّ! شهوة البدء لا الخلاص، الشهوة التى ما أن تنتهى حتى تعود أقوى مما كانت. ومنذ أن تكون لا يطفئها إلا «شَهْو» أقوى منها / عباس.

آه! كنت أتلكع وأنا أقترب، رعبا، منه. من نباح الكلب الأدغم المخيف، كلب عباس الذى كان ينبحنى منذ المساء، إذن؟ عباس الذى تصدى للدرك والهلاك، والذى داست أحصنة المختار السمينة بطنه والرأس وكلاب العرب ترقص، من حوله، وتصرخ: اعترف يا كلب،

اعترف انك أنت هو حرامى الحقل والبقول، سرق الحنطة والشعير، وأنت الذى أخذ أكوام العدس والحيلوان. والذى حمل حمول القصب على ضهره هو أنت وأنت الذى باق معاضد الحواج الأغور، وأنت هو أنت.

وعباس صامت لا يجيب. عباس كان قد غاب ، منذ زمن طويل، عن الوجود، ويهتف المختار والدرك وأزلامهم: مات ولم يعترف ابن الكلب ابن الحرامى. ويهتف المختار والدرك وأزلامهم: مات ولم يعترف ابن الكلب ابن الحرامى ابن الحرامية. ابن بياعة الزبل والخرنوب.

فجأة، يتغير كل شىء. يتغير العالم والوجود، والكينونة والانتظار. كل شىء يتغير. منذ أن أصرخ فى عمق الليل. عباس. عباس. ومع الصرخة الحمراء القانية، ينبثق الزول العريض الطويل الفائق. زول الليل القديم. الزول الذى يبعث الرهبة والطمأنينة فى القلب. بلى! أعرف الحس والمشية والاختيال. أكاد أطير: ها أنذا، أخيرا، فى المجال، مجال اللمس والنظر والأمان. آه! انها هى. هى لا شك فى ذلك. من أين خرجت هذ الجنية الشمطاء الوارفة الظلال؟ كن فتكون. وتأتى ماشية بتبختر يكاد يكون مرضيا. هى الأخرى، لا تخاف!! تخاف الليل. ولا الناس ولا الحواس. وبلا انتظار تأخذنى هلكا دلكا: تعال يا وليدى تعال. وتملأ ضجة صوتها الأجش الفاسق كيانى لهبا واضطرابا. ضجة غامقة تصاحب هرير فدعوس الرهيب: هذا هو أنت إذن؟ هذا هو أنت! وترينى العصا

والسبحة والسكين: حسبتك هم. حضرت حالى للقتال. حسبتك عباس، وجئت أخبئ اللوعة والعذاب لا أريده أن يرانى ملتاعة. لا . لا أريده أن يرانى إلا بالسرور. عباس يجىء كل يوم يجىء ليلا، عندما يرتمى الليل، هذه، هى ساعته يقولون انه مات؟ عباس لا يموت. عباس صياد الغزلان عساف الخيل. الذئب الأحمر. مشاء الليالى الظلماء، لا يموت. تعال، يا وليدى تعال. الدنيا ليل. وفى الليل يجىء، كما كل ليل يجىء عندما ينام الناس وقبل أن أنام. وأنا لا أنام قبل الطلوع قبل طلوع الشفق الأحمر الجليل، شفق عباس الحبيب، ومثلى فدعوس، هو الآخر، لا ينام.

وفجأة، هجمت عليه. عليه مرارا، قبل أن تمر على: فدعوس يا فدعوس. ناد على عباس. قل له خليل جاء، أخوك حبيبك، صديقك نسيته؟ وهر فدعوس هريرا خافتا وحزينا. ولحس بلسانه الخشن العريض فوهته الغليظة المليئة باللعب والسيلان. ولوى خطمه المخيف، وعلاه ، حتى غدا عموديا طاعنا فى الروح. وبغته عوى. عوى، سماء وسماعا. عوى مثنى وثلاثا ورباعا ، قبل أن يعب الهواء الليلى الصامت، متشمما، بحركات عنيفة، بعض الرائحة فى الريح: رائحة العالم فى ذلك الليل. وهز رأسه مرة، ومرة بعد مرة، أعاد الكرة، وهو يفتش عن رائحة عباس الذى اختفى، ذات ليل، اختفى منذ أعوام عديدة لم تعد تحصى. منذ أن كان فدعوس جروا رضيعا. لا يزال، ومذ ذاك، لم يعد فدعوس ينبح ألا ليلا. ولا يأكل إلا ليلا. ولا يتمرغل على التراب إلا ليلا. وليلا، دائما، يحافظ على وضعه الجالس المهيب. منتظرا، بلا كلل، طلوع الشفق الأحمر

الغريب. شفق اللوعة. الشفق المحرر من الأوهام: الشفق الذى بلا غسق. أنا مثله، يا وليدى. أنا أيضا أظل أراقب الليل والنجم والهبوب أعد البروق والانحطاطات. نجمة براقة تظل قربى: نجمة عباس الأولى، النجمة العنقاء ذات الجسد الجميل والعرف الساحر. ألم ترها من قبل؟ والنجمة الأخرى التى تمشى شمالا. شمالا، حتى منحدر الآبار. نجمة عباس الثانية، النجمة القانية، الممتلئة دما. نجمة الدلو الزانية التى شق بطنها الشقاق، النجمتان، هاهما، واقفتان، هناك، بلا حراك. تراقبان، تعال. تعال ادخل جوا. الدنيا برد وصقيع، خل فدعوس وحده يراقب البروق. فدعوس يعرف نجمة عباس. ويعرف النجمة الأخرى. هو الآخر، مثلك ومثلى ينتظر عباس، وادخل. ادخل اللحم من جانب إلى جانب، وأشعر بالدفء الساقط من أعلى البدن يتسلط علىّ يلج جوفى يحرك أعضائى الخاتلة عضوا، عضوا.

وفجأة يصيح فدعوس: عُوعْ - جَعُوعْ - جعوعْ - جعوعْ. وكالفرس الجافلة، تَرَبَع من فوق ومن فوقى، تمر ريحا، تقذف بنفسها على القاع، وهى تتمتم: تجىء اليوم. تجىء الآن. آراك. آراك. ويهب فدعوس الضاوى من تكومه، ليزت هيلكه الكلبى الهرم، عليها، تماما، ومن ثم، ينقطع النفس، وبعد يعزُّ. يعزُّ، وبعد يعود. وشيئا فشيئا، يجف هرير فدعوس المنذر، وتتحول همهمته اليائسة إلى صرير خافت وعميق، ومن خلل الغمام الليلى الباهت، يصلنى لمع بياض العينين المهمومتين، وغياب الصوت الواجف الحزين: نذرت نذرا يا وليدى، نذرت أننى لن أموت قبل أن أرى عباس. عباس لازم

يجىء. لازم أشوفه. لازم أقول له أنهم حاربونى وراودونى ومرة بعد أخرى، خشوا على من شقوق البيت، لكن فدعوس الوفى، كلبه الحبيب، كشم هدومهم ولحومهم، وكشف للريح عوراتهم وصار العواء، بغتة، عوائين: عواء الريح، التى هبت من أقصى الغرب، وعواء الروح التى قاربت الانتثار: جئنى بعباس جئنى بعباس. وقبل أن أجىء إليها، ارتمت بهيكلها القديم، كله، على. ارتمت ترصع وجهى وأنحائى بقبلاتها اللاهية: قبلة لك وقبلة لأمك وقبلة لعباس وقبلة لفدعوس، وقبل أن أسحب لهبى المستثار من اللغط، زادت القُبُل قُبلَة القلبين الملهوفين على عباس، وأخيرا، لك قبلتنا كلنا أنت وفدعوس وأنا والليل. قبلة نرسلها كلنا إليه. وتطول القبلة، تطول، ولا تزول، وبين القبلة والقبلة، ترمى بثقلها الغريب كله، فىّ وتروح تحكى.

أحكى لك الحكاية الأخيرة: آخر حكايات عباس . اسمعنى ولا تأت حراكا، استلق، هكذا. اجعل جسدك فى مهب الريح. اكشف للنسمة كشوفاتك، كلها. الليل يحرر الوخز، يجعل النفس أقرب للحبيب. آه من الليل! آه من الناس والوسواس الخناس النابع من الطاس. ابق، هكذا، لا تأت حراكا سأحكى لك كل شىء. أحكى لك الرجل والشيخ وراعى الدرع والحواصيد والحطابات والورادات وبياعات اللبن والشيخ والحجر والدرك والحرامية وبياع الخواتم والسحار والعطار الأعور الملعون الذى يلبس جلد ابليس ليلا ويعود رجلا فى النهار.

وفجأة ينتطع النفس والابتسام، وكلما انقطع السرد فجأة، فجأة يعود! واتفسخ تحت ركنيها، والَهَدْوَة. منها، تتلو الَهَدْوَة، حكايات عباس لا بداية لها ولا نهاية. حكايات ساخنة ومثيرة، تبدأ كيلا تنتهى وتنتهى. لتبدأ من جديد. البارحة سرق عباس دواب الشيخ أبوعمرة، وباعها فى سوق «القامشلى» باعها والشمس تملأ النهار، وبثمنها اشترى لحما وشحما وخيارا وبصلا أقرع كرؤوس الولدان، واشترى لك أنت خبزا أبيض محمصا ومرصوصا، خبزا تدهنه بالداهون، وتأكله، كما تأكل الريح اليابس، قرطا قرطا، ومثل الذئب الجائع دار السوق دورة، دورتين، واشترى لى من القماش قماشا أطلس من الملس والحرير ورأيته يركض كالمطرود يبحث لفدعوس عن العظام، عظام العجول المكومة كالبيادر أمام الدور، والدرك ينظرونه فى الميدان ينظرون إليه ويخططون مثل الشياطين المجنونة استداروا حوله وشافوه، شافوه وعافوه، عافوه يشترى ويبيع. يأخذ ويعطى. يرتب ويهدى. وهم، يحيطون به، من هنا، ومن هناك درك ابن جليوى. درك ابن الكلب. كانوا يتناظرونه وبأيديهم الحديد، والقيود، والمطارق، والمسامير ومثل الكلاب المكلوبة نطوا عليه. وكالريح نفذ من بين أعضائهم الحاقدة ولحقوا به كالمجانين إلى عامودا ومن عامود إلى الدرباسية، ومنها إلى رأس العين، والمختار الحقير يحرضهم عليه: من يجيب رأسه أجيب له خاروفا ومن يجيب، ومن يجيب، أجيب له، وأجيب وكالقرادة الهائلة، ألتمت على مهدئة روعى: لا تخف، يا وليدى. لا تخف ما مسكوه. عباس لا ينمسك .الدرك والهجانة والمخاتير تلحق به اللحقان، كله، ولا

تطوله: شاله الريح وعلاه وعلى ظهره المتين ظل يشيل ما اشترى من الأسواق لك ولى ولفدعوس الأمين. حق المحبة والحنين.

وفى الطريق الطائر التقى «بجلغيفة جلغيفة» العمياء العجفاء صاحبة الرعف المستمر والقلب الهائم. ورأيته. أنا، بعينى هاتين، رأيته يناولها قبضا من البصل والتين، يرمى عليها من عل حبوب الزبيب الأسود السمين، زبيب كركوك ونصيبين وأخيرا يرش على وجهها الناحل القديم رشاش البنفسج والمحلب والعناب، وبقوة يدعوها: افتحى، افتحى المقلتين، وانظرى الريح، ويلغى الأرواح، ان الهواء طاح، ان الهوى طاح، وهوت فى الجفر، وهويت فيها، ومها، هوينا فى الظلام. هوت ، وهى تبتعد فى هيئتها ولغاها: هذاك هو أشوفه، سرب القطا يدل عليه: وور وور! حوله القطيع قطيع الفظيع النسور الهائمة فى الفوق. بلى! ها هو ذا يجىء من أطراف البر البعيد، مع المهرة ذات العينين الساطعتين، كرصاصتين من فولاذ، اسمها زهراء عيونها نجلاء، أطرافها فتلاء، جسدها لهب. وقلبها وهب. تفض الجمع إذا مرت وتروى الظامئ، إن درت . تلك هى إمرأة عباس. لا إمرأة له سواها، أنا أعرف الحب الجامع فى قلبه وعينيه. ويللاً بعد بَلَل، يحل الغياب والاضطراب، وتبدأ الهامة البيضاء الثقيلة انطواءها تحت أركان الهيكل المخيف. وكالنعامة، تلم بعضها بين جناحيها، وهى تقول: من أجلنا سرى عباس ليلا. سرى ذات ليلة من ليالى الشتاء الباردة الظلماء. ليلة لا نجوم لها ولا تخوم. كنت لا تزال صغيرا. كنت بلا كيان، وهانتذا الآن كبرت صارت لك لحية وشارب ولغود وخدود، ومن عيونك الصغيرة ينبعث

لهب غريب يذكرنى ببروق تلك الليلة العاتية التى أكلت عباس.

ومنذ تلك الليلة، طلع القمر آلاف المرات، وغاب آلافها . وهطل المطر، وجفت القاع. كنت هدادة وصرت غماما ورخاوة. فَدّعوس، هو الآخر، هرم وشاخ. صار عسير الحركة والنباح، ولما يعد عباس، بعد. بلى! هو ذا عاد. وكما تشمخ الناقة المختصرة بعتقها الطويل اللين، ساحبة هواء العالم كله قبل الموت، رفعت القدَّ القديم الهالك، ووسعت منخريها قاصدة صوب الريح . وشمت، شمت عميقا. وصرت، صرت الهواء الداخل فيها. صرته صرا. أخذته إلى أعماق جوفها المتدانى، وبدأت تأكل الريح وهى تؤكد: أى يا وليدى أنا أشرب الهوا والمقام. أنا آكل الريح، وأشرب النسيم. ولأول مرة رأيت زنديها الهاطلين يدوران شرقا وغربا. يبحثان عن شىء لا تكاد تلقاه شىء يبدو قريبا منها! ولا تصيبه اللعنة! ولكن أين هما عيناها العابثتان؟ عينا الأرض. البروية والوجس. ولم تشم، هكذا، وبمثل هذا التوتر والإرتياع؟!

وأصرخ. أصرخ الصرخة تلو الصرخة. أدلها على القلب والشىء. ولكن لا. هى لا تسمح أيضا! وأحاول أن أردها. ولا ترد كارنت كالسائل الوثاب. تمر بين الغيم والتراب. لا تُنهَى، ولا تصاب، وكأنه لم يترك الفضاء، قط، يعود صوتها المكتوم. معلوما، يرافقه كالناى السحرى، هرير فدعوس الضاوى لصقها باستمرار: لم أعد أملك إلا الشم. أشم فدعوس. أشمك. أشم الدرب. والريح. والطقس. والهواء أشم الهدوم والرجوم. أعرف كل شىء شما. أشم

الليل، ساعة بعد ساعة. أشم النور والضوء والظلام أشم الرعيد البعيد. وأعرف رائحة المطر الذى بل عباس. أشم الكون من الطرف إلى الطرف. ألاحق عباس. أعرفه متى يجىء شما. وشما أعرف منحاه وسرعته ووقت وصوله وملقاه مطيتى الوحيدة هى الريح . انت تعرف، يا وليدى، أن الريح تصل بعضها وصلا. الريح الصريحة، والخفية، هى التى تنقل إلى كل شىء: رائحة عباس. ومن الرائحة أعرفه عندما يزعل. عندما يرضى. عندما يثور، وعندما ينام. عباس كله رائحة! رائحته تعبر المسافات والبوادى لتصل إلى. ومنذ أن تصل، تستقر بى، كلما تستقر الروح فى البدن. تتعجب!؟ الرائحة سيارة، يا ابنى. وهى، مثلنا، تماما، تكون حية عندما نكون أحياء تحسنا ونحسها. رائحة الموتى، هى الأخرى ميتة. للموتى رائحة غريبة ذات طعم أسود، نحيف. وليس لها ملمس أو هبوب. بلى! عباس لا زال حيا. أعرف ذلك من رائحته الشهية النفاذة، التى تلتصق بالجلد والأحشاء. رائحة الموتى لا تظل فى خشمى إلا ثوانى ومن ثم، هى الأخرى، تموت. تغيب فجأة، كما يغيب جسد الميت فى التراب. رائحة عباس تظل تحوم فى الليل حولى، وقبل أن تطلع الشمس إليه تعود. هو الذى يأمرها بفعل ذلك. يعرف أننى أريد أن أراه عندما لا يراه الناس. هو الذى يرسل رائحته العذبة إلىَّ ليلا اثر ليل. يحملها أخباره ومساريه، أنت تعرف ذلك. فدعوس يعرفه أيضا. تتعجب! قلبى يقول لى هذا. قلبى لا يكذب. عباس لا يزال حيا.! عباس ما مات، عباس انذبح. الشَح!.

# القسم الثانى

( ١ )

على ضفة النهر الكئيب جلس عمر الأخرش. وسريعاً، تربَّع، مادًا أمامه صفحة من جريدة «النور» العتيقة عليها، وضع بلمح البصر، الأغراض: رغيف الخبز الأبيض الطازج وبعض السكاكر الملونة، ذات الأشكال الملَس، المبينة على هيئة الحيوانات. وعلبة السردين: الأزلية، ذات الغطاء الصدئ المنخور. العلبة والبحار. البحار الذى ينظر بتواطئ من وراء حاجبيه الهائلين. البحار الخبير الذى جاب البحار، كلها، بحثاً عن أحسن أنواع السمك والشبابيط، ليصنع منها، كما يزعم الأخرش، هذا الغداء الدسم اللذيذ.

وأسنانه البيض القاسية، فتح الأخرش الهيكل المعدنى الساحر. هيكل العلبة المملوءة أسماكاً حمراً صغيرة. تصطف الواحدة منها لصق الأخرى، بإتقان شديد. أسماكاً ميتة، وبلا إحساس. ميتة موتاً

قديماً ومستديماً. ودون أن يهتم بى، لحس الأخرش سيلانات الزيت اللزج من على حواف العلبة، وانحنائها، لحساً. لحساً. ورأيت لسانه الذرق يتطاول فى الفضاء، ماسحاً أركان فمه وشفتيه. ومنذ أن حلت عيناه بعينى، تلمظ، ساحباً نفس العرق الفضى الصافى. عرق الخابور الذى لا يكف هو الآخر، عن الجريان. وبحركة أو حركتين، لَمّ أشتات السمك الميت برغيف الخبز الطرى الذى هوى دفعة واحدة بين فكيه. بعدها قعد الأخرش هادئاً. لا حركة ولا حياة. ورأى إلى أتلمظ. وبلاً مبالاة، زَتَّ، إلى ناحيتى البعيدة، بعلبة التنك الفارغة، وانتظر، كما هى العادة، أن أحسها بلقمة الخبز الأسود اليابس حَسّاً، قبل أن أقذف بها إلى الماء.

أحسست بطعم الزيت الأسود ملتهباً وصديئاً. مع ذلك، استمر الحس والمس والامتشاق. وشيئاً فشيئاً تكسر خبز التنور الواقف فى الحلق، وهوى مقضوماً إلى القاع. ظل الأخرش يتملق. يصعر خده الواطئ للماء والبشر والهواء. ومن آن إلى آخر، يخر بصره السمكى التخين على يَخّر، ليخبرنى مرة بعد مرة، أنه أكل السمك الميت، وحده: آه ! عندما تقرط الذبل، تحس بعظامه الهشة تتكسر، كالذبيب الجاف، بين أسنانك وحناياك. ومثل السكر الديرى، يذوب السمك سريعاً فى اللعاب. أولاد الكلب. أولئك البحارة الذين لا يأكلون إلا من هذه الأسماك والأحوات والذين لا يدهنون أجسادهم بالماء، بل بالزيت، بالزيت الناعم، يا غبى. قال. وقام. وقعد. وقام. قام يتنشق الهواء الرطب، بعمق. وبجدية واكتئاب اقترب مشياً من النهر السائل. وبيديه البضتين غرف من الماء حفناً حفناً. به رش

جسده، وأعضاءه العليا، والسفلى والحواشى والأردان، وهو يردد كالمسحور: الصلاة قربت يا غبى. البدو لا يصلون. البدو ملاعين. لكن جهنم ألعن وأشد. وتَفٌ ونَفٌ النظافة بعد الطعام سنة. والغسل بعد الجماع سنة والاستماع إلى ... كالسيف قطعت الكلام بالملام: المرة القادمة، إن لم تدعنى أذق أذناب الشبابيط، لن أكلمك، لن. ولم يدعنى أكمل التهديد. سردين. يا غبى سردين.ألم تر فى حياتك سرديناً. ولم تتعلم ديناً؟! وأكمل بتفوق: السردين، أصلاً يؤلم بطن الناس الذين لا يأكلونه كل يوم. إنه أشبه ما يكون بالسم لمن لم يذقه. احذر. تفرج قعيداً، ولا تقرب الأسماك ففيها الهلاك. ولا تنس أن الله يرى كل شئ. يرى بطن الماء، وظهر القاع، وبيم، وبين أخاديد التربة، وفى التربة كما فى الديار إنه الواحد القهار. وفجأة صار يبربر ويكبر: الله أكبر الله أكبر. ولله الحمد. وامتلأت عيناى غيوماً ضاعتا، لست أدرى أين! من أين له بهذه العلب المعدنية اللئيمة؟ العلب الصفر المفلطحة المملوءة أسماكاً، وقررت فى أعماقى: فى المرة القادمة أجيب معى البصلة العملاقة. ذات القشور البيض القاسية. وأمامه أفكُّ أزرارها زراً زراً. عباس.

فى اليوم التالى، أخرج الأخرش علبة السردين القديمة، نفسها. وبالعنف الأهوج المسعور، نفسه، افتض قالبها الهش، أمامى. وبلا مبالاة، ارتمى بهيكله الراغب على فتات السمك المهووس. وراح يأكل مهمهماً، مستلذاً. وكالعادة، مد قدميه المحذوَّيْن على أطراف. جريدة النور العتيقة. يقرأ ويأكل. ويتغوط. ويتلوط، معاً! هو مثل ابن جليوى. مثل ابن الكلب! وهذه المرة، لم يزت لى علبة السردين

الفارغة، بل لحسها، هو نفسه، لحساً. لحساً. أخذ القئ يستبد بى: آكل خبزى؟ أشرب الماء؟ أتمشى حتى يحين أوان الدخول؟ أهجم عليه؟ أكسر رأسه وفكيه؟ أهشم أسنانه وأحز لسانه؟ لماذا يتجاهلنى هذه المرة؟ ولم لحسها وحده. لم زتهافى المساء دون أن يمررها علىَّ؟ الماء. الماء الحمَّال الزمال. الماء المتآمر الذى أخذ العلبة، برقاً، وراح. أخذها فعلاً. رأيتها تجرى بْعيداً. تتهادى، هاوية فى عرض الشط، تاركاً شمال الأرض، لتروح جنوباً. وعبر كرات الماء المتراكضة، رأيت جموع الشبابيط الصغيرة، ذات الأجساد الصفر اللامعة، تركب أطراف العلبة، ومعها، تغوص فى الحضيض.

تابع النهر سيره بهدوء. قمنا، معاً، ومعاً سرنا. سرنا صمتاً. لا يكلم أحدنا الآخر، ولا ينظر إليه: العلبة المستطيلة الصفراء كانت تملأ القلب والأحشاء. تسد منافذ الروح. تجعل الحقد والضغينة جعلاً. جعلاالخبز الأبيض والخبز الأسود. البصل اللبن والقمردين. جريدة النور العتيقة والتراب. ماء الجرار الفخارية النازة، ووحل الخابور المرتوى: أى شئ، يمكن . أن يقابل أى شئ لكن العلبة التى لم تُلحس، العلبة التى سافرت تواً إلى البحر، علبة الشوق والتوق، العلبة ـ الشغف، لا يمكن أن يقابلها شئ آخر اطلاقاً. وكالمجنون، هجم الأخرش علىَّ: تزتُّ خبزك؟! أزتُّ خبزى. وأزت اللات والعزى والأوثان والأحجار اللينة والأعشاب والخرابات.

وأزت نفسى وأزتنّى، عليها وأحس بليونة الحبل الأخضر تربط القلب بالحضيض. وكالفقاعة، انفقئ فى انخفاضها الجهنمى.

انخفاض رطب مسكون بالخوف والجنون. انخفاض رطب مسكون بالخوف والجنون. انخفاض عات، شديد الوطأة. وأدع الموسى اللامعة المسنونة تخترق الكيان من العيان إلى العيان. وأحس المتعة الصامتة المتمنعة تتهاوى. وألتذ بانكسار الماء المقاوم. وتلتذ، هى الأخرى وهى تتقدم باستمرار. الالتصاق. الانتهاك . الاختراق. بلى! هذا هو بستان ابن جليوى. بستان ابن الكلب. وهذه هى الأشياء، كلها. شئ واحد. وهى كلها، اياها. وأهزها وتهتز. وألزها وتلتز. ويخترقها الخارق من الظاهر إلى الباطن. ومن أمام إلى خلف. ومن أسفل إلى أعلى. فالقاً جسدها الدائرى فلقتين متساويين. متمتعاً بخرير سيلاناتها الحمر التى استمرت تلوث القاع. فلتلوثها إذن. فلتلوثها. وما أن رآنى «اعبد» الذى نصب نفسه حارساً على الأشياء، متحملاً أعباء مسئولية لم يطلب أحد منه احتمالها، حتى أفاق. أفاق خاراً ساجداً. مهللاً: الله أكبر الله أكبر. ذبحوا البطيخ. سرقوا الدبشى والخيار والعجّور والفُجول. الحقل كله انسرق، يا ناس. الله. الجار، الجار ولو جار. تعالوا يا أهل الله تعالوا. صار يغنى ويرقص وينوح.

وكأنهم كانوا على انتظار، تجمعوا حوله، فوراً وبأسرع من البرق حملوه، إلى المستشفى يا شباب. إلى المستشفى. النوبة جاءته. إلى المستشفى؟! إلى أكوام الذباب والبرغش والبعوض. إلى مذاق الطيور وأوكار الزنابير ومناقع أبوال المارة والسائمة والحمير. إلى حيث ينتظر المرضى المتراكمون منذ أول الفجر. ينتظرون أمام البناء الحجرى الأصفر الغبور. البناء الوحيد الذى منذ أن تعبر

الجس القديم، تراه. تدلك عليه اللوحة. اللوحة السوداء الكبيرة: وزارة الصحة والاسعاف العام. مستشفى الحسكة المركزى. ويرتجف «أعبد» وهو يصرخ: ماذا تصنع هذه الحشرات والاحياء الطيارة والسيارة والآروث والأخرية والأغطية والمرضى والمصابين هنا؟! هذه الأشياء المختلطة، ماذا تصنع فى هذا المكان؟ أليس ذلك، كله، من عمل الشيطان؟! يصرخ اعبد الذى يصحو فجأة. ومرة بعد مرة. يعيد الكرة: ابعدونى عن الموت. ابعدونى عن هؤلاء المرضى والمجانين ابعدوا الحشرات والآلات والزواحف واللواحف عنى. ويقتربون به من البؤرة، اقتراباً: بسرعة يا شباب. بسرعة. وكالطائر المتوحش، يفر «اعبد». ويغيب يغيب كله. ولا يبقى فى الفضاء، إلا تماويج صوته اللين: سرقوا العقل أولاد الكلب. سرقوا الحقل أولاد الله. ويتراكض الجمع المعتوه لاحقاً به: المجنون انهزم. امسكوا مجنون الزروع يا شباب. امسكوه. وينطّ اعبد كالطابة، يطير فى الجو والنوء. يطير أمام أبصار النحاس والحجار والسقاة والزيال والحمال والدلال. وكالموتى يقفون أرضاً وبصراً، لا يتحركون يقفون يسبحونه: سبحان الله. سبحان الحى القيوم حارك الماء والغيوم. ويخر «اعبد» عليهم. يخرُّ من السماء بيده الطويلة عصاه القصيرة: يا اولاد الكلب. يا حرامية الحقول. يامهابيل. ياعرصات. يا حواكة يا فتاكة. يا ملاعين. يا مجانين يا مجانين.

وفجأة يبدأ الصفع. صفع الصغار أولاً. أصغر الصغار وأقلهم ذمة ودفاعاً. أصغر الصغار. أصغرهم جميعاً. ثم الأقل صغراً. ثم الأكبر منه. ثم الأكثر كبراً ثم الكبير. وأخيراً. يجيئها الدور: آه! هذه

هى أنت يا بنت الملعونة والملعون! تعالى إلى أيتها الدنيا الحقيرة والصغيرة. تعالى أريك أيتها النفس الأمارة بالسوء تعالى. يا غواية الحياة. يا شيطان يا من ولدت خلسة فى النفس.

ويشتد الضرب. يشتد. يصبح أقوى. أطول. وأحدَّ. وشيئاً فشيئاً يتورد جلدها الأملس الجليل. وتفوح منه رائحة المحلب والقرنفل والزهور. وتنتشر على انحائه البثور. ومن بؤبؤيها الواجفين، ترسل إليه إشعاعاتها العنيفة. ترجوه العفو والحنان. وتمر الإشعاعات البيض المخصبة على عينيه، ولا يراها: الحقد يأكل كل شئ حتى طاقة العقل على الاستيعاب. وبقوة غامضة ظلّت عصاه تهوى عليها: مرة. مرتين. ثلاثاً. ألفاً. وأحسست بالوجع ينطلق من أكنانها جميعاً. من أحشائها. من أنحائها الجوانية الغاطسة فى الهياج. ولم تصرخ. وفجأة، صار يصيح: خذونى. خذونى من حضن إبليس اللعين، خذونى. خلصونى من شر الجسد. فكونى من أسر الرغبة ومن قسرها. أبعدوها، يا أهل الله.

وكما ترتسم المتعة الشيطانية فى عينيها، يرتسم النوح والارتخاء فى أحشائه. وتستمر العصا فى الصعود، وفى السقوط. تستمر راسمة هالات موقوفة مستديرة. هالات تتقاطع على أنحائها، كافة: على الأسفل والأعلى. على الفوق وعلى التحت. على البر وعلى الجو. فى الداخل وفى الخارج. على المداخل والمخارج. ويتملى، بزعل وحنق، تلك العلامات جميعاً، يتملاها، دفعة واحدة، باستمرار ويصير يسبِّح، والغيبوبة تلفه من الركن إلى الركن:

سبحان الجبار، المطفئ الماء بالنار سبحان القنوت الذى لا يفوت. تموت. أو لا تموت.

لا، حركة الجذع جاءت قبل أن يخلص الكلام. الحركة التى انسحبت فى لحم الأليتين المصلدين، طويلاً انطلقت، بغتة، فى الأعضاء. وقبل أن يرتد إليه طرفه، تملك الهيكل، الذى حسبه ميتاً، حركة عشوائية هوجاء. والتقطت اليد المخنوقة ميجنا البطم القاسية: الميجنا التى صنعتها يداها من جذع الشجرة التى التقت به، تحت أغصانها، أول مرة. التقت به، فى حر الصيف اللاهب، والناس منهمكون. وبخوف غريب، مثل خوف المقت والحقد والنقمة والتمرد، معاً، استقرت الميجنا فى التو والقمة: قمة رأسه العريض. وهوى الجسد العاتى، دفعة، على القاع. وفجأة علا الصياح: يا يما قتلته يا يُمَّا. وكالكرة الصاعدة علواً، تدحرجت العجوز القعيد تدحرجت ملفوفة بالرهبة والأسمال. على أطرافها العارية، تتكتل أصباغ الطين القديم، وتتناثر على هيكلها المهترئ نثر الطحين الأسود: طحين الحبّ المخلوط بالزؤان.

تدحرجت وهى ترتعد لم تلمس جثته الباردة اللماعة. لم تندم. ولم تر الروع العنيف يحوم فى الحفاف. كل ما فعلته هو أن أخذت الأرض بأطرافها الأربعة، وهوت تنتظر المعجزة التى لابد أن تجئ وبلا انتظار، حطّتْ الساحرة العجوز قلبها اليابس. وبقوتها العتيدة، كلها، ونفخت فيه من ريحها. وشالته. وحطته. وأخيراً نكسّتْ هيكله، تنكيسًا. وفجأة، بدأت الأطراف تتحرك. نحو النفس

الحبيس. وتباعدت الجفون. و.تميز بياض العينين من سوادهما. وبدأت الأهداب العليلة ترفٌّ. ترف بعيداً. بعيداً جداً على حدود الموت والغثيان.

كان يرى أشياء وأشياء أشياء غريبة عنها لم يسمع عنها شيئاً من قبل. وأشياء حمراً قرمزياً مثل أزهار الدم والأقحوان. وأشياء لها أشكال مسننة يمتطيها أناس هيئاتهم مثل هيئات الثيران المذبوحة تواً. وأشياء وأشياء. وبسرعة البرق، غسلت يديها من الطين والطحين. ورشّت على جماد وجهه العنيف ماء، وهى تسبح بآيات الودع والخرز والحبوب. وتنذر للجوعى والسائلين أرغفة مدهونة بالسمن أو السماد. ومن بعد، نثرت فوقه بياضاً من بياض القطن والحليب الخاثر. وذرّت الملح والتراب، عليه، آمرة: اسكنى أيتها الروح. اسكنى الجسد المطروح. واستجاب لأمرها الكيان. استجاب بانفتاح هائل ومخيف. انفتاح تسلل عبره الضياء تسللاً مرعباً ومقيتاً. ومن ثم جاءه نوم عميق. أعمق نوم عرفه حتى الآن.

ومن جديد، بدأت تصيح: مات. يا يما، ومثل السبعة الحانية، هجمت عليه هجوماً. حطت نفسها فيه. شمّتْ حناياه وأبطيه. مسّدتْ شعره بيديها الغريبتين. وأسبلت بأصابعها الملتهبة جفنيه، وهى تنادى: لا لا تمت. ارتجف صلبه ارتجافاً خفيفاً بين يديها الباحثين. وبهيكلها المرموق، كله، اسندت الجسد الذى غاب عن الوجود. وبشوق ممزوج بالأسى والالتياع نفضت عن جبينه الغض الغبار. وتحت الأشعة المتماوتة بانت لها، فجعة، قسمات وجهه

الأزلى. وكأنها تصيب لأول مرة، ارتعشت عميقاً. ارتعشت ارتعاشاً غامضاً، مليئاً بالبهجة والخوف. وكمن أصابه مس مفاجئ قذفت بالرأس، كله، نحو القاع! وهذه المرة، رأت كل شئ: رأت آثار السغب والجوع. وبانت لها الأعضاء فى قرارها هزيلة ومبهمة، تكاد لا ترى بالعين. عجباً من حطّه حارساً على العالم الحقول؟ من وكله بالعدل؟ من أدار العالم إلى الجهة العكس؟ من؟ ومع ذلك. لم تفصح الكلام!

البرد الرهيب الذى بدأ من أطراف الأصابع لم يعد يكف عن التقدم والصعود. البرد وصل الفخذ. والفخذ الأخرى، والأوراك. لبرد الذى يدرك البطن لا رادَّ لا شاف آه! البرد. يايمّا البرد أكل لرجال. وأحاطت بها البسوس. لَمَّتْهَا بين أملاخها وأشلاخها: تعالى، يا بنية تعالى الليل جاء. وليلاً لا يموت الناس. ولم يطل الليل، تلك الليلة طويلاً. من أقصى الشرق طلع نور الفجر الباهت. وهبّ على العالم نسيم الصبح الفاتر الخداع. بما يفعله، بدا البرد نزوله الرثيث، أخيراً. البرد ترك العنق والمنكبين. صار فى لخاصرتين منهما، نزل إلى المفاصل التحتانية والأثناء واستقر، من بعد، فى القدمين اللتين حاولت، جاهد، سحلهما ولم أفلح.

ومن جديد صارت أصوات المغارة القديمة تجئ. أصوات حادة خارقة سيالة. تخترق الحجر والشجر والكدر لتصل إلىّ. لتصب فى أذنىَّ الواسعتين، صباً ومرة بعد أخرى، صرت أحس بالارتطام، سمعاً وسمعاً، أرى، من خلل حيطان الغار الهائل، احتكاك اللحم

باللحم. أرى تماماً، لحظة الالتحام ولحظة الانفصام. ومع التيارات السحرية الخارجية من الغار، كانت الأنفاس تخرج، هى الأخرى، متلاحقة. تمر بى، وما تلبث أن تختفى فى الفضاء. تختفى، كما اختفت علبة السردين الصفراء، البارحة، راكبة تيارات الماء الموحل، الساط من الجال. الماء الذاهب، دوماً، إلى الجنوب. حاملاً علب الأخرش الصدئة الملحوسة، كلها علب السردين الفارغة، التى تذهب ، أبدًا، من النقطة هنا، إلى النقطة هناك. وبرعونة، أقذف بالحجر الأسود المشظى إلى أبعد نقاط الماء وأعمقها. وأسمع صوت ارتطامه بالسائل. ومن عندى، أروح أتابع دوائر الماء العذرى: الدائرة - النقطة التى تتسع، كلما ولدت داذرة أخرى، حتى تصير إلى العدم. دائرة تلد دوائر، تلد غوائر.

انفتح الأخرش، زهوا، وهو يتحدانى: انظر ياول، هذه المرة، أيضاً، لم تغرق العلبة التى تلحسها. علبة ابن جليوى. علبة ابن الكلب. رأيتها تنفذ، فعلاً، من الغرق. تسير نحو الجمود والجنوب. تمر بهدوء كامل، تحت قوائم الجسر الحديد، الذى يوصل الأرض الحمراء شمالاً، بالأرض الصفراء جنوباً. جسر الخابور الوحيد الذى عبرت عليه، عيون الخيل. وكالبرق، التقطت حجراً آخر من جال النهر، وحذفتها به، قوياً. وهذه المرة، استقر الحجر فى القلب: قلب العلبة الطافية. فهوت فى الماء. وفوراً، هجم الأخرش علىَّ: كلب ابن الكلب، اغرقت علبتى. بدىّ اغرقك. بدى اغرقك. ودون تردد، اختلطت الوجوه والأطراف والعيون والشفاه. وعلا الصياح الهائل المخيف. الصياح - الصوت: صوت أصوات هائمة متوترة

وعديدة. صوت واحد ووحيد صار يملأ وجه الأرض. صوت الكون المرتاع الذى يلاعب السماء؟!

هَبّ الأخرش مأخوذاً. انتفضت أنا أيضاً الصياح الهائل المخيف يقترب منا، بعيداً جداً. يأتى من أقصى نقطة من نقاط الأرض. من الفج العميق. من بين البر الشاسع والماء. وأصخنا السمع بقوة: صوت هَوّاد. صوت أحمد. صوت الصيياح اللملام. صوت العجة النصرانية. وصوت ثوبها الطافح فى الريح. والصوت الأجش الآخر؟! الصوت العديد الغريب المثير للشجن والحنان! صوت من هو؟ صوت الرفاق الذين خرجوا من أمكنتهم الشُهّب، تواً. يرتدون بلا مبالاة أثوابهم الزرق العتيْقة. وشعورهم السود المتربة تتطاير فى الصبح!

صرنا نحث بعضنا بعضا: تعال تعال - وبلا ضغينة، تركت أكتاف الأخرش الملتوية، وتركنى، هو الأخر، وهو يخر ساجداً، كله على القاع. صرنا ندور حولنا، نستطلع الخبر الأكيد. من أتى بهذه الأحياء الغريبة، من أنحاء الأرض الحمراء القاحلة، الذائبة قيظاً؟ ماذا حدث فى التجهيز وفى شوارع الصهباء؟ وأثار عجبى ركض الناس الفزع اللاهث. الركض الواقف فى المكان: ركض مستمر لا يؤدى إلى ناحية أو هدف أو عيان. ركض أعمى وأصم. آه! من يدفع بهم دفعاً ملعوناً هكذا؟ وصاحب صندوق العجائب الأعشى لماذا يهرول هو الآخر، بين المهرولين؟ وهزنى الأخرش. فجأة: انظر انظر جاركم الأعمى بياع المشبك والقضامة والعلك. ونظرت قسراً.

سيسقط الآن فى الماء وكدت أصرخ، إلا أن ارتطام الجسد اللين بالماء القاسى قضى على الصوت فوراً وصرنا لا نرى إلا الطوفان: الأقراص الدسمة الشقر فوق الماء تطفو. وركضنا سبحاً: أمسك إيده. أمسك الرقعة الأخيرةالتى والقرصين. الجسد الثخين الملئ بالسكر والدهون، جسد الأعمى الغاطس عمقاً، نبغ، فجأة، من الماء

بغضب شَدّ الرقعة الباقية وانتحى حالاً. انتحى حالاً وصار يعد: واحد .اثنين. اثنين. وبغتة، هوى فى النحيب. لا، لم يعد، ثمة، إلا دوائرُ الزيت تُرصِّع وجه الماء. وأصخنا السمع عمقاً. ودفعة تغالبنا: قرص أحمر أشقر لا زال معلقاً فى الريح. فوق رأس الأعمى الغارق فى النحيب، تماماً، على الغصن النازل فى الماء. وفوراً سقطنا معاً، عليه. وسقط القرص منا. سقط فى الماء الأسمر الدافق. فى أعمق نقطة من النهر، عند قاعدة الدعامة السوداء القديمة. وبلا انتظار، لفة أعصار الماء العنيف، وراح يسوقه بعداً بعداً هذه المرة، أيضاً، خسرنا! هممت أن أزت نفسى فى الماء. أن ألحقه. أن أمسه. أن آكله فى الطلق. لكن الأخرش الجهنمى امسك بى بعنف: لا. لا. لا، فات الآوان: كان الاعصار قد بدأ يلتف حولى أيضاً. كنت أغوص. بقوة امسك بى وامسكت به. سحلنى على الأحجار والانثار، وانسحلت

لم تدم الدهشة طويلاً الآن صار الصوت الهائل برج الماء والأنحناء: نعيش أحراراً أو نموت كراماً. وقعدنا ننهت. سيسحب أحدنا، نفسه، من الآخر. فترتعش من البلل والاضطراب. الصوت

اللاهب لم يعد مجالاً للغموض: يسقط الاستعمار. يسقط يسقط يسقط ردد الحشد بقوة وحماس. ردد مرات ومرات. وبين الهتاف والقذاف، انطلق هتف آخر. انطلق كالرصاصة العلنية: فليحيا أبوعمار شوكة بعين الاستعمار. وردد الحشد بشدة يحيا. يحيا. يحيا.

نظرة على الحشد. نظرة على الماء المُشَّبك الحلو. ضاع. الأعشى المسكين، وحده، يبكى. يداه على عينيه، وجهه يختبئ مثل وجهه الهارب من الريح. تلطخ جلده الأملس بالوحل والتراب، وعلى رأسه حط غراب. نبهنى إلى ذلك عمر الأخرش: إن مات كمداً تفرق عجوزة المُشَّبك الباقى على الجيران، غداً. لكن صوته الصغير ضاع فى اللجة العاتية. لَجّة الصيحة الحادة التى انطلقت من هنا، ومن هناك. انطلقت من الأمكنة، جميعاً، مقاطعة ضوء الشمس الآخذ بالسطوع: أمة العرب لن تموت وإنى، أتحداك باسمها يا فناء. ومرة أخرى، ضج الجمع الهائج صائحاً بانفعال. بانذهال. الأصوات هى الأخرى، كانت تحتشد على الضفة، وفى الماء. تتراكم فى الوحل، والقبر، وعلى حواف الزفت الأرقط، اللابس وجه الناس. أصوات، هى الأخرى، تركش متسابقة، متزاحفة، تردد ما تردده الأصوات الأخرى بحماقة لا حد لها ولا ولا، ولا شئ وكالمجنون، اصعد طرف النهر المتكسر، ركضاً ركضاً. حتى الصياح، وأقف على طرف الحديد العالى. الحديد الصدئ المقيم منذ القديم. حديد جسر الفرنسيين الذين عبروا جنوباً وشمالاً، وفى الاتجاهين معاً. يتبعنى الأخرش راكضاً. فاغراً فاه: تعال، نخش المظاهرة يا خليل.

واحبس كلامى قليلاً قبل أن أجيب. ويجرنى جراً، قبل أن أُتمّ صمتى: تعال تعال. وأظل واقفاً فى مكانى. مأخوذاً بقوة الحركة وكمال هيئتها. منفعلاً بخطورة الصوت العام. قسوته وصداه، وتنهمر الدموع الصلدة دون إذن، منى. الدموع اللعينة. دموع أبى الرهيف، الذى قضى العمر بحثاً عن الرغيف. أبى الحكّاء البكّاء. الذى قال لى ليلاً بعد ليل: العزّ فى ظهور الخيل. أبى الذى ظل يحكى لى، منذ أن بزغ النور فى عينى، كيف كان يسرق الجمال وحمولها. وكيف كان يبيعها فى أسواق كركوك ونصيبين وديار بكر. وكيف كان يرد حقها للريح. و

يجرنى من جديد: تعال. ابتعد عن الناس. ابتعدت الهوسة. الأصوات اختفت. سبقنا حتى الحمالون! وأجرُّ نفسى منه: أين تراهم يختفون؟! المدينة الصغيرة، هذه، وحواشيها البائسة المملوءة بالروث والشوك والأبوال، سوف يدورونها شبراً شبراً. يصرخون فى كل نافذة وكل ركن. وسيلحق بهم، كما هى العادة، جمع السقائين وخيولهم الهزيلة والقصابون المصابون بداء الانتصاب المستمر وصبية المقاهى ذوو القدود العليلة والخدود المصبوغة ورداً وزعفران. وبلا انتظار دفعنى وجرى: لم يبق فى الأرض مكان. المحافظ السمين وصل. قائد الدرك الرهيب كذلك. والقائمام الأصلع. أعوان السلطة وأشكالها والآخرون، كلهم، هنا. تعال.

كان كل شئ على ما يرام! الوقت ضحى. النوم جَفّ منذ ساعات الفجر الأولى. الغداء قريب. الناس التى تأتى من أقاصى البر

وصلت النساء الآهلات انتشلن أجسادهن من هيئة النوم الثخين. الأساتذة فى بداية الترقب اليومى. والطلاب يبحثون عن وسيلة لإعلان نفورهم العميق من المحيط. كل شئ على ما يرام. تعال تعال.

وتلمع الشمس فى عينى. تلمع الأحداث. والأشياء الأخرى الكثيرة، المتراكمة بلا انتظام. الجمع الهائل يقترب الآن من السراى. أراه لمعاً: هذا هو المحافظ وهذا هو الـ.. ومن هو، إلى هذا هو، تستقر أخيراً عينى عليه. على النجوم الكتانية المصفوفة بإهمال، وأحترق: أين هى الآن؟ إلى أى مكان خلاها؟ المرأة - الجهنم. إمرأة الليل الأحمر، المدورة مثل لفائف الطين. من لى بها الآن؟ من. وأضيع باحثاً بين أرجل الدرك والمارة وحفارى الحجر الأبيض المسلوق، عنها. ومن الحضيض أتملَّى الوجوه: وجهاً وجهاً. ومرة أخرى، يستقر وجهى عليه. على الوجه الأملس الحليق. وأكاد أتقيأ. وأتقيأ فعلاً. ويجرنى عمر بالقسوة: تعال، نلحق بهم. تعال تعال ندخل الجمع، يا غبى. وبتصميم غامر اسحب نفسى منه: لا. أريد أن أظل خارجاً. ومن بين الأعضاء الكبرى والصغرى يلوح لى من جديد، بزنده القصير، داخلاً تعال. ومن بعيد أهزُّ جسدى المستريب، كله: لا. لا. وهذه المرة، لا ندع الأصوات المختلطة مجالاً لحركة الذهن، ولا لصوابه أصوات. تعبر الجلد، فورا. أصوات تختلف عمقاً وعمقاً تتحد. تغدو صوتاً واحداً ووحيداً، صوتاً مخيفاً نابعاً من القلب، صوتاً رجافاً يُدوّى مكاناً بعد مكان: يسقط الاستعمار. يسقط. ويَلُجّ الجمع: يسقط. يسقط. يسقط.

كالبرق الجامح ينبثق «ملك» من الحشد. ينطّ فوق كتف «يعقوب» الذى يذوب عنفاً وحماساً. وبقسوة تذهل الجمع المتماوج، من أوله إلى آخره، يصرخ. يصرخ، بصوته المبحوح، الذى يغادر، بصعوبة، حنجرتها الزرقاء المتورمة: فليحيا «أبو عمار» شوكة بعين الاستعمار. وقبل أن تلحق الراء الأحرف التى سبقتها يهجم عليه «هتلر» وحنتوش وحسن والأخرون. وبسرعة الانغلاق يطرحرنه أرضاً، ويدوسون. ويقابل الصياح صيح أقوى منه وأشد الجمع المستشار الذى انشغل عنفاً، صار الآن يتلوّى. أطرافه تتداخل. قلبه يتكور، مثل الدحل المقذوف. أوله يرتد. آخره يسرع، كالفرس المضروب. وأرى لمحاً وجه ملك ابن الأرملة غسالة الثياب، ينتقل، خطفاً من قدم إلى قدم. وأكاد ألمس الدم والفك الملتوى والحشا المقذوف من الجوف. وأريد أن أصرخ. وأصرخ، عالياً عباس! وتأكل الأصوات المجنونة صراخى. العالم كله، صار كتلة من وانحنى عنوة. أدلس بين الأرجل والآهات. أريد أن أمسكه، أن أجره، أن أعطيه اللمسة الأخيرة، لكن العين البصيرة قصيرة، ولرغبة لا تؤدى إلى مكان! صفوف الجمع المتلاطمة تردّنى عنه، رداً. تلقى بى بعيداً تلقى بى خارجاً وبلا صواب. أجد نفسى، وحدها تتلظى فى شظى القيظ والزوغان: ماذا حل فى هذا المكان؟!

ومع ذلك، يظل الذين يحفظون الهتافات عن ظهر قلب، يتصارخون، معاً وبلا انتظام. وتختلط الأصوات والهيئات علىّ. وعبر الفضاءات الصغيرة المتناثرة بين الأقدام المتسارعة، أرى الزحف العنيد المستمر: زحف الجسد الأسمر المهيب. ملك القوى

الدافئ. فى مسار ذلك الوجل والعجل، تتوانى خيوط دمه القانى، تدل عليه! تلحق به، أينما راح. دم ملك الذى هلك. ملك الذى حملته، فيما بعد، أمه الصغيرة، ذات الأطراف الناحلة، والهيئة القاحلة. بلى! حملت جثته الملفوفة بشرائط حمر براقة حملتها على أعمدة من المرمر والريح، ومشت به المدينة؛ كلها، وهى تصيح: قتلوك يا ملك، قتلوك .ومن ورائها يردد الصبية المجانين، صبية الحى الشرقى البله: قتلوك يا ملك قتلوك. وترتد الأرملة العجفاء كالأفعى الملدوغة، تبحث عبثاً عن مصدر الصوت. تبحث تبحث ولا ترى إلا أوجه السكان الحمقى المزدحمة بالعرق والدسم والضنين. وبعد أن تتوقف برهه، تقذف صوتها فى الهواء الطلق، ومن ثم تلتقطه فرحة وحزينة معاً تعال يا إبنى تعال. ويضج الربع حولها بالهتاف: سننتقم لك يا ملك. ورأساً، تضيع صيحة الانتقام فى خضم الشعار المريب. الشعار الذى يستوجب إرسال شعار آخر، إلى آخر النهار.

وعبر الشعارات المزحومة، أرى العجفاء السحيقة أم الملك الذى هلك. وأرى كذلك بقايا ثدييها الضائعين تحت الثياب العتيقة، ثياب السادة والمخاتير. ها هى ذى تناديني بعينيها الساهمتين: تعال بلى. أم ملك المضروب الذى لن تجلب له بعد اليوم من ثياب السادة بعضها ومن جواربهم بعضها ومن كلاسينهم أيضاً. وأيضاً من أحذيتهم بعضها، والذى لن يمر، كما هى العادة، لابساً ألبسه برشاً، متفاوتة الضجة والألوان. ألبسة تثير الضحك والبكاء معاً. لا، لن يصرخ، من جديد، فى الجملاء والمتظاهرين، منددا بكل ما يحيط

به من المحيط إلى الخليج، رافعاً شرائطه الحمر القانية، ومطلقاً حيناً بعد حين صرخته الشهيرة: فليحيا «أبو عمار» لا ولن تركله الأرجل بعد الآن. ولا الأقدام تدوسه.

كل شئ تغير اليوم ملك يضيع فى قلب الجمع الهائج.إلتمَّ اللاموم عليه. وعليه هجم الهاجوم. وفوق صوته الذى انكتم قسراً علت أصوات بغيضة: أصوات الترديد والتحديد. أصوات التبرير والتقرير. شئ مختلط ورزيل كان ينبعث من تلك الهيئات والأصوات. شئ نتن مثير للقرف والنفور، يجعل الدم يفور. فى ذلك الصخب المقيت، أميل عليه لا يميل إلى. ثم يعد للملك وجه. لم أعد أرى منه إلا الكتفين العريضين يلوحان مرة هنا ومرة هناك ويختفى القئ والصوت الذى لم يغادر، حتى الآن، حلقى:ملك مات ، ملك مات! لا، لم أكن ، لم أعد أرى، ولا أسمع فى الجو الا الكلام يتلو الكلام: هجم الشيوعيون يا شباب . هجم البعثيون ياشباب. ويردد المرددون من الجهتين، ومن الجهات الأخرى معاً: هجموا. هجموا. هجموا. هجموا. هجموا.

وفجأة يتخلخل الجمع. يتفرق. يغدو شتاتاً فوق شتات. أقدام تركض شرقاً وأخرى تركض غرباً. أعضاء واجفة. وأخرى خائفة، هيئات تتهيأ للتقدم وأخرى للتأخر، دون أن تبرح المكان.

ومع ذلك تخلو المدينة من البشر والأنس، ولا يبقى فى الساحة إلا الجسد الثقيل، جسد القتيل المنهك: جسد الملك الذى هلك. فوقه ترقص امه. ترقص رقصة المسامير. ترقص. تنوح. تتملَّى

عينيه الباهتتين بلا ملل. تردد باستمرار وبلا قاعدة: ملك حياتى يا ملك. ترقص تصيح عاصفة فى الريح: ملك يعن ملك يحن. واسمع لأول مرة منذ دهور، صوته العتيق الطالع من أعماق الصدر المتهالك. آه! يا أهل اللعنة، ملك يحكى؟ لم يمت، بعد ملك! وأذت نفسى على التراب، صائحاًبانفعال، بانفعال، وكالبروق تتخاطفه أيادى الرفاق الذين تدفقوا فجأة كالنزنابير. وأحسه يتحسس، وسكر وملكو وياسين وأحمد وسنحاريب.

يتحسسهم واحداً بعد واحد. يتعرف روائحهم وأعضاءهم. يسمع خرير أصواتهم. ويكاد يهز لسانه العريض: فليحيا أب.... وقبل أن يتم الجملة يسقط فى الغياب. يسقط جامداً ورصيناً. وبهدوء شاحب ومخيف، يتجمع الناس حول الجسد ـ المشهد خلطاء. خلطاء من أعداء وأصدقاء. أمه الصغيرة ذات البصر الكليل، والهيكل القليل، وحدها تظل تدمدم: الدم الدم. الدم. الدم. الدم.الدم.الدم. يستلقى، بفخر واعتزاز على الاكتاف ملك ينام، ملك مجروح، ملك مذبوح، ملك مغدور،ملك منذور. ملك هلك. ياأهل اللعنة يا كلاب ملك الغاب. ملك غدا براباً. ولكن من يسمع النوح؟ من يسمع البوح؟ الناس كلها تتملّى الهيئة المفتولة الزعلاء: هيئة ابن الغسالة. هيئة ابن الموت. وبتصميم ارسل صوتى: حاداً، عنيفاً فارعاً. يخترق الحشد من أوّله إلى آخره. يلامس الجسد المسجى بلا حراك. لا ، لم يتحرك ملك، ملك لم يعد يسمع. لم يعد يرى. لم يعد يقول. يا أهل اللعنة، مات ملك. صرت ألحق صوتى. أريد قطع البر والزحشاء علنى التقى عباس. عباس الذى سرى

ليلاً منذ ليال طويلة. أبو جديلة. عباس . وقبل أن يخترقنى مضاء، لامست كتفى يد «هواد» تعال، راحوا يدفنون ملك. وقبل أن يرتد صوتى إلى، جرنى جراً، وراح يركض بى: أخذوا ملك على المقبرة، يا غبى. وهتفت فى التوّ: المقبرة؟! أى، مقبرة المسيحيين. المقبرة البيضاء الجميلة، ذات الحيطان العالية مقبرة«اسو» بازهارها الميتة المملوءة نفطاً وعطوراً صماء تثير الغثيان. وكررت الكلام، وأنا أتابع الركض قسراً: المقبرة؟! لكنه لم يمت بعد يا هواد؟ لم يمت بعد يا قواد! بعنف، زتنى هواد فى القاع. ووقف فوقى كالتنين.

كان يرتعش، كله وكنت حفزت وحفز هو الآخر. صرنا نقترب ركضاً، ركضاً من الحقول البعيدة المترامية الأطراف. الحقول المختلفة الألوان، الممتدة من جوار الدور إلى مبنى الكرخانة الغربية، حيث تقع المقبرة والكازية وبيوت الغجر ونثار القمامات والأبوال وخراء العابرين ملك فى المقبرة؟! كنت أردد. وأركض. وأبكى. وأحكى. وأركض وأردد:لا .لا . لقد رأيت منذ قليل رأسه تتحرك بين الأقدام الهائجة. ولمحت أطرافه القوية، مثل قوائم الثور المذبوح، تتشنج فى الحضيض. وبعنى هاتين، رأيت دمه الأحمر القانى يفور، دم غزير ورجاج. دم التنين المرسوم على مدخل الكنيسة؟! يا عيسى! بلى رأيت، أؤكد لك ذلك، كل حركاته: حركة الموت الأولى، والحركة الأخيرة للحياة. لم ترد على هواد. هذه المرة قادنى صمتاً! كان الهيكل يعبر بشارع القاشملى الطويل، من الجنوب إلى الشمال. يعبره بصمت وتصميم. على الوجوه كآبة وقسوة وارتباك غامض مملوء بالتهيب والاحباط.آه! من أخذ الفرح الصارخ من هذه

القسمات؟! ولم تبدو الأيادى قابلة للحركة وللشلل، معاً والعيون لا فارغة ولا مملوءة، بل جوفاء. جوفاء مثل عيون الأفاعى التى تريد أن تعبر الماء؟ كدت أسمع الكلام الذى لم يغادر مصادره الأولى بعد. الكلام الخارق، الذى لا يعبر عن شئ محدد ومع ذلك يعبر عن كل شئ: كلام الاستياء العميق. إلا أن هواد جرنى، بقسوة من جديد: أركض، أركض، لسنا فى نزهة يا غبى.

كانت البلكونات مملوءة بالنساء. نساء الحسكة الظبيات: النساء - الخبء، النساء - العبء. نساء فوق نساء! عيون شيطانية تتقصى الرائح والآتى. ووجوه محرومة، توحى بالشبق والإنبهار. اللعنة! لامسرة على هذه الوجوه. لا متعة. ولا حنان. قهر قاتل ومستبد يتجلى فيها منذ أن تقع العين بالعين! وحصارها حصار لا خلاص منه: حصار الرغبة للرغبة. لكنهن مع ذلك يبكين يا ناس!

وهزنى هواد: نحن فى جنازة ولسنا فى عرس، يا غبى! وبالفعل رأيت دموع النسوة المختومات تبلل نواحى البلكونات العالية. دموع مدرارة، تختلط بسيلانهن الأخرى التى تزداد حدّة وبهاء، كلما استدرن عارضات، عمداً، أجسادهن الرائعة الشكل والتصميم: الأجساد المملوءة بحرارة الشمس الحارقة المختزنة منذ سنين. وكالمجنون هززت هواد: انظر ملك يتحرك. ملك حى وبقسوة سدّ فمى سدّاً، اسكت ياغبى. وانفلتُّ أصيح بأعلى صوتى، رغم سدّه المحكم: ملك حى يا شباب ملك مامات. لكن الصياح الهادر الذى

انطلق بغتته، وفى نفس الوقت تقريباً، ضيع صوتى: صياح الجمع الصامت الذى مل صمته. ومحل الدموع الخرساء، المتساقطة من عيون النساء المسعورات، حل صوت لماع ومترجرج. صوت لامس حرارة الشمس التى صارت الآن فوق حد الاحتمال: هلاهيل حادة ومتوترة، صارت تنطلق من كل فضاء.

صرت أصرخ يا ناس. سيدفنونه حياً! سيدفنونه حياً! ولكن أين؟ ولكن عجباً قبل السور الأسود الجميل، سور المقبرة الرخامية الأنيقة. مقبرة اسّو الشهيرة. ذات الأبنية الرمادية الهائلة، والقباب البيض الساطعة، وأصص الزهور الملونة، قبلها تماماً، كان يقف صف مانع ومهيب من الحرس والعسس والطواحين صف السادة ذوى الأخلاق الحميدة والألبسة الجديدة يتوسط ذلك الصف، الذى حال بين الميت وقبره، زلم ابن جليوى. زلم ابن الكلب

مرارة فاجعة ملأت الأنفس والأحشاء. الهمهمة المنطفئة صارت فجأة قوة وتحدياً: اكسروا الباب يا شباب، اكسروا الباب. وبقسوة لم أرا لها مثيلاً من قبل، هوت القضبات الحاقدة على القضبان. وملأ الجو سعور عاصف وغريب. بغتة بدأت العاصفة: انشق نهر «جغجغ» الآسن ومن طيات الطين، خرجت، خرجت عشرة عشرة. ومع الماء والغسيل الذى لا زال يسيل ، جاءت. صمت. انبهار. حركة موزونة. انفعال مكبوت. خوف أسود غريب. رغبة عنيفة فى الانفجار مزيج من الاستياء والاحتقار. بكاء خفى، دمدمة، أشياء أخرى بإجلال: وصلت أم ملك، يا شباب. وكاد الصمت المهيب أن

يتحول إلى ضجيج سخيف: أم الملك يا شباب تريد أن تحكى. أم ملك الغسالة، التى خرجت من الماء الموحل؛ تواً صارت تتملى الأحجار والأشجار تنفض عن عن نفسها آثار الغسيل. تلقى بحملها الذى انقض ظهرها تجول فى الأركان والمكان ومعها تجول الرهبة والصمت إلى شئ من التردد العميق، والارتباك المعمم أصاب كل شئ حتى باصات النقل العائدة من عاموة ومن الدرباسية والقاشملى أصابها ذلك. وبالفعل صارت الباصات العالية، ذات الهياكل المجروحة، تتوقف الواحدة منها لصق الأخرى، مذعورة وتوقف هو الآخر جمع الأشوريين الذين وصلوا أطراف المدينة للتو.، توقفوا وعيونهم السود المرتعشة تتطلع عجباً تتطلع مع العيون الأخرى إلى جذع الشجرة الوحميد التى تقف خارج السور، وفجأة اختلطت الرؤى، كما اختلطت الأصوات: أم ملك وقعت يا شباب،لا، لم تقع، بلى وقعت،لا، بلى. ماذا قالت؟ ماذا تقول! آه! ها هى ذى تتشبث بالخشب والحديد وبتصميم تصيح

لن تدفنوه.

صمت طويل.

لن تدفنوه مع الأعداء.

صمت طويل. قبره عندى فى ساحة البيت.

( ١ )

ذلك النهار القائظ الجميل، انطلقت راكضا حتى الموت. وبشدة لا مثيل لها، عبرت الحدود شمالا. ومن ثم جنوبا. جنوبا، حتى الانهيار كان قد مضى على قبولى فى التجهيز ما يقارب العام، وكنت لا أزال حافيا ومخيفا يومها، ركضت كالثعلب الخائف وحيدا، عابرا كالصعق. هابرا وجه الماء والأرض والأحياء. اللعنة! كيف تغير العالم فجأة. وفجأة حل الخراب؟ كنت أصرخ وأنا أعبر شوارع المدينة الصلعاء الغبية: مدينة الحسكة الجرباء ومن آن لآخر كالجدى أنط ناعقا كالزرزور: ملك مات. أنط حاقدا وعنيدا. ومع ذلك، ظلوا يصطفون كالأرانب،. واحدا لصق آخر. عيونهم منهمكة. وجوههم حدباء غريبة. لحالهم تهتز كحلى المعز فى القر. وايديهم تتهاوى مثل أيدى المصابين بالشلل العضال.

من المحيط إلى المحيط، عبرت المدينة المتوترة مثل جلد الدف

المشموس لا ! لم ينتظرنى «راهم» ذلك اليوم. كالمسعور بحثت عنه ولم أجده. الجوع واليأس يأكلانى أكلا، أكلا، اين اختفى راهم؟ اين اختفى الجربوع القماز اللماز. وقبل أن يرتد الطرف إلى إلى الحرف، كان الصراخ يتلو الصراخ: المقبرة خربت. هدوا المقبرة. المقبرة البيضاء النظيفة امتلأت لؤلؤا وصراصير. الجرزان التى كانت خاتلة فى القاع انبجست فجأة كالماء المقهور. صارت تفور راكضة، وتفور، ولكن اين اختفى راهم؟! قال سيجىء اليوم. سينتظرنى أمام الباب، حاملا، أرغفة شقراء بهية من فرن ابن ملكو. ومع الأرغفة علبة بيضاء التنك اللماع، علبة مربعة أو مستديرة، مملوءة بجريش حلو أبيض أملس المذاق: جريش الحلاوة الحلبية المهورة بخاتم أمهر الصناع. لا. الجوع القاتل الذى ملأ أحشائى لم يعد يمها.. والدمع الذى انحبس دهورا بدأ يصول ويجول: الحلاوة الشامية الناعمة، ذات الرائحة القرنفلية، والوجه الزيتى المحبب، هل تصل؟ ياناس!

ومثل البرق، اقطع الكربلاء، من الألف إلى الياء. كربلاء مدينة الكسحة الساكنة الحزينة. اقطعها قطعا، أبحث عن «راهم». عن أرغفته الحمر الموعودة. عن علبة الزبيب، لا. لم أجد أحدا فى الوجه، سوى أشجار السور الباسقة، وخطوط الحور الأبيض الريان: حور «مهموش» ذى اللغدين العضلين والعينين البراقتين، والبطن السمين. مهموش القرنفلى ذو الأرادن الواسعة الأركان، المحملة بالتبغ، والشفتين الشقراوين النديتين، باستمرار.

اتبع النهر إذن. اتبع النهر جاريا،. كالمرصاصة، حتى البيت. نهر ابن الكلب، هو الآخر، يبدو غشيا ورهيبا، به لؤم قديم لايزول: لؤم الماء المنهوب، اتبع النهر الواقف فى القاع، حتى البيت الواقف على شفا هاوية أو يكاد. بيت الزيت والحيلوان،. إلى البيت إذن، إلى البيت، أصير اركض جنوبا، صاعدا خطواط الأرض العشباء المليئة بالمقت والنفايات وخراء البشر والدواب ويبس الكلاب النافقة المزتونة هنا وهناك وأكوان الزيل الأسود المنثور واقفون وأنا أركض! النار مشتعلة فى البر،. الميت ينتظر الدفن، والدفن ممنوع الناس واقفون وأنا أإكض باستمرار،. اركض طردًا بعد طرد. خليت «ملك ملحوقا على القاع، بعد أن هلك، ولكن ابن اختفى عباس؟ اين ذهب «راهم»؟! اين؟ وأظل اجرى لاحقا بالنهر الذى لا يكف، هو الآخر، عن الجريان: النهر الصامت المكيوب وأكتشف، بعد لأى أن العبور مستحيل. كان الجسر بعيدا هذه المرة. بعيدا وخاليا من الحياة. الشرطة، وحدها، تمر بكبرياء وصلافة عليه. شرطة محملة بالسلاح. تلبس ألبسة غريبة ذات الوان فاقعة مخيفة. بأيديها أشياء كثيرة تثير الحقد والرهبة فى النفوس. كيف الوصول إلى البيت، إذن؟ كيف؟

أزت حالى فى النهر العكر الملعون؟ اقطع الماء سبحًا، سبحًا؟! لا. أقترب من العين الهمجية المخيفة، ومن الأيدى الصلبة المثقلة بالاسلحة ولوازمها اقترب، علنى أمر، لكن الصوت اليابس الرجاف يصلنى من اصى المسافة: ارجع يا كلب، ارجع. النار تنبثق من العيون. والاسنان تكشر باحتداد ولؤم أكثر فأكثر. أكاد اصرخ، أين

اختفى عباس؟ اين ذهب راهم؟ اين حط أرغفة الخبر الموعود؟ اين؟ اين؟ اتقدم من الموت. اتقدم من القوت.

فجأة، يخرج الناس جميعا، ناس الحكومة المرموقين. ناس البر، ناس الدلالين والهربين والبياعين وحمالى أكياس الحنطة الصلفاء وفحول الكراسى والخيرزانة المصفوفة أمام المقاهى باستمرار، الناس، الناس، كلهم يخرجون! والحرية البيضاء والحادة اللامعة تقف واحدة تكار تبقر البطن العارى. البطن الجائع الذى يكاد يسقط من شدة الموت، وأقول للحرية الواجفة: اريد أن آخذ خبرزى، خبزك يا عرص؟ تضحك الحرية البيضاء وتضحك بلؤم وسخرية، وهى تقترب من جلد الأحساء المضمورة وأردد بيأس: أى خبزى. أريد أن أخذ خبزى. خبزى المدفون هنا فى القاع. وتردد الحرية بتوجس واستياء: خبزك مدفون تحت الجسر يا عرص؟ أرجع. ارجع حالا والا..

الجسر يا رب الجسر. الجسر المعدنى القديم الذى يحفى أكلتى اليومية: رغيفى، لا، لن آكل اليوم خبزا؟ أعود إلى الشمال إذن ومن ثم إلى الجنوب. والشرق بعد ذلك، حتى الماء. أمر بالشوارع اللعينة من جديد. ومن جديد أرى وجوه البشر البليدة. والوجوه - العصيدة. وجوه أكلة البصطرمة والشحوم المببسة واللحوم المقددة والمصارين: وجوه الناس الذين اصطفوا، قبل قليل، متفرجين، والذين، لا يزالون يقفون، مثل الموتى، واحدا لصق آخر. ينظرون بلا اهتمام إلى هذه الناحية ومن ثم إلى تلك. ينظرون وهم يلوكون لقم الكباب المشوى

بالخضر والهارات الحادة والبصل البرى: كباب الحسكة العظيم، الذى لم أذق له طعما أبدا. يا ناس!

اغمض عينى وأركض. أركض. الجوع يقتلنى، اركض، الحزن يقتلنى. الحراب تحاصر الجسر. العبور إلى المكان صعب، مثل الرجوع إليه. الماء إذن؟ الماء؟ وفعلا أخش الماء، اقطع الأرض سبحا سبحا اتناول الجال العالى، الخالى. الناس جميعا يتفرجون على الجسر: الهجانة والدرك والشرطة والجيش وشرطة والمخابرات المدينة والمخابرات العسكرية والجواسيس والجواسيس. الضد وممثلو الحكومة العلنيون وغير العلنين والسريون والمكظومون والكاظمون الغيظ والمخاتير والمحسوبون ورؤساء الهيئات والقضاء والمعلمون والمتعلمون وأعضاء البلدية والموظفون ولاآذان والمصلّون الناس، جميعا، كانوا هناك.، اطلب العون ممن" أغرق! وكالنمرة تقتحم «سلطانة» المكان تحدقنى بعينين مذهولتين ثدياها يرتجفان بعنف وقسوة، كأنهما يحتجان على هبوطى الماء، أمد يدى؟ لا أمد يدى؟ أغرق. أذوب أصير، أنا الاخر، ماء يشربنى البشر والحجر. أروى الذرو ونواحيها، اروى القيعان الصفصفاء، إروى الجماد والطرش والحيوانات أروى مع الشيح أشجار القبصوم اللاصقة من التراب الظمأ. أمد يدى تمد يدها بتصميم. تتناول الذراع الخاتلة تحت الجال. تنتشلنى انتشالا: آطلع يا خليل. الدنيا خربت. اطلع قبل أن يسحبك الماء. النهر جاء.. اطلع أطلع مبلولا. تتدلى أشيائى وأعضائى.

الرجفة التى تركتنى، ركبت «سلطانة». اهتزاز عنيف مفاجئ صار يعبرها من الطرف إلى الطرف. أى شيطان أحمر شيطانها الآن؟ تعال، تعال أدفيك، وصلنا. كانت تردد. وصلنا؟ صرت أتساءل. الجوع الذى دفع بى إلى الماء جوع العساكر والدساكر تبخر فجأة، وغاب كنت أريد أن أصل فورا إلى البيت أن أرى وجه أمى القديم: الوجه السراب الذى ظللت أراه سحابا وجه المرأة تقدرعلى فعل كل شىء: الود الحركات القصوى. المسة السحرية على الأطراف، العطفة المتواطئة، والدحرجة البيضاء المتتابعة من العين الناشفة حتى القليب. أية امرأة شرهة، أجد، الآن، لصقى؟ امرأة يا بايخ؟! أنا سلطانة يا خليل. لم تعد تعرف سلطانه؟ يا الله المية جننتك! تعال أدفيك. تعال، وصلنا. وصلنا! وبها،. كلها، أحاطتنى من الذراع إلى الذراع. آه! أى خبب يقودنى الآن، يمثل هذه السرعة، إلى الموت؟! ارتجفت، من جديد، وهى تحيطنى علما بوصولنا المفاجئ، لا، لابد أن تكون. قد ركضت من الحضيض، من قاع الجفر الكبير، الغارق بين الدور العتيقة، حتى الماء، املاء الهائج الذى يجرف كل شىء: الأسمال، والأزبال الملقوحة فيه منذ الصباح، أحشاء الحسوانات المذبوحة على قارعة الطريق، ودكاءوها السائلة حمرا صفرا سوادًا، والنباتات البرية، أى شىء آخر، لا. لابد أن تكون. أن تكون.

أن تكون ركضت خلسة، بين الدور حتى لا يراها أحد، وقد رآها الجميع: عريف الهجانة البدين. «وام صطيف» الفحلة، بياعة الفجل والفلفل والمكدوس. والأعشى بياع المشبك العفن. والحواج.

والآخرون الداشرون، المنتشرون كالذباب، فى كل مكان «سلطانة» من أين طلعت يا سلطانة؟ هتفت بها أمى؟! من المية يا عمة. من الخابور. من تحت الجال العالى. جال السماك، وملأت الدهشة نفس المرأة الظليلة: تقولين خليل؟! صمت قصير طويل. حشرجة خاسرة. شىء يشبه الموت المفاجئ. فتحت العمة قلبها، وجثت هامدة فى الأرض، عيناها قد فرغت من الضياء، تماما.. بنظرة نارية كانت تحدق فى سلطانة اياها بالسكوت، وتمتمت سلطانة: ياعمة خليل جوعان.

وتبدل عبوس العمة ابتسامة خفيفا، وفجأة، تحرقت كتومة، خارجة من الكيان والمكان، اخيرًا سلطانة وأنا والحر والخلاء والجوع وقرص الماء الدافئ والدغدغة والعميقة المكفهرة فى الأحشاء: دغدغة النشل والمبلول والتصاق الجسد المائى بالماء.

اختفى الجوع القديم الخارق للحجاب، ومحله، حل شبع جوانى عنيف شبع متوتر مهووس. شبع لم أشعر به من قبل! صرت أحس أن بطنى منتفخة من كثرة ما حشى بها من آلام وآمال وأطعنة بهقاء عفنة ومقيتة. واللعنة! من اين جاءنى ذلك الشعور المثير للرغبة والغثيان؟ ومن حط النار الملتهبة فى جسدى وعينى؟ وظلت سلطانة واقفة بالباب. ادخلى يا سلطانة. لا ادخلى. لا. لا أدخل. ادخلى، جررتها من زندها الممتلئ الرطيب.

وأحس طعم الدم الثاقب يتسرب فى دمى كالسهم، يخدرنى من الركن إلى الركن. الدم ـ السم. أتسمم حقا يفور دمى. جسدى، كله،

يهيج. يهيج من المحيط إلى الخليج. وينتشر جسدها البض المكور مثل حبوب الرمان المبثوثة فى الفضاء. يتشدى ويتشدق يفغر فاه. يكاد يمضغنى. آه! هذه البنية هى الأخرى. مسحورة؟!

واكاد ألمح، فى غمام ذلك المحيط الخائب، وجه ملك الذى هلك. وقبل أن أصيح، تصيح روعًا: رمتك وانهزمت؟! وأرى البسمة الصغيرة المحبوسة تتوش الشفاه المليئة دون أن تغادر القلب. وتبتسم وملك مات؟! ولم أدر كيف صرت أصرخ من جديد: جوعان يما جوعان. ورأيتها ترتد إلى نفسها، ملأى بالحزن، والكآبة والقهر، تقف إزاء جوعى المزمن عاجزة، محطمة القلب والأعصاب. لاتقوب، حتى، على تلبية أدنى حاجاتى، وأقلها شأنا. من اين لها الخبز اذى اريد، والعالم لا يحوى لالا الدرك والهجانة والعجاج والدجاج السارح فى كل مكان. دجاج ابن جليوى. دجاج ابن الكلب؟ ومع ذلك، تروح تمشى الهوينى، وهى تقول: رايحة اشعل التنور. أخبز لك خبزًا جديدا. بس اصبر، اصبر ؟ وهل افعل شيئًا آخر غير الصبر؟ وفجأة، بدأت أصيح، اصيح بقسوة ولئامة. وجه ملك الذى هلك صار يختلط لمحًا، بوجه سلطانة التى رمتنى وولت الأدبار آه! المرأة لا تعطى نفسها لواحد مرتين! هى الأخرى. كالمنية لا تجىء إلا مرة واحدة فى العمر، يا ناس!

كانت تنظرنى مأخوذة، وكنت أحيطها يشبه القتل، ورأيتها تحط كفا على كف. تحنى منكبيها، رأسها الثقيل إلى أقصى النقاط سفلا. تكاد تموت العنكبوت. والعنكيوت. صرت أصيح، ولم يأخذها

الروع القديم. هى الأخرى تغيرت وأرقع رأسى إلى الخلاء، ابحث عن ملك وعباس، وأرى الوجه الحنطى الرقيق: الوجه - الورد. يعلو كتفين جميلتين. يسنده جذع سال شديد التناسق والانسجام به، عينان حرتان كعيون الصقور المنصادة منذ دهور: عيون لا تتحرك، ومع ذلك، تدرك كل شىء إلى جانب العينين الغرتين، وقفت ضبابا امها: العنقاء الرفيعة، ذات الثوب الأسود الغامق، والزبون الأحمر الثخين، زبون الطلس القديم. رأسها ملفوف حتى الخنق بهبارى شديدة التون والبرق. هبارى حمر. صفر. خضر. سود. شهب. ألوانها تتطاير منذ أن تراها العين: تتطاير هالة خضراء شمسية، لا لون لها، ولها الألوان كلها، بيدها اليسرى عصاها وباليمنى كيسها المنسوج من وبر اليقطين. الكيس الأزرق اللبنى، ذو الانعكاسات المتوهجة مثل انعكاسات البحر اللطيف. به، ما يؤكل وما لا يؤكل، عرفت ذلك، من الرائحة الهبوب، التى سبقتها منذ الصبا: رائحة الململومات ملمومات الأكل القديم، الذى خمرته الشمس، أصابه برد الفجر الناشف، ومر عليه الليل. رائحة غريبة. رائحة خليط من الروائح كلها. وكأن أمى كانت بانتظارها منذ الأزل، مسحت دمعها السيال، واطفأت، فورا، تنورها اللاهب ورحبت بها من جديد" وكأنها لم تكن عندنا البارحة: سيرى، حبيبتى، جيتى؟! من أين طلعت علينا يا سيزى؟ كنت أريد أن أخبز وشممت الريحة، وحضنتها سيرى وهى تفحص المكان: لا شىء، أرض صفصف وخلاء مر. لا شىء أبدا لاشىء. من اين تخبز خبزا لخليل؟ ومن جديد، شدتها حاضنة اياها أكثر فأكثر.

لأول مرة، منذ دهور. سمعت ضحكة أمى الخافتة، تدويه. امى، التى حرمت على نفسها الضحك منذ أن مات «اسماعين»، تقهته؟ اسماعين، الولد الجميل، ذو العنق الشاهق، والأركان المبنية بامتاز، ولد أمى البكر الذى كان يلوح على الفرس وهى تطير. خيال الخيل، الذى خطفه الموت، والذى من أجله حرمت أمى اللون والضحكة والحناء والجدائل والهبارى أمى. أمى ضحكت، هذا الآن! أكاد لا أصدق! بلى سيرى لاحظت، هى الأخرى ذلك. وفجأة، شدتها بين ذراعيها وراحت تبكى، بكت أمى بحرقة والتياع بكت. صامتة والبسمة ترتسم، غيمًا، على محياها، وبتصميم جرتها إلى الداخل - الخارج: تعالى، سيرى تعالى، لكأن اسماعيل قام من القبر! وخطت سيرى بهدوء. خطت خطوة خطوتين بعدها خطت الأخرى، ذات العيون الحريرية: عيون القادمين لست أدرى من أين. من ديار بكر. من الرها. من نصيبين. من الصحارى البعيدة. من أقصى القاع. عيون لماعة مبتسمة. عيون امرأة تقول: تعال. ورافق الخطو المهيب، كلام. كلام، هو الآخر، مزيج من الكلام. كلام، خليط مثل مياه الجزيرة العكرة وقيعانها. مثل القصب المنتصب على الانهار: القصب التباع من بطن الشمس. القاطن الأرض. الملتوى كالخيطان. قصب اصفر صفرة أخاذة، مثل وجوه القوم المحيطين به ليل - نهار.

من جديد، رحبت بها أمى: جئت من بعيد. حلمك ثقيل. هاتى الكيس هاتيه. لكن سيرى التى لم تتمتع بملكية، قط، لم تكن بحاجة إلى تشجيع لترمى بحملها اللميم كله: هاك الكيس. اعطى خليل يأكل. اعطى خليل يلبس. اعطيه قالت ذلك، وجرت بنتها الصفراء

جرًا خفيفًا. جرًا آلمنى اليدين، وعلى الأهداب الصفير بعض النمش والكسور. وفى أعلى الترقوة، بقليل، حبة بنية مثل حبوب العدى المرتوى. حبة مدورة. مرسومة بحنان: حبة الخال الأسود التى تقابلها، درما، حبة أخرى مماثلة. تمام، فى «ذلك المكان» فى الزاوية الحادة لالتقاء شرطية. حبة تفتح النفس بأبهتها وجلالها.

وصرت أتمتم: من أين لها هذا التناسق العضوى الرائح بالتمام؟ ولم تبرز الآن - وربما قصدا - من ساقها السائب؟ أهكذا يصنع الناس فى جبال القاف؟ وردنى إلى رنين خلخالها الثقيل: دن - دن - رن - رن. كدت أصيب الغشى لولا اليد القديمة التى حطتنى فيها: تعال شوف جابت لك خالتك ايه! تعال وأرى بعجب إلى الألوان والأحجام والخلائط والأبخرة والأنثرة والحاجات، وهى تتجاور، والواحدة فى الأخرى! من يأكل من؟ من يلبس من؟ من يسيطر على من؟ وأتفلت: لا. لا لاأريد. لا أريد. وأكاد أرى الدمع يخر، من جديد: تعال يا وليدى. تعال. تعال. وارنو بهدوء إلى العينين الشاحبتين. واحس الجوع القديم يتلاشى فى الفضاء. يتلاشى حتى يكاد أن ينعدم تماما: لا. لم أعد جحائها والله، وقبل أن أنطلق الاسم، تلجم فوهتى لجما: لا تحلف يا وليدى. لا تحلف!

كل شىء تغير فجأة صارت البنية ترفع سروالها النارى عن الكعب: تسوى ببراءة، حجولها الهابطة، حجلا. وفى الوقت، نفسه، تحس حرير الساق العاجى، حسًا وتتأوه: الحجول قتلتنى. والحجول، والحجول! وقهقهت سيرى. وهمهمت امى، وبقيت ان

صامتة كالموت: العيون القصبية الزلية الصفر، عيون الحيايا البرية السامة، كانت تلوعنى وكذلك والمظاهرة واللمعان، وهواد وبقية العجيان والدرك والشرطة وسلطانة والجوع والغرق المفاجئ فى الماء، كل شىء كلن على. الدوخة صارت عاتية، هذا الآن. لا لم يعد الخلاص منها ممكنا، دوخة العوز والنكران ألا تحل عنى، هذه المرة، فقط؟ لا، تحل القشعريرة الباردة، قشعريرة السغب المخيف، ها هى ذى، تعبر الأنحاء، تسرى فى الأوصال تدوخ العقل المأزوم منذ أول النهار. الأصفر الفاقع الذى توجنى فجأة، كان علامة الموت إذن! لا لم أعد أدرى شيئًا سوى الصرير. صرير أمعائى المتحفزة من الجوع وحس أمى وهى تردد، باصرار: قتلته البنية. دفعته إلى الماء. ورمته وانهزمت. آه! آه!

كان نوع غريب من الظمأ يقتل احشائى ظمأ جوانى خارق، يجفف كل تركيب. وأريد أن أشرب. أن اشرب أى شىء، وأتطلع حولى، ولا أرى الا تنك البنزين الأبيض اللماع، تنك سيارة الفورد الزرقاء البحرية: سيارة ابن جليوى سيارة ابن الكلب. وأمد يدى الشمعية، التقط طرف التنك الصدئ الملىء بالرثية والغبار. وابحث عن بطن الماء، عن الندى والقطر، وأحس البلل الساقط من عل يتدلى نقطًا بلا ماء وقبل أن أدلق السم على بطنى، تمسك اليد الخضراء المليئة ضوءًا تمسك بيدى، وتحط القنينة الصغيرة فيها، قنينة الكازوز الأحمر اللامع. ومن عمق سباتى السبغى القاتل، أرى إلى اللون، وأخرج من جلدى: ملك مات وأنا أشرب اللوعة والمرارة؟ لا. لن أشرب بعد اليوم ماء ملوثا من ماء الخابور الداشر. لا. لن

أشـرب مـاء القـسـر والارغـام. وبحـرارة الحـقـد الهـائل، الذب كـان ومـازال، ادفـع بـالهـيكل المسـتطيل، ذى الحـروف الذهـبـيـة الآسـرة، والطعم المزى الجـارح، ادفـع به بعيـدا حـتـى السيـلان. اقبله كـالقلب المكسور، وأنـا أردد: أملك ملك، وعميقًا أحس اللسان يعض اللسان: اسكت يا ولدى. اسكت وتقـتـرب الشفـتـان الغليظتـان اليابستـان منى اقـتـرابا. ترتميـان على: الحـمى، الحـمـى. الحـمـى يا سـيـرى. خـليل يموت الحمى. الحـمـى. وأمـلأ عينى البيضاوين باحـمـرار الدم المنبثق مقلاً مقلاً: دم ملك الذى هلك هنـاك. وأرى كل شـيء احـمـر. آه!

فى ذلك النوء الحـمـوى القـاتل، كنت أرى الأشـيـاء تتلون بالأسـود المصبوغ بالنار، أرى الذباب الأزرق الطنان يتحـاوم فوق مقتلى. وأرى هواد وفـمـه الأرعط الكبيـر. رشـام وانفـه المسطح. أنف العـاشق على الدوام. وأرى البـنت العـجـفـاء ذات الشـعـر المدهون بالحـنـاء، والفم المنتـج من الكبـت. وأرى. وأرى. وأرى الأشـيـاء الأخـرى. كلهـا، أراها تخـتـلط كـالماء والحنطـة والشـعـيـر، واكـاد اسـمع الصـرخـة بعـد الصـرخة: يا ويلاه. مـات خليل. خليل، يا أهل خليل. أكـاد لا . لم أكن أسـمع، ولم أكن أرى. غيـر تلك الأنوف الشـهوانية الشـبـقة، المفتوحة إلى الأعلى، وإلـى الوراء، أنوف الأسـمـاك الصـغـيـرة المرصـوفـة بدل واعتداد: اسماك السـردين القديمة الأسـماك التى سـافـرت ذات يوم، مع الماء.

( ٣ )

المحشوش الغابة الأشجار الخريفية البتراء زبل الثيران المتناطحة الدرب الضيق المحفور أرض الخريف الهائفة الاصفرار والإرتجاف وان تدفع بى امامك تجرنى تأخذنى إلى هناك تريدنى أن ادخل معك الأرض تحب أن تحكى مع الماء تريدنا أنـنندفع بأقصى ما يمكن من السرعة عبر الوحل والسيلانات وأنت تلتصق بى مثل النار ولا تحب أن ترانا الشمس وتريدنا أن نبتعد عن الأمكنة والقصاع والسراقين وبائعى الروث والفطائس والجص والأحجار أن نخش هنا وهنا تماما بين الجذوع الهائلة جذوع المحشوش المنتصبة كالفخار تريدنا أن نتصنت بعمق إلى أصوات الحشر والبشر والبواقين وإلى نهيت العابرات بعيدا فى الحماد الابدات مع الحشيش تريدنى أن اقترب منك منك أيضا وأكثر من ذلك أن التصق لك كما يلتصق الجر وبأنه لا؟ لماذا اذن تريدنى أن

أخلط جنبى وجنبك أن أمزج يدى ويديك أن أصالب عينى بعينيك أن أتمدد هكذا مثل حزمة الشوك على الأرض لتوز بى النار وهذه الرائحة اللعينة ورائحة العرق اللصاق والفواح الرائحة الصيفية الهبابة النافذة من اين تختبئ كالموت ولم تريدنى أن انقلح على جنبى الأيمن أن أمدد بتؤدة اطرافى أن انفرج وأنا أتشتت وأتبدد باستمرار وذراعك المتواذة هذه التى تلج الكيان الصوفى المخطط حتى الوراء الدواخ من ين تدخل هذه الذراع الرهيبة إلى الأحشاء وكيف تمر مرور الريح على البطن والأثناء ركبتى اليمنى بعد أن تعرت تماما صرت تطلب منى أن أدفعها إلى التوق أن الامس بها أوراق المحشوش البنية العائدة إلى الأرض دون أن تتوقف عن الاقتراب منى والاندماج بى ويدك العنيفة تمسك بخوف كبير يدى وانت تردد باحتجاج يدك باردة مثل يد السمكة الخارجة تا من الماء يدك باردة يا ملعونة يدك هاتيها هاتيها وقبل أن تسمع الجواب تلتصق بى يلتصق كعبك بكعبى وحذاؤك بحذائى ووجهك بوجهى وقفصك الصدرى بقفصى الصدر المغلى والعرقان وأشياؤك الأخرى بأشيائى ويظل برغم ذلك كله يظل عجزك بعيدا بعيدا جدا فى آخر الدنيا أو يكاد كنت تتحنى كالقوس تتبدل الملامح والقسمات فى كيانك المضطرب المهتاج يدخل وجهك فى قفاك وتغط فى سباق لئيم لكأنك تسابق احدا لا أراه أحد بعد أحد آحاد كثيرة كانت تجرك وراءها كالعصفور اليتيم وأنا انبطح قبل أن أراك قبل أن أتحسس قسماتك واستهويك آه لابد أنها هى هى التى كانت تسحب كالأسير هى مظاهرة الخميس المفجوعة لا؟ لماذا قفزت

فجأة وابتعدت هاربا فى الحال أولا جذعك ومن ثم قوامك وأخيرا شعرك الكبير لماذا غدوت صارما حزيناً شديد الاضطراب لم تكمل لى حكاية المظاهرة اللعينة التى يجب أن تحدث غدا صباحا فى الصباح المظاهرة التى تتهيأ لها منذ الأمس منذ أمس الأول والأخير حتى أنا صرت أشك فى حدوثها وأنت تؤ:د المحشوش رائع المحشوش! كل شىء كان يبرد يغدو رمادا فى رماد القشعيرة الحمراء اللهب المنبثق من اخمص القدمين الشعر الأسود الذى استغد للطراد ويدى التى أمسكت بها الجمر الجمر المستطيل الخارق الذى انطفأ فجأة وصار غبارا آه! المظاهرة اللعينة والدرك والجيش وقائد السرية الجهم وزوجة الملازم واحشاء الثور المذبوح ودمه الذى أخذ يفور فى الأرض حتى الزوال بلى! المحشوش رائع، رائع انظرى ألا ترين الحور العالى وأخاديد الأرض الحمر المروية من الخابور وأغصان الشجيرات الباسقة فى أسفل الأحواض وبعض البلل والضباب قلت لك الآن رأيته انه لرائع حقا ولكن هل تراه انت كذلك؟ واذن لم ضحكت عابسا وأنت تتلمس من جديد بطن ساقى بملل وحياد كنت إذن لا راغبا ولا راضيا لا سعيدا ولا مهتاجا اللعنة كيف داهمك ذلك الاحساس العنيف بامحنة والارتباك وانت لا تزال عالقا بين ولم تعد ترى من العالم إلا المحشوش المحشوش المغشوش محشوش ابن جليوى محشوش ابن الكلب كنت هنا إذن فى هذه الأرض البشعة المغلوبة على أمرها ولم تكن فى الظاهرة المظاهرة التى لم تتقطع من صمتك واكتآبك من ذكرياتك الملعومة ذكريات الموت ذكريات مظاهرة الخيس المشئومة

ترنح الجمع يمينا ويسارا وهوى بكليته فى القاع وسريعا ابتلعته المدينة المحجورة ذات الدروب القصيرة والبصور الحسيرة واهتزت الأشجار اهتزازا غاطسا وملوطا أشجار المحشوش الغربى اللئيمة الأشجلر العدوة بامتياز ورأيت اهتزازاتها الجذلى تتطلع... اللعنة للأشجار عيون وسنون تتفرج باختراق على جسدينا الملتزمين بين أوراقها الفضية الخضر وبانسياب غامض وحميم انزلقت بجسدى الملتزمين بين إوراقها الفضية الخضر وبانسياب غامض وحميم انفلت بجسدى كله نحوها وأحسست بحرارتها القصوى تعبر قماش الثوب الثخين وبغته أطلقت تنهيده خرساء ملجومة وهى تغير من هيئة كيانها المرتمى على الأرض واقتربت منها اقترابا أكيدا كدت آكل العضل السرى أنهش اللحم الآجرى الخاتل فى الأثناء لكن النهدة بعد النهدة جرتنى من الكيان إلى المكان ملك الذى هلك كان يربض كالكلب السرى فى وجهة البيت عجبًا من ابن نبع فى تلك الساعة عباس وبفجاجة أسرة حركت يدى اليمنى حركة غريبة ملهوفة وبلمح الشوق صارت دفعة بين الجسد والثوب شقت الفضاء الخفى شقا وصلت الغار من أعلى وأحاطت به إحاطة الزند بالسوار واستمرت اليد فى الهبوط استمرت نازلة حتى كادت تصيب الأرض وفعلا أصابت القساوة الحنيطة للقاع كان اخترقها للجسد المشظى كاملا وسدسدا جسد ابم احم أى جسد مذهول هو هذا الجسد الغراف جسد اسماعين المسجى فى صحن البر جسد عباس الملقى باهمال قاتل فوق الأكمة الثبور جسد ملك الذى هجرته الزنود السود بعد أن حطته وبغبطة وافتتان على السور

التى لم تحدث التى مع ذلك لا تكف عن الحدثان مظاهرة الخميس التى انتهت بالموت مرة أخرى بالموت بل! كنت هناك وكان جسده الطويل القاسى يطل من بين الرؤوس ومنكباه العاريان يرتكزان فى الريح ارتكاز ومن فمه الواسع المخيف ينطلق الصيح تلو الصيح يسقط الاستعمار يسقط وفى الصباح فى الصباح الباكر ذاك جاءتنى سلطانة عجولة جسدها الرائع يفور من الشهوة والغيظ بها رجفات ساخنة كأزومة وبلا هوادة ألقت بنفسها على أعطتنى كل ما تملك من شغف وسراب ومع ذلك تركتها ورحت انحدر راكضا نحو الماء ألحق بالرفاق الصم البكم الساكتين منذ البارحة ليلا رفاق الدبس والعجور والتو البرى المنتشر توت الأرض الشرقية أرض ابن جليوى أرض ابن الكلب.

ولم يلبث الجمع أن اختلط بالجمع وداست الأقدام بعضها دوسًا والتوت الأجساد مأخوذة بالسيل هوت المسامير كلها على شاربيه ورأسه والجمجمة وتقولين إننى لم أكن هناك والمسامير الصفر الجارحة مسامير العسامر والزعران والمتورين ورأيتها كلها تحط عليه والهتافات تنطلق من حنجرته التى امتلأت زغبًا وصبيبًا ثخينا ويفعل صوته الرهيب حتى الأحصنة هوت فى الماء فى الماء الموحل أحصنة السقائين الدهم تلتها براميلهم المعدنية والمتطاولة مثل القنابل الطينية تغطس غرقا وبالقرب منها من الأحصنة الدهم والوجفة ختل السقاؤون رهبة وطنينا وواحدة بعد آخرى غطسوا رؤوسهم الصفر فى الخابور الذى غدا اجحمر من الفبض والصياح يتلو الصياح الموت للعملاء الموت للعملاء وشيئا فشيئًا

الحجرى الأبيض فى شمال المدينة اللعناء وبحثت عن يدى الهاربة
لم أجدها كان الغار قد أكلها أكلا وكانت لا تنى تصرخ باهتياج لماذا
لا تقلقنى لماذا؟ وأحسست بها تفوت بى جسدها الآكل يمضغ
جسدى كالتين ولأفك الحصار الرهيب عنى هجمت عليها هجوما
صاعقا ومديدا ومع ذلك لم اقترب منها إلا ضئيلا وأحستنى
انتصر الأمر انتصارا لا مثيل له ولا عديل كانت تتمدد على جنبها
الأيمن فى أرض المحشوش الغربى وكنت أتمدد على جنبى المقابل
فى الأرض نفسها وبلا مكان وظلت الأوراق تتساقط بلا انتظام
وظلت هى تهذى بلا انقطاع لماذا لا تقتلنى لماذا لا تذبحنى لماذا؟
وسؤالا بعد سؤال ملأت الأسئلة الشيطانية الأفق وملأته والمظاهرة
لا زالت تسير والهتافات تتساقط فى الفضاء هتافا فوق هتافات
قديمة هتافات جديدة هتافات قريبة وأخرى بعيدة آه! كيف تتسلق
الكلمات اللسان والشفتين كيف تصير بعوضا طائرا فى الأركان
ومن يهب الحياة والعنفوان للصوت صوت ملك الذى راح الصوت
الهالك المالك وأحسست بالقهر الكامن ينفلت فى أعماقى يريد أن
يطير يغدو رغبة سرية رغبة فى أن اختلط بالجمع أختلط به
بكيانى كله وبلا حدود الأفواه المفتوحة على المدى البعيد صارت
تستثير شغفى وارتكاسى تدفع بى إال الانصهار بالمحيط أفواه سود
ملجومة انفتحت على الجو بغتة وبلا خوف اطلقت هتافاتها
الساخطة تسقط العقيد تشيد بالشهيد تنذر الاستعمار وأعوانه
ولكن أين هو الصوت الذى انبثق منذ قليل الصوت الآمر وتطلعت
هنا وهناك أبحث عن مصدر الصوت الذى ضاع إلى الأبد

والذى لازلت أبحث عنه حتى الآن وفجأة رأيت ما رأيت ورأيت الانحاء الداخلية العميقة من عقالها تعطى نفسها بدفعة للريح تختلط بالأوراق وحصى الأرض ومشتقاتها المنشورة فى كل مكان وعلى بعد خطوات منى ومنها بدا الطين المكتوم على جال النهر أصفر وبذيئا طين معجون من التراب والروث والصديد بلى! مرضى المدينة ودوابها والتائهون والغرباء كلهم يتغوطون فى هذا المكان وعلى الماء الهابط جنوبا أن يشيل ذلك كله أن ينأى به إلى الزوا وفجأة بدأ النزق اللاهب يحيط بها نزق جوهرى وعنيف ورأيت أردافها البنية المفتولة تتلوى جانحة فى الريح ها هى ذى بنت الكلب تريد أن تركب الحبل أن ترخى الزمام بالتمام أن تحطنى فى القاع وأن تدوس على كانت تقترب منى أكيدا وهذه المرة تريد افتراسى وبيأسى دفنت كله دفنت رأسى ورحت أبكى واضحا كالموت أبكى والدق يتزايد على الشباك والباب والهباب واللعنة من أين يأتى الدق هذا غريب يحيط بالفضاء كله ومن خلل النوافذ صرت أرى إلى الأزوال اللئيمة تتخشل كالجرابيع والدق الذى يأتى من أركان الدار العتيقة لا يتوقف عن الدق والأزوال الزاحفة حولى تستعجل الوصول آه! من يحمينى ممكن وكيف؟ الباب يكاد ينكسر وينكسر فعلا باب الزل العتيق الهاوى الباب الصنيع وهل يحمل الباب الهالك إلا دفرة أو دفرتين والرجال الزالقون عبر الباب كالحراب المسنونة يعرفون الألفة والمكان يعرفو كل شىء كل ما أعرف أنا وكل مالا أعرف لماذا أقاوم إذن لماذا تعال نفتح الباب يا خليل تعال يا قليل تعال لا لن افتح الباب يموت الحر ولا يفتح الباب

لعدوه بيديه وتفتح اللئيمة اركانها العذبة كالتين الناضج تين الشمس الشرقية الحمراء تين الحسكة اللدن العميق هات اعطنى تينا هات اخوك مامات أخوك مامات وأشهق الشهقة بعد الشهقة وأنا أفتح الحق الثمين آه يا بنت الكلاب آه! وكالسيل العرم يلج الجمع الجمع ورأى النار والنثار جمع من الرؤوس الحليقة يلج فجأة ويحط وأحسسنى محاطا كالقنفذ الذليل الخيول الصاهلة الحجلاء خيول كثيرة أجساد مربوعة مشوهة أقدام عرجاء أيد تشبه القضبان المحروقة سعير فوق كل شىء بدا غريبا المدخل والمساندة والعمدان لا لم أعد أعرف من ركنى القديم ركنى! من هم هؤلاء النابحون بلا توقف فى وجهى اين خبأتها ايها الكلب أين حطيت الأوراق الصفر اين دفنت الكتب اللعينة ومن أيم جاءتك وممن وأتحدب انحنى بعضا فوق بعض اغدو بطيخة سوداء أصير حجرًا فى حجر الوجه الوحيد الذى ظل فى كان وجه ملك الذى هلك ملك من هو هذا الكلب العكروت تقول ملك على أى بلد يا ابن الخرا نسألك أرا وتجيب آخر وأكاد أرى الغراف القديم يطير فى الريح يطير الحجر المقذوف من مقلاع غراف البرارى البعيدة الغراف الذى لم يسق أحدات ماء والعالم كله خابور ورأسى وهو يتشظى مثل الدن الفخارى الذى أصيب فجأة بحجر ثقيل الدن الحنون الذى سقانى قيظا بعد قيظ والذى لم يعد يحتمل العسكر رؤيته ابدا من أين تملأين الدن ماء؟ من مى الله يا بنى قى الله؟ تسمين ماء الساقية المحفورة المتعوب عليها من الله! وهذه القيعان والواسعة من اين تشرب يمطر السؤال تلو السؤال دون أن ينتظر

منها جوابا وقبل أن تزن الكلام والرد كان الدن يتطاير فى الجو طلقة واحدة تكفى لتطير رأسك انت الأخرى فهمت ومن اين تشرب إذن يا ابنى؟ من اين أشربى بولك ان كنت عطشانة إلى هذا الحد الماء الجارى احذرية الأرض التى تحد البيت احذريها الساقية التى تمر وسط الدار احذريها اعرفى حدودك حدودى حدودى ولم ينتظر الإشارة صار يسورها سور لصق سور هذه هى حدودك بالتمام تعالى وقعى هنا تعالى لا لم أوقع لن أوقع صارت تصيح وفجأة يمهلها ويستدير نحوى لاليس فى المحيط الا القحيط وهذا الرماد المكوم يا عرص هل؟ أى! رماد هذا الرماد الناعم الملموم هذا الرماد ألبى هو رماد الكتب التى نبحث عنها والأوراق والأنساق وتبكى يا عرص تبكى على ماأحرقته يداك ماذنب الحكومة وأنت تحرق كل شىء والآن إذا أحرقت أذنيك هل تبكى عليهما كما تبكى على الكتب الحقيرة التى أطعمتها للنار؟ وفجأة وجدتنى أطير مع الزرازير السود فوق مَرج من الثلج القانى ثلج برارى عامودة الجميل اللعنة الفخ المقعر الصدئ الذى اختفى بين ذرات زبل البغال الساخن وبه حبة قمح واحدة ذلك الفخ الشيطانى من وضعه الآن تحت فكى كدت أصرخ يا أماه إلا أن الخرس الرصين شل طاقتى كلها على الهذيان أيها الحمار أيها الكلب يا حراق الكتب اعترف وأرى إلى الانتشارات اللنفسية الغائمة تفيض على المحيط ولا اعترف الكائن البائس المردود الذى كنته يصبح فجأة مغاليا وشجاعا والطفل الهش الباكى على لقمة الخبز ان لم يجدها يغدو بغتة حمالا جمالا اين هو الآن عباس ليرانى، أين هم الجيران

والأهل والأحبة والغربان بلى! تُبدّل آنى وصاعق أصاب كل شىء العالم كله تغير والتهديد يلى التهديد ايها الكلب سترى كيانك العاثر هذا يتردى مثل كيان الدودة المدعوسة تريد أن تقاوم؟ قاوم لكل فصل حصل ولكل حال مآل نحن نعرف أنك تعرف أننا نعرف كل شىء نحن لا ،نفعل ذلك إلا من أجل مصلحتك أنت من أجل مصلحة الجميع ولست أدرى كيف حانت منى·التفاتة كما يحصل عادة فى مثل هذا الموضع من الحياة التفاتة إلى اين إلى المحيط الذى كان يحيط بى آنذاك كان كل شىء فارغا وبليدا آه كيف استولى ذلك الفراغ البائس فجأة على الاشياء ذلك الفراغ الأبيض الأصفر فراغ الخيبة والعناد لا لم يكن ثمة إلا العيون القاتمة تحدق فى عيونى بإصرار قاتل عيون خبيثة ومريبة هى الآخرى كانت مملوءة بالكرب والنشاز عيون تتسلط على عيون وألسنة متوترة لا تكف عن القذف ماذا كانوا يقولون لم أعد أعرف كل ما أعرف هو أننى كنت اقترب من بنية سيرى الأريبة تلك البنية الهائلة ذات الأركان الغريبة المملوءة توترا وبهجة باستمرار وللم أكن أدرك آنئذ سطوة ذلك ولا مداه كنت لا أجيد بعد إلا اللمس كنت فى حالة المعرفة الأولى المعرفة - الم ومع ذلك كانوا يصرون اين خبأت الاوراق أين؟ولكن اية أوراق يريدون؟الهوية لا الدفاتر لا أوراق أى شىء اذن يا ناس؟ الاوراق ياعرص الأوراق تتغاشم لابد أن تعترف يا كلب لابد لابد وأكاد أغمض الطرف على صورته المهيبة العالية صورته التى تتصدر المكان أكاد ولا أفعل أحق بالصورة العالية المزوقة المجملة المحملة كبرياء واسرار صورة «البطل القائد يالرجل

الرائد صانع الوحدة جمال» اللعنة لماذا يعلق صورته هكذا فى كل ركن وفى كل مكان ألكى يكون شاهدا على جور التاريخ وزوره لالن أتلو آيات الانهيار ما على إلا أن ارتفع إلى الحضيض ززز ززز ززز ززز كانت الطفلة الشبقة لا تكف عن الإنغماز وهى تغمغم بردانة بردانة ودون أن اقترب منها أتملى فى عمق الظلمة سخط الوجه الجميل ذى الوجنتين الهابطتين إلى الرىّ وأتحسس من بعيد انتعاظ الحلمتين المُرّتين كالعلقم المسحوق كان الشبق المحبط يلون الأفق يلون الوجه والانحاء يلون بضاضة الجسد وغضاضته يوسمه بالموت شهوة المرزة سبع حباها نهرا من الشهوات ها هى ذى تبدأ التمزيق آه تمردها المخيف يتجسد ثورة فى عتمة الليل وثورة الشهوة عاتية أنها الثورة الوحيدة التى لا يمكن أرجاؤها أو إلغاؤها وتصير تقذف لى من عندها بشفاهها التى تورمت من الشوق الشفاه القرنفلية الدعجاء شفاه الخوف واللهفة ، الآن أحسست بالارتجاف المشئومة تركبنى من النخاع إلى النخاع ارتجافة الجوع القديم لا ارتجافة الخوف الليلى اللئيم لا ارتجافة الرهبة المستمرة من الأساتذة الحقى والمدير لا أية ارتجافة أخدودية عميقة وبلا قرار إذن هى هذه الدعبلة الحارة مثل كوم من اللهب المجنون؟ وفعلا يترجف البطن الصغير الضار آه بطن الغجرية الأصيلة يرتجف إرتجافة واحدة لا غير يهوى بعدها فى التراب فى اللوع والدواخ ومن عمق الخدر أصير أرى أركان الكون كلها صفراء وخالية الدرك وحدهم يتضاحكون يتقاسمون السكر والحليب الخاثر والعصيد وهم وحدهم ينامون فى نومى العكر المكسور اين

ذهب عباس ومن أى ماء يشرب الآن وعلى أى تربة يراتكى وافقا وينام وهذه الحمول الباهظ من القطن والحنطة والشعير إلى أى ركن من أركان القاع تروح وشدتنى أكثر فأكثر البرد تعال يا خليل تعال عباس هو الآخر كان يشدنى يشدنى فليقتولونى اذا شاؤوا ملك هلك انا لا اعرف أحدا انا لم اقرأ م أحك ولم أبك وهذه الصورة السمراء البنفسجية المزوقة المحملة بالاسرار تؤكد ذلك ليفعولا بى ما شاؤوا أريد أن أموت أنا الآخر أريد أن ألحق عباس وبقوة حمقاء ردتنى إليها تعال إلى أين تريد أن تصير تريد أن تطير؟ عباس انذبح عباس انذبح الشح الشح وبغتة تختفى العينان الصافيتان اللتان كانتا فى حوزتى ومعهما يختفى الظل الأصفر الآتى من بعيد ظل الجهامة والقمل والصئبان الظل الأسود المخيف ظل الغيوم المكفهرة المحملة بردا هذا هو خراب الدنيا إذن هذا هو يوم الحشر اليوم الأكثر لا هذا هو ظل ابل الأسمر ذى الأحجار العالية المسننة المنحوتة من الناس الجبل الذى يمتد جنوبا حتى النهر ومن النهر يرجع إلى الوادى الوادى الغائص بين الطرفين إلى الأعماق وادى الأشعار الصغيرة البارغة بلا انتظام الأشعار - الأشجار وتتساوى الأجساد فجأة جسدا لصق جسد وكذلك الأيدى والشفاه والبطون والعيون والأطراف والأجواف وانحاء أخرى ذات رائحة قانطة وغريبة مثل رائحة الموت آه أتكون هى الأخرى تبكى الان بسبب هذه الرائحة الصماء الثقيلة هذه الرائحة الباهتة الغثاء رائحة هذا الرذاذ الذى لا ينوش بعضه بعضا الرذاذ الثخين الميت والذى لا يكفى مع ذلك عن الانهمار ولكن من اين

يجيئنا الغيث ونحن فى صافية الحر وكيف تدلت خصلات الشعر
الأسود الهفوف تدلت مثل ذوائب الحيلون إلى الجسد المشرئب
النازف من شدة الضرب جسدى المنبوذ المهمل من الناس ولماذا يمر
الدرك كالأحصنة الهائجة فوق جلدى مروروا آسرا ومميتا وهذه
الصورة الخرساء المعلقة فى أعلى المكان على أى شىء تشهد وبأى
لغة تحكى صورة البطل صانع الأذيال وبقسوة أحطت جذعها
المتهالك وأتيت بها إلى وأتت كلها مدفوعة خلفا وأماما أتت مثل
ألسنة الماد الفائض على ألبراه يا لهذه البنية المشتعلة مثل فتيل
القتيل ودون أن أحرك شيئا أتخلى عن فضائها وتتخلى بى لكن
كيف الفأس والساقان المنفرجان مثل ساقى الخنزير البرى
والسقطة المقيتة وخصلات الشعر المنثور والعضو اليذ غاص فى
التنور أى شىء جرى يلهذا العالم الحقير؟ العالم الحقير يا كلب
لك لسان يحكى وعين تبكى يا عكروت وأتطلع مستغيثا إلى أعلى
إلى أسفل إلى هنا إلى هناك إلى الجهات جميعا ولا أرى سوى
الخلاء حتى الصورة الخرساء غادرت الجدار الطينى القديم ولم
يعد لها حضور لا لم يبق حولى إلى أصوات الأشجار اللئيمة تصيح
بى انبطح قبل أن يأخذك السيل انبطح يا ويل ولا أنبطح وأظل
أتطلع إلى ذرى أشجار الحور العالية ولا أرى إلا الطيور اللاحمة
طيور من هذه الكائنات الغريبة ذات الأجنحة السود مثل أجنحة
ملائكة الموت ومن اين لها بمثل هذه المناقير الزمردية العقوفة مثل
الحراب أتكون الطيور الهمجية هذه هى التى نتفت جسده فى
الفلاة وقبل أن يرتد طرفى إلى كانت الأشجار تصيح مهتاجة من

جديد لماذا تقف مذعورا أيها الغبى ابع البنت الغية عنك وأحفز احفز أيها التيس وأحفز مرتدا على رأسى أنط فى الريح نطة بعد نطة وأنا أصيح واصيح وأرى إلى العينين تضيقان من اغفاءة الأم الطويل عيناها تموتان أيضا هى الأخرى منهكة وحزينة من عذبها من يعذب من ولأجل أى شىء من أجل الأوراق يا عرص الاوراق فهمت والفأس التى انغرست فى عمق أرض الحور الغربية فأس كرأس الثور الهائج لماذا الفأس يا ناس! ومثل جركة كائنات متعددة ومبهمة صرت أحس الحس وبدأت أشعر باكتئاب قان وكدت أنهار وبحركة آلية تماما مددت يدى إلى جيبى الأيمن وعبر الشق الكبير ولت أصابعى تلامس أطراف وأعدت الكرة مرتبكا وهذه المرة باليسرى وقبل أن الامس حالى لامسنى الصوت تدور لا تدور على شىء قل لنا من أنت من أنت منه انته وبلا حماس أحببت أنا خليل أنا خليل وملأت القهقهة الفقيهة الفضاء أسمه ابن الكلب يريد أن يضحك علينا تريد أن تغشنا يا عرص ومن جديد رأيت الفأس تهز الأرض هاوية لها وعى مقلوب مثل وغيد مزن الربيع الهائج اللعنة هذه الفأس ستأكل لحمى فأس حامية رأيتها تجز الأشجار الشامخة كما تجز العشب والحشيش وأصير أتلمس الجذع الصغير الهاوى أركض أطير أزت نفسى عليه أداويه ألدغه كما تلدغ العقرب نفسها آه ماذا يمكننا أن أفعل وكيف أقاوم يا ناس وفجأة عوى الصفير الحاد القاسى الصفير الملدوغ ورأيت الصوت الأسود اللزق يصعد توا إلى قبة الكون صوت يطير أطير أنا الآخر معه أشياء رهيبة وغريبة كانت قد بدأت تحدث وكانت الفأس لازالت تجىء

والرجل الأدهم يغشونى يحشونى والحشرات تتوالد بلا انتظام
والماد يصير جبلا سائلا من الماد وهى تقف فوقى فارجة ساقيها
المبلولتين كاشفة عن ثغور لذيذة البيضاوية والحناء تلون انحاءها
تلوينا صاخبا ومثيرا حناء الحجر المطحون بالنار ومن ثقوبها
العديدة ينبثق الصياح تلو الصياح أه المرأة العاتية التى لا تصيح إلا
على قضية كانت تصيح يا ناس تعالوا شوفوا الطيارات تحوم فوقنا
عبد الناصر يريد يجيبنا بيوت الشعر امتلأت الظهارى والأكمات
وخيول البدو جاءت تهذيب هذبا وطنابير المى لم تعد تسقى الناس
والمدارس أغلقت أبوابها وطوابير الخراف المعدة للذبح تنتظر دورها
فى عرض الطريق والعرصة أخليت اخليت تماما من الخضر
والزرع والبقول تقول وأقول وهذا القتيل لما يظل واقفا مستندا
على فأسه وقطرات الدم تسيل حول عينيه ورأسه.

( ٤ )

لم يعد المفهوم السائد يثير إلا السخرية والاشمئزاز. إنه مفهوم العلاقة المحكومة سلفا «بالنهاية» أيا كانت. ولكى ننتهى منه، من هذا المفهوم علينا، أن نلغى النهاية المنتظرة، نهائيا.

ذات يوم، يأتى يوم آخر، تحدث فيه الأشياء الأخرى التى لم نكن ننتظر حدوثها، ابدا.

أحسن التزويرات، التزوير، غير المطابق للأصل.

عندما عدتُ كان البيت غائبا ومثبورا. فى طلعة الدار الترابية الكابية توقفت، قليلا، قبل أن أصيح. كان منظر الدم المنثور. فى الفضاء المسور بأشجار الحور، خانقا وملعونا. وبنادق الدرك التى اخترقت، كالسحر، جسد الرجل الكثيف الذى ظل متكئا على فأسه، تثير الرغبة فى النوم. القىء الصاخب الذى انبثق مرا وحمضيا، قلقل كيانى، وأضناه. وانطلاق الرصاصة البرقى القاتل

جعل كل شيء يموت: الأمل والخوف والإرهاق حتى الجوع القديم الناشف، جوع الظمأ الكئيب، ذاب.

بالواقعة المشئومة، هذه، اختلطت مؤخرة امرأة القصاب السمينة كما يختلط جمع من النور. كنت أريد أن أقع وأنام، ولم يكن ذلك، بعد، بالمستطاع. كانت الأسئلة تلحق بالأسئلة. والموت يلى الموت. والجوع ليستبد بى كما تستبد الفاقة بالناقة. فى طلعة الدار توقفت أجيل البصر فى المحيط. أقلب النظر هنا وهناك: آه! الجو غائم ومخضر فى أطراف الكون القصوى. العجاج المبول يتصاعد، مثل الدخان الأزرق المهتوك، من النقاط الجبلية فى القبلة القريبة. بعض الغيم النابع من القاع يعلو الظهارى والأكمات لا. ليس فى المكان المرئى من بشر. ولا دواشر. ولا أحياءك خلاء يتلو خلاء. متى جئت إلى هنا آخر مرة؟! متى كنت فى هذا المكان؟ من قام يلقانى الآن، فى هذا الصبح الشتائى الميت، وأنا أزحف محملا بالشوك والطين. فكاى يرتجفان من شدة البرد، ويداى مثل الغصون المسلوقة بالماء؟ بلى! الزول يزحف وأنا أزحف، ولا نكاد نلتقى إلا غماما. إلا لماما. ولم تدع الظلمة الطويل. انطلقت نحوى كالرصاصة. انطلقت. «طرفة» بقضها، وقضيضها، ساحبة سعالها المنفاخ: السعال اليابس المتقطع المستمر. ثوبها يطير. صدرها عار. يكاد اللطع الأبيض العميق أن يشق القضاء. أى حلم رهيب، يرهبنى الآن؟

قبل أن أتناول الرمانة المثقوبة، تناولتنى: أين كنت طيلة هذه

الأيام؟ اين كنت؟ أمك ماتت يا خليل. أمك ماتت. وأنت لم تكن هنا. ولا هنا!

مع اللوم والكلام، انبثق القشع الرئوى الهائل. القشع والسعال والبلغم والدم واللهاث وحنين «طرفة» وحنا الملهوف اللواع: حنان السقيم على اليتيم. أبكى. أحكى. أتألم. وقبل أن أتبين الأمر، هوت على بكيانها المرعوب، كله. لم اتحرك كان نور الصباح الجديد وادعا وعميقا: نور أبيض مشعاع بعد ليال بائسة ظلماء. وهزتنى هزا: تعال لاتبك. تعال ابك! ابكى فعلا. لكن الدمع اللئيم اختفى، كله، وغاض الطفر الندى. غاض كل شىء فجأة، ويبس اللون. وتطلعت إلى بحذر وهى تنتجب، من جديد: أمك مات يا خليل. أمك ماتت أيها الرمى. ملك، هو الآخر مات. عباس، ربما يكون مات من قبل. والآخر، ذو الوجه الأسمر اللهوف، اين يختبىء الآن؟

وأنا، أنا أيضا، كدت أموت، قبل قليل.

بقيت ساكنا فى المقام النور المنبثق من بطن الأرض، لتوه، يوجب الإمعان، نور بارد ينتشر، مثل النور الفرودسى، بلا تخوف أو تقتير. نور يطلع من القاع. نور غريب لم أشاهد له مثيلا من قبل. أحسست بالقشعريرة الباردة تعبرنى. تخترق جسدى الساكن من أقصاه إلى أدناه. آه! هذه القشعريرة المرة المفاجئة اللابسة للجلد، أن كانت تختبئ كل هذا الوقت؟ وبدأت تنوى، من جديد، تنوى: لماذا لا تمشى؟ لماذا لا تدخل البيت؟ لماذا لا تتحرك؟

لم أتحرك. نوع من الشعور الغريب سيطر على: شعور بالحاجة

الكاسحة للوقوف طويلا فوق الأرض. كانت أقدامى. وحدها، تدير الكون. لكأنها كانت تدرك، بوقوفها المباشر فوق القاع، كل ما لم يدركه، رأسى المشوش من قبل. ولأول مرة أحسست أن للتراب طعما. ودفعتنى بعنف: خش، يا خليل، خش. الدنيا برد. والمصائب كثيرة. خش خ.. ش.

لم أتحرك. كنت أحسب أن ضربة قاضية حلت بالمكان. بالدار الطينية المهدمة. بالحيطان البيض القديمة المكسرة. بالكوخ القبلى الواطىء. بألواح التوتياء الصدئة المشقوقة طولا. طولا، لا. لن أدخل. لم ادخل بيتا بعد الآن. كدت ادفع بها عرض الفضاء. لكن الحركة اللطيفة. لكن الحركة اللطيفة. التى رمتنى بها، منعتنى من فعل ذلك: حركة البؤس العنيف وهو يسيطر على البائس نهائيا. يلقى به أرضا. يحيل قواه الحية إلى رماد. حركة اليأس حتى من يأسه. الحركة المحمومة التى لم يعد لها معنى، والتى ربما لم يكن لها معنى ابدا: ألا تريد أن تراها؟ أن ترى قبرها أن ينعدم؟ قبرها؟ إى قبرها فى «العالية»، العالية القبلية. العالية؟ اللعنة؟

الموت يصير موتين: عالية ابن جليوى. عالية ابن الكلب. لا.لا أريد أن اراها. أن أراها. وتصل التمتمة إلى «طرفة» مصغرة مكتومة. تكاد كلماتها أن تذوب من الغضب والاستياء. مع ذلك لا تذوب لكنها لم تكن مفهومة أيضا. كان على. بعد أن ذقت طعم الأرض المفاجئ أن أقرر ما أريد أن أفعله منذ الآن: أمشى؟ احكى؟ أتقدم؟ اتأخر؟ أى شىء آخر، كان من الممكن أن يصير المصائب

حلت، حلا انقذنى إلى الأبد. ووجدتنى بعد أن كدت أفقد الارتكاز القديم، كله، التقى بنقطة ارتكازى الجديدة التى لم تلازمنى إلى الآن: قدمى. وكأن ما قلته ولم تسمعه. سبب لها ادراكا جديدا، فجأة، عن الحركة والكلام. وكفت، عن الارتماء على، والاجتماعى وتصلبت، شىء فشيئا، قسماتها الرخوة المستطيلة. ولم تعد لاتذهب ولا تجيئ وكأنها كانت تسعيد الأعوام والكلمات . حطت رأسها اليابس فى خاصرتها، ومثل النعامة السوداء الغامضة، راحت تنوح: يايما خليل خلاك. يايما خليل ما عاد يريدك. يايما خليل زعلان. ياياما خليل. يايما خليل. ولابد أنها ارادت أن يصل إلى ما قالته لى من قبل، بأنقى الأشكال، وأكثرها بعدا عن التوتر والملام، إذ رفعت رأسها باعتداد، وتملتنى بحنان، ورددت بهدوء وكأنها حسبت أننى لم استوعب عبارتها الأولى: أحقا، لا تريد أن ترى أمك يا خليل؟!

كنت لا أزال واقفا فى العراء فى برد الفجر اللاسع، دون أن أجيب. كان الأمر يتبدى لى على نحو آخر، نحو مخيف، لم أدركه من قبل. فى مواجهتى ظلت تقف بعناد واصرار. تحدق فى عينى، برهبة، وشمائلها اللينة توحى بأنها لم تستعمل أقوى أسلحتها، بعد. كانت تصر أمرا عتيا. ولابد أنها قررت، أخيرا، أن تكلل عنادها المستمر بكل ما لديها من حيل وأنغام. إذ رأيتها تقترب منى. تلتصق بى. تشمنى وتقول بقلق رهيب: والناس! يا خليل، الناس؟ وكالمجنون انتفضت. انتفضت وأنا أحس ببولى يتقاطر مثل الخيوط السحرية منى. وبلا أدنى لطف، صرت أقول: الناس؟ الناس؟ من هم هؤلاء

الكلاب الذين سيفرضون على بعد اليوم فعل أمر لا أرغب بفعله. من هم؟ من هم؟ من هم؟

وقبل أن أتم التعبير عما يملأنى من سخط واستياء.. رأيتها تتهاوى مرتمية على، وبيأس شامل تقول، وهى تضع رأسها فى حضنى: لم أكن أتوقع ذلك منك. لم أكن. لم أكن. لم أكن. وبحب أقوى منى أحطتها بذراعى، ودفنت رأسها، كله، فى حضنى، وأنا لا أرى إلا العدم والتراب. تراب الشمس التى مرت بشكل واضح، هذه المرج، بين الدور الطينية القديمة. وبعثت الشمس وهى ترقى الكون ملتفة حول دار «أم سلطان» الحواجة أولا، أم سلطانة النمامة، التى جاءت ذات مساء من الغرب. من بلد الشام البعيدة. من «حمص» كما يقولون. والتى لم تنى تحفر الأرض حتى سوت لنفسها بيتا فى أعماق القاع. بيت من الكدر والألغام. من التبن والوحل والأخشاب المسروقة والروث. أم سلطان الحنونة التى تظل تأتينا مساء بعد مساء: خذى يا أم خليل، خذى هذا، خذى هذى.

سريعا، اخترقت الشمس العجولة، اخترقت المسافة الضيقة بين الدارين. الآن صارت تصب شعاعها المبين فوق دار «الأعشى» بياع المشبك والأساور المصنوعة من العجين. الأعشى الذى نبع ذات يوم، هو الآخر.. من بطن الأرض. من أين جاءنا، يا ناس؟ ظل الناس يتساءلون ليل ـ نهار، حتى صار الأعشى بياعا يحسب له الحساب. وصار الناس، من بعد، يتعجبون: من الجيفة صار له مال وحلال. ذلك كله بدا لى رهيبا. كان على أن أتوقف عنده، طويلا، قبل

الانطلاق. شيء ما، ولد ذاك الآن. مات ذلك الآن. أشياء كثيرة أخرى كان عليها أن تحدث. أن تحدث الآن والى الأبد. وأحسست، لأول مرة، أننى أضعت حياتى. أضعتها. أو أكاد. ولم يكن فى سوى الصراخ. وبهدوء، بلا انفعال. بلا ضجة. بعيدا. عميقا. بشكل أساسى. جذريا. كان على أن أتغير مذ ذاك.

ولست أدرى كيف تخلصت منى، إليها مشيت. مشيت صامتا حتى مناخ المرأة المنكوبة. وبمودة غريبة رفعت الشعر، والأيدى الممدودة، والصدر الناحل المنفوخ، صدر المسلول القديم وأخيراً المنكب، كله. وبهمجية لم أتوقعها منها مستنى. مستنى لمسا. مستنى لما بعد لم. وبحمية صرخت باكية: يا خوى هذا هو أنت؟ ياخوى؟ أرادت أن تمسك بى، كلى، كما كانت تفعل من قبل. أن تأخذنى إلى عمق دارها. دارها الصغيرة التى لاتحوى شيئا سوى الخراء والأسمال والدنان الفخارية المكسورة. وبها تبطحنى كما من قبل. آه! اين اختفى ذلك الوقت الصملاخ؟ ولماذا تستمر ناحبة حتى بعد أن لمستنى؟ أيكون الموت مخيف إلى هذا الحد؟ وبدلا من أن تركض، صارت تزحف ماسحة وجه الأرض مسحا، ويداها تمتدان، كالمذارى، هنا وهناك. مع الزحف المستميت، بدأ لهاثها يعلو، وهى تدور، حولى، وتدور. تدور وتحكى كلاما لم أسمعه. وفجأة هوت مندسة فى التراب. هوت والبلل يعطيها. الزبد الذى انبثق مثل زبد البعير الهائج، من شقوقها، كلها، أحاطها بجو أسطورى مخيف. زبد الموت. زبد السل القديم. زبد الوسن الملازم لها منذ أعوام طويلة. زبد الغثيان الذى لا يحل عقده إلا الموت.

من لمعة العين المريبة، رأت «طرفة» ما حدث وما لم يحدث. رأيت الأشياء كلها. رأت الموت واليأس والجنون. ورأت، ربما، تبدلى الطارئ التبدل الذى حشانى بأشياء كثيرة وغريبة. أشياء لم تألف طرفة شيئا منها ولم تعرفه. كنت أريدها أن تخبرنى أن اختفيت ذلك الليل. من أخذنى إلى الحقل البعيد. من أحرق الكتب والدفاتر. من هشم الخيزرانة فوق جبهتى. من قتلك ملك. وإلى أرض أرض غدا عباس. لكن الموت الغادر شل طاقة الحب والكلام لديها. الموت والحب لا يجتمعان. ذلك ما عرفته الآن. أتوكأ على زندى السقيمين وأبدأ الوقوف، إذن. أقوم. أمشى. ابتعد. أعود. لا أعود. أكون فى المكان ولا أكون. ألعن الصمت والسكون. الآن، صرت أعرف أننا لا نختار لحظة الانعتاق. التمرد، هو الآخر، كالموت، يجئ دفعة أولا يجئ.

وكأننى أردت أن أعتذر عن ذنب لم اقترفه، لم اقترفه بعد، كدت أبكى ولكن أبكى ممن؟ وعلى من؟ وهزت «طرفة» رأسها بلا اقتناع، حتى، قبل أن أقول شيئا. كانت الأمور تتراكم بسرعة هائلة. أمور لم يخطط لها أحد من. ومع ذلك، ركبنا شرها ركبا. ورأيت، روعا، سواد العينين يختلط بسواد الشعر: الشعر الأسود الفاحم كثلم عميق. ماذا كان يعنى ذلك الشعر القاتم غير حب الوجود! أى عذر يمكن أن يكون مقبولا بعد اليوم؟! الناس، كلها تعرف ما حدث وما لم يحدث بعد!

وحدنا كنا نقف وجها لوجه. فى بر الله الواسع، بر ابن جليوى، بر ابن الكلب، وأحدنا يحاول أن يخفى عن الآخر ما هو ليس بخاف

عليه! كان الأمر يثير القرف والبكاء. معا. وبشىء من الحرج البالغ والرهبة الغامضة، أحاطتنى، أحسست برجفة صاعدة تملأ اركانى. رجفة جعلتنى ألتوى على نفسى التواء. التوى، وأنا أحيطها بيدى. احيطها وتحيطنى ونحن نتجه نحو الخراب. صرت أدرك ما كان ينتظرنى يعد الآن صوت اعرف، ولم تكن تلك صدفة ابدا، أن موت ملك سيعودنى، من جديد. موت الرجل المنتصب على عصاه. موت أشجار الحور التى ظلت تحيط به إلى الآن. ومع ذلك لم يتركنى الاعتداد الآسر بالنفس، ماذا كان على أن أفعل، إذن؟ أو ليس الاعتداد هو الآخر، نوع من الارتداد؟ لكن تلك الشحنة من الغضب والخوف، والتى لم تتوقف عن مطاردتى، ابدا، تبدلت فجأة تبدلت حقا، ولست أدرك، بعد، كيف. ولا بد أن «طرفة» أحست ذلك التبدل الجوانى المريك. إلا أن أحساسها العنيد بوجوب انتصارها انتصار المرأة التى هى كل شىء فى عالم مهددا بالانهيار، هو الذى دفعها إلى متابعة هذياناتها المخيفة. هذيانات الخوف المستبد: يا خليل، يا خبى، الدنيا برد. الدنيا برد وعذاب وخراب. الدنيا عذبتنى عذبتنى وعذبتك وعذبتها وعذبته.

ولم أعرف ما أقوله لها أولى. الضوء الهائل الذى انبثق من بين الدور القديمة، فجأة، سد عينى. الضوء العينف الذى انطلق من عقاله، آنذاك، غير كل شىء. غير الوقت واللهجة والإمتثال. وحده، النظر الواجف ظل يلازمنى. فلتحك =، هى، أن شاءت: فلتحك عن الليل. عنها. وعنهم. وعن كل ما يعن لها على البال. ولتحك عن ملك أيضا. وعن الدرك والهجانة والخيزرانات والبنادق والأعناق

المربوطة بأرسنة الأحصنة الهائجة. أحصنة العساكر الخبثاء. لتقل ما تشاء. ما تشاء. لكنها ارتجفت كلها، وهب القول منها هبا: أريد أن أتحدث إليك. منذ البارحة لم آكل ولم أشرب. منذ البارحة وأمك تنتظرك فى القبر. وستظل تنتظر حتى تجيئها انت. أنت تعرف ذلك. أمك ماتت وهى تهذى بك تهذى! تهذى وام ملك الذى هلك، هى الأخرى، تهذى فلتهذ فى القبر كما هذت فى الصبر. لا، لم أعد أريد أن.. وملأتنى بنظرتها الهوجاء، أمك ماتت غما. كانت تعرف أنهم أخذوك.

أخذونى؟ صرت أتعجب. أخذوا ملك. أخذوا الرجل الذى يظل واقفا فى الحور بعد أن اخترقته الرصاصة الحادة. أخذوا اللص الشهم: عباس. أخذوا كل شىء: الأرض والماء والبئر والنباتات والأحجار وحفر الجص الأبيض واللوازم والخردوات. أنا أيضا أخذونى! لا. لا أريد أن أتحدث إلى أحد بعد الآن. كل ما أريده هو أن أمشى، وحيدا، فى برودة الصباح. أن أرى الأفق وحدى. أن أساير الخابور الهارب نحو الجنوب. أن أرى العالم، وحدى، شفقا. أن أحطه، منذ الفجر، فى. ألا ترين الشغف فى كفى، والوجد فى عينى؟ ألا ترين أننى، أنا الآخر، على شفا الموت؟

وشدا حولى صوتها القديم: لا تعال. تعال، أحك لك الحكاية من أولها. الحكاية بالتمام. الحكاية القديمة، نفسها؟! لا. لا؟! تعال اسمع ماذا قالت لى قبل أن تموت لا. لا. أريد أن أسمع بعد الآن، فهمت؟ لا أريد. لا أريد. سئمت حكياً وكلاما. سئمت. أريد أن أشق

ثوبى. أن أرى ملك. أن أرى عباس، ياناس. ولم تدعنى أقوم. لا - تعال اسمع: أخذوه من هنا.

من قدام البيت والدنيا مطر. والحالول يرتمى مثل الكدر والحجر. أخذوه بالجبر والقوة. على رأسه ضربه الكلب ابن الكلب. ضربه بالخيزرانة الطويلة المدهونةبالشحم، المذيلة بسيور الجلد القاسى. خيزرانة «أبو اللسع» المشئومة نسيتها يا خليل؟

صرت أكتم الألم والوجع. وهى تتنحانى. تتنحانى حتى صارت فى وجهى. ومثل الذى أصابه مس، حفزت منهزما إلى البر: لا. لا أريد أن اسمع. لا أريد. وابتعدت كالبرق. اختفت عنى الدور الواطئة، فورا. ولم يعد يلمع فى الأفق إلا أغطيتها التوتيائية الصدئة. ومع النسيم الوليد صار يجيئنى، حيياً، صياح النسوة الهابطات من رأس القاع: قاع الحمزات اللئمة، وهن يحملن، وهنا على وهن، قدورهن المليئة باللبن والحليب. وكالعليل استلقيت على الأرض، وصرت أتنفس القاع نفوسا. نفوسا. أتنفس التراب والعشب والندى والأشواك وأحجار الأرض الكسيرة والحشرات الراكضة إلى المجهول.

كان سطح الماء الناشف، يلمع، غراً، فى ضوء الشمس. آه! الريح. والخلاء. والرهبة الغامضة المخيفة. وسطح النهر الأملس القرمزى! وكالمجنون أنحدر ركضا حتى النهر. أريد أن أشرب. أن أشرب. ولم يكن ثمة إلا الأعشاب البائسة الصغيرة، ذات الأشواق المكبوبة على الماء. الكون كله خال: من دار السماك إلى بيت القصاب. آ! غريبا كان سكون الكون ذاك الصباح!

**التمرد قد يعطى ثماره ذات يوم أما الخضوع فعقيم.**

**يمكن أنْ نتعلم كل شىء: نتعلم الانتهاك كما نتعلم الانصياع.**

**وليس بعض الظن إنما.**

فى شرودى المناوىء، ذاك، رأيت النباتات الآكلة اللحم! نباتات شوكية خانقة الرائحة، تبزغ من بيت الجسد المنهوك: جسد الفطائس المتراكمة منذ قرون. كيف بزغت تلك النبيتات من بين الضلوع المقوسة المتروكة للريح؟ وكيف عمرت رؤوسها بوريدات بنفسجية ندية؟ وأن كانت تقطن هذه الديدان السرية الاخذة بالنميان؟!

وبالقرب من دار «السماك» الأحدب ـ أبو الطينين، كما يسمونه ـ رأيت أشجار الخرنوب البرى تستعمر الفضاء: السماك المهووس بالتربة والتراب، وحده، كان يعتنى بالشوك. ووحده كان يسقى الخرنوب العاقر، ويداعبه بحنان! خرنوبى ولا حنطة ابن جليوى، يردد باستمرار. ومن أين تأكل يا سماك؟ آكل ماء واشرب ماء وأبول ماء. وأخرأ ماء. يشير إلى إسهاله المزمن الذى لا يكف عن المروق من مؤخرته الهزيلة. يشير، وهو يردد باستياء. اخذوها أولاد الكلب. أخذوا كل شىء الميت والحى.

وبغتة، ينطلق الصوت من حلقه مثل الطلق: خرنوبى. حبى ومحبوبى. يصير يغنى، وهو يتأوه مختفيا فى الريح، مقوساً أكثر فأكثر، ظهره الذى لم يعد ظهرا. ومن آن لآخر، يناجى الغيم العابر، فى هواء الصبح الشنى القارس: يا غيم، يا غيم، هل أنت على

العهد القديم مقيم؟ أن بلت بلنا وأن جفيت جفينا، وأن هطلت فإنا قد تكافينا.

**إذا كنا بقينا هناك، فى ذلك العالم القديم. فلأنه جزء منا، ولأننا نخصه، ومع ذلك، ليس أمامنا إلا انتهاكه وتحقيره.**

**التمرد طاقة حاقدة والخضوع طاقة خامدة.**

**قوة الوعى تسيطر، وقلة الوعى كذلك.**

**القطيعة لها طعم الحياة، والانصياع له طعم الموت.**

**الآية، عكس الآية.**

من قطب الكون الساكن، أخذنى الصوت. الصوت؟ بلى صوت الكلام الراكض الكئيب: صوت أصوات الحمالين العضل وهم يتغالبون. الحمالون التعساء يتسابقون، كحيوانات هائجة، تريدالورد: من يشيل أكثر؟ من يشيل أثقل؟ من ينتع الجوال نتعة واحدة. من؟ الحمالون يتابرون فعلاً فى حمل الأكياس الرهيبة: أكياس الحنطة الصفراء. حنطة ابن جليوى حنطة ابن الكلب. يتبارون بحماقة وعناد! وحملا فوق حمل، تصعد الأكياس المحشوة بالحبوب. تصعد على ظهورهم حتى الليل. حمول ترتكى بأبهة على أسفل الجذع. ومنه، ترقى عاليا حتى الرأس تحتها، يبدأ النوسان والغرغرة والبصق والاحتباس. ومنذ اللحظة الأولى. يغلب القرف والهلكان عليهم: آه؟ انكسر ظهرى. هذا آخر حمل أشيله. ومع ذلك، يعيدون الكرة أكثر من مرة. يعيدونها! يبيدونها، بالأحرى. وخطوة،

خطوة تمتلئ السراويل النيلية الغامقة ماء وعرقا وانصبابات. وتتفخ الأفخاذ. وتتوسع الألية بعد الألية. ويغدو الحالب خيطاً من الوبر والصديد. وأخيرا لا يبقى بأيديهم إلا تلك الكلاليب الفولاذية المسنونة، التى يغرسونها بحقد واصرار فى أجواف الأكياس التى لايأتون على آخرها، أبدا: أكياس إبن الكلب، لكأنها تتبع من القاع. من أين له بكل هذه الأكياس. يا ناس؟ يرددون وهم يصطفون بخنوع، أمام كميونات «البيريانلى» و«البوزينغ» الطويلة، ذات الخطوم المعدنية الرهيبة. يصطفون؟ يكادون يأكلون بعضهم بعضا: أنا أول من يشيل. لا أنا. لا، أنا أنا آه! الجوع والكسل لايجتمعان. وهم يفضلون الموت، على الموت جوعاً، ياناس!

**عندما يختفى التصور الشخصى للعالم من الذهن، ولم تعد تحرك إنسان الرغبة فى تخريبه، فإن الكتابة تغدو عبثا وبلا معنى.**

**كل حقائق العالم الجامدة، لا تعادل عندى، انفعالا واحدا.**

**من يحاول أن يفتح صفحة جديدة فى عالم قديم غير أحمق عنيد**

أتشبث بالأرض: هذا النداء المختلط بالصوت والضجة، علام؟ «طرفة» من جديد، تناديني!؟ تناديني من أعلى ومن أسفل. تومئ لى. تريدنى أن أجيئها؟ لا . لا أريد أن أجئ. لا .لا . وبلوعة متاهية تومئ لى، من جديد. تومئ لى من بعيد، ومن قريب، معا: بلى. تعال. تعال. ودون أن أهتم بإصرارها، أتابع المشى الهوسى على حافة الما. الماء، هو الآخر، يمشى بلا توقف. بالماء الغاطس فى

جوف القاع، يرجع إلى الماء. ويرتعش جلدى من رطوبة النهر صبحاً: آه، الماء يرقى إلى. يلف دار السماك. يمتزج بإسهاله العديد المتواتر. يبلل الوقت والأنحاء.

أزت نفسى فيه. أصير، أنا الآخر، ماء وبعنف لطمت «طرفة» رأسها. وسدت بيديها فمها المدهوش، وهى تلاحق دوائر الماء البارد، التى صارت تتسع، وتتسع حتى الإنغمار. كنت أخش النهر خشا عميقا. ولم يكن ذلك بالمستطاع. انحدرت راكضة مثل كرة من الدخان. شعرها يتطوح يمنة ويسرة، وعيناها مملوءتان دمعا وتساؤلات: جاؤوا يدورون على عباس!

وأخرج مبلولا، كلى: جسدا، روحا. أفكارا. وأمنيات. اخرج، مرددا، بخوف واضطراب: هم! مرة أخرى؟ وتقبلنى، بحنان آسر على وجنتى المبلولة، وهى تطمئنى باعتداد: يذبحوننى ولا يأخذون أحدا، تعال، لا تخف، تعال. اللعنة، هم، فعلا. هم! ويتراؤون لى من بعيد: هيئاتهم لئيمة غريبة، تثب فى الجو وثبا. أطرافهم طويلة تكاد تصل الجبل والخابور. عيونهم حمر براقة كالجمر. حولهم، يكتظ الناس اكتظاظا. كأنهم مدعوون على عرس الناس، أيضا، يحبون العنف والهمجية. يقدرون التمرد، ويحتقرون الانصباع. فكرت فى هذا وأنا أتهيأ للانطاق. وكأننى لمحت فى عينيها السوداوين اللتين وقعتا فى عينى،توا أمرا آسراوصريحا: امش. امش. ورأيت، لمحاً، رفيف شفتيها اليابستين، مثل شفتى عباس الهالك. رفيف الشفتين المليئتين حقدا واستياء. ماذا يقول الرفيف؟

ماذا يقول: لاتحن رأسك لأحد، لأى أحد، يا خلى. لأى أحد. وإذن فلأقفز الآن، وفى التو. أقفز فى الفرقة بين الرجلين لا. لا أن أحيا بعد اليوم ظلماً.

كنا نقف على أفضل الطرق للاختلاف، أكيد أفضل الطرق لاقتراف القطيعة. القطيعة النهائية التى لا يمكن لأحد، بعد الآن، استيعابها: القطيعة بين الرعية والراعى. وإلى الآن، لا أعرف متى حدث ذلك، ولا كيف: بر. فضاء أزرق بعد أزرق. ماء. سماء. فوران. تقطع. بلل. بلل وغبار. بلمح البصر، حدث كل شىء. وبلمح البصر، كنت أهب ذائبا فى القاع. وبعيدا أمد يدى كلتيهما، أتناوش بهما الصخر البرى الضامر: خر جبل «عبد العزيز» صخر الجبل الغربى المشوى بالشمس. الجبل الأصم الأبكم. الجبل الهادىء الراكن فى البطن جبل الرعاة والحوافين. الجبل الوتد. لا ظلم ولا حسد. لكن الجبل واقف لا يجئ جامد لا يتحرك. آه! هو الآخر، أصيب بالضربة القاضية. وإذن ليس أمامى الا الوصول إلى الغار: أفوت أو أموت. كالمسحور، أتسطح. أغدو ترابا وثابا. وفجأة ألج الشجر: شجر كثيف مروى مرتبط ومسدود شجر يولد من شجر: شجر البطم العتيق، بأغصانه المنخورة، كالأنفاق. شجر، كله، شجرة واحدة، لايغر!

أتسلق الشجرة إذن: شجرة القمة الجوفاء ذات البطن المنهوش مثل بطن البعير. آه ها هى ذى أخيرا، شجرتى العتيدة. الشجرة التى أكلت من أغصانها الطويلة عاما بعد عام. التى، من مسحوق

أوراقها الناشفة، ضمدت، جروح عباس وآهاته، بى! إنها هى هى الشجرة الحامية. الشجرة العامية فلأدخل، إذن. فلأدخل. وفعلاً، ألج الجوف، حتى الشوف.

قبل أن يرتد بصرى إلى، رأيت الهيئة المخيفة الغاضبة: آه! الحية العمياء المهيبة، نفسها، لازالت هنا؟! وارتد ذعرا: الأفعى السليطة، أفعاى السميمة نفسها، لا تزال على العهد! أى ريح جاءت بها الآن؟ وكيف لم تبرح المكان؟ أيكون عباس هو الذى أرسلها الحين بعد الحين؟ بلى أنها هى، هى فعلا: ها هوذا غبشها يعمى العيون والحماء المنطلق من إهابها الأملس يملأ النفس بالقشعريرة والرجف. وكأنها عرفت، فورا، مابى، ومن هم ورائى، وما اطلب وما أريد، ارتكت، كالملك الجسور، على حالها. وصارت تصن. كان دبيك الأحصنة الملجومة يهز القاع. لكن الحية العتيدة لا تعرف الخوف. وأزحف، ألاقيها، أحتمى بها، أخش الغار. ألطأ تحتها حتى يروح التتار. وفعلا تزحف الحية الأرض. تسد الغار. تقف بالانتظار! تقف على ذيلها الأرقط، كالعمود الواقف فى البر. تنتظر الأمر لتكر وتفر. آه! تعالوا: صرت أصيح. وأصيح.

( ٥ )

تظهر الشمس من جديد! متى كانت الشمس تغيب؟ تظهر أو تغيب، أى فرق؟ أى خرق؟ بلى. ها هى ذى الشمس اللعينة نفسها، تبزغ من بعيد. من المكان القديم، ذاته. من طرف الكون المحلوم. من البؤرة المستورة. من الثغر. وستدفع بى. مرة أخرى، إلى الهاوية: هاوية النهار الكالح والمشئوم. صرت قديما وأنا لم أتجاوز السنوات. وغريبا وأنا لم أقطع إلا أميالا. ومغامرا. وأنا لم انتقل إلا من المرعى إلى المقعى. لم الخشية إذن؟! قوة الحياة الخاسرة هى فى أن تخسر كل شىء: الماء واللغة والاحتشام. وأصير أتحسس. بحرفة، أوائل المكان، أوائل الكيان: آه! مرة أخرى هن؟ مرة أخرى، يجئن! هن، جميعا، ولا استثناء اعدهن هذا الصباح الباكر، أيضا. واحدة بعد واحدة: حمالات الحطب والخشب والخاثر والبعرور. بياعات الخواتم والمحازم والعقود. امهات العجوز القليلة. الرقاق

والسمان. الطوال والقصار. المربوعات والمدقوقات. الملساوات وذوات البثور. وبعد، يصلن لابسات الحجول، الفضيلات. حجول الفضة اللماعة فى وقت الشمس. وفى الصف الأخير يمشين بنات الأصفر والأحمر والخمرى والرفاف. آه! فى وهج الشمس القاها، ذاك، كانت تخالط الألوان الأحيان. وتتمايل الخصور. وتتحرك الأقدام.

كانت النهود تعلن عن أقسى حركاتها وأكثرها فتنة. نهود المتتابعات، المترابعات. بلى! فى ذلك الوخم المترام، وخم غويران، الذى لا يستقبل الصباح إلا بالنباح، كانت تشتد حركات الأعين والألسن والأطراف: الناس كلها تتسابق إلى الجسر! قبل أن يسده المدير، وحاشيته اللئيمة، حاشيته الجامعة المانعة. حيث الإشارة لا تغنى عن العبارة: ارجع يا كلب. ينهى الحارس الرجل العبس. آه! الحيرة التى كانت تركب الوجوه، قبل العبور وبعده صارت تخفيف الناس: الجسر بس للدولة! ونحن مثل الغنم نحور وندور. نريد العبور، والعبور ثبو. الخاثر يبس والحطب. نشف. الجلة صارت مثل التراب. والزل تقصف. والصوف صار أخف وزنا. والحنطة جافت. وأقدامنا الواجفة منذ أول الليل، صارت خشبا خشباً.

وكالعادة، من وقت إلى آخر، يسمع الصراخ: صراخ الخلط والملط. به، يمتزج صوت يقارب الهرج والثغاء: خدونى إلى القيران. خذونى إلى البيت. خذونى إلى الأقصى. خذونى إلى النمل. خذونى الأعمى يصيح وهو يمد أقراص المشبك البائت، وقطع السكاكر

المليئة بالخيبة والذباب. يصيح؟ لا، يغنى: خذونى إلى القيران خذونى إلى الحرام، إلى المقام، خذونى. وأكر وافر وابتعد واقترب وألامس اطراف الأعمى السيالة وأحس رائحة بوله الزنخ وأمس هدومه وبقاياه. آه! السكاكر المنثورة على الأرض تفتح النفس. والمدورات المرصوف بعضها فوق بعض، تلهب الشهية والانحطاط.

ذلك النهار، أيضا، كان على أن أمشى حتى الغياب. أن أمشى الخطوة تلو الخطوة منتظرا، عبثا، كما صرت أعرف الآن - حدوث ما لن يحدث، أبدا. ومع ذلك، وبرغمه حتى، لم أكن استطيع أن أقاوم. أن أقاوم الحاحا أسود صار يستبد بى. يستبد بى منذ زمان: إلحاح الشهوة الأسرة. شهوة الوجه الأصفر الناشف، والعيون الحور الكرارة الفرارة، والمشية الملغومة، مشية الحجلة النصرانية، بنت النصرانى: كان اسمها «آديل»؟ بلى «آديل» ألوك الاسم، وكأننى ألوك الجسم. آديل، الشيوعية الحمراء ذات النعوت الكثيرة والأوصاف التى تحصى وبغتة. ينفلت الصراخ: يا آديل، يا بنت الكلب. يا آديل!

بقوة، أضع يدى على الفوهة التى صارت، فجأة، مخيفة: أسدها. فوة الجسد الذى لم يعد يريد أن يعود القهقهرى. ولا أن يخمد. ولا أن يكر. ولا أن يفر. آه الوسواس الخناس ركب النفس يا ناس! صار يصيح ويصيح. وفى عنف التلاقى ينبثق من الحضيض صوت أعمى القيروان: اخطفونى. خذونى إلى الجنة. إلى القيروان، خذونى.. وسريعا يدعم اللجع بالفجع: هنا الحلو يا حلوين! مشبك

الجزيرة والفرات يا باشات. احسن مشبك فى الشرق وفى الغرب. ذوقونى. ذوقونى. ذق القيروان يا حيوان. وتروح الحسرات النارية تعلو فى الهواء الطلق، واللهاث يتلو اللهاث: يا ناس الرجل انجن، انجن الرجل ياناس! والرجل يتخبط فى الفضاء القاحل. يدور على شيئ لم يعد يلثاه. يحثه على الكرب والانتصاب، واللعاب بسيل تلو اللعاب. ويهون علىّ الأمر: تعال. تعال. خلهم يحكون. وتعال نذق طعم الحياة! طعم آديل السمراء المفتونة، ذات الإزقاق المهيب، بلى! آديل الغاوية التى تمر، فى السراب القصى، مع الريح. تمر طائرة مثل برق الصيف. ترفع، بدلال، أذيال شعرها الغزير. وتدفع بنهديها إلى أعلى وإلى وراء. آديل تحفظ، هى الأخرى، دروسها الثانوية، مثلنا. وهى مثلنا أيضا، تنادى فى المظاهرات، بصوتها الحاد الناسخ: يقسط. الاستعمار. يقسط كالعادة نقترب منها، كلنا، وكلنا، معها نصيح: يسقط. يسقط. لكن، رشام الناحل، وحده، يقترب منها أكثر. أكثر ما يمكن. ونصير نرى ارتفاع عظام صدره اللين. وعدم انتظام تنفسه الحادث. وزوغان عينيه الكليلين! آه! من اين يولد الشغف فى النفس؟ وكيف يصاب الانسان بالاسنان؟ وأى شىء يسيطر على حركة اللمرء ونشطه؟ ومن يبعث الرعب والارتباك فى أوصال الناس، عندما يرون إلى بعضهم بعضا؟

وفجأة، ينقلب الومض حمضا. وبشراسة يدهمنى ألم الشرشرف. وانخرط لما. ابحث عما يلمس وعما يلحس. ألحق العطر الآسن. عطر الإنثاءات الشرية الشائطة من الحر. العطر الممزوج قطرا ابحث عن أى شىء. وعن الأشياء كلها فى آن واحد.

اللعنة، أكاد أموت جوعا! وهذه الشعيبيات والحلاوة البرقاء اللينة مثل جلد الحنون والفطائر الدائخة من الإستواء واللحوم الحمر الزاهية التى غدت قرمطية من شدة الشى والأخبار والخضروات والفواكه والمعاجين الملونة والأمواه العديدة الأشكال، كلها قدامى! وكل ما تحويه دكاكين الحسكة ومحلات الجزيرة والفرات وأبواب الفنادق والخنادق والاستمارات، ولا شىء يؤكل!؟ لا شىء يشرب؟ لا شىء أسد به الرمق؟ لا شىء على الإطلاق! لا، لا شىء ابدا، سوى الصوت! صوت حزين ملتهب مذبوح. صوت الحرامى المجروح؟ وبقسوة يخبطنى «هواد»: اسمع يا خليل. وأصيخ السمع: «عمى يا بياع الورد، كلى الرد بيش؟ كلى «اصدق؟ لا أصدق؟ اركب الحسكة والانحاء/ اقفز الخابور؟ اسبح الجغجغ؟ اخرج العاللم كله؟ لا. ادخل الدور الملتوية المحشورة فى القاع حشرا. الدور الكليلة المعتمة التى لا تقبل الريح. وأحس البغض يأكلنى: هذه الدور اللعينة من سواها، من سطرها، وأرساها؟ وعلى، يقفز هواد: «ودان» رجع! سودان! وأظل صامتا. صامتا والاسم يتكرر بلا انقطاع. ومن جديد، يزعق «هواد» جاء سودام، وبسرعة البرق يصحح: جاء سودان.

ولا يدع الصوت الشجى مجالا للالتباس. سودان عاد. حقا، عاد. سودان ذو الوجه الأسود الكظيم. والشفاه المتكدسة كشرائح البذنجان. سودان ذو الهامة الكبيرة، والأقدام المغبرة. راعى الدواب ومغنى الشباب وأتصنت: الصوت ينبع الآن من أين؟ من البر

الغربى. من الحيطان الواطئة المثولة. من الطرقات المسائية التى أخذت تخلو باستمرار/. وكشبحين، نصير نخترق الأزقة والحجب. نلتوى مع الدور. نتبع الصوت حتى الفوت. وفجأة، يهلل سودان: يا هلا بالعجيان. وبلهفة العاشق، يبعد زمارته الخمرية اللون، المصنوعة من خشب الزان. يبعدها. يوقف العزف. يتملى العتمة. يسبح. وأجد نفسى محضونا: محضونا، حتى الضم! يد «فطوم» العرافة تتلقفنى من سد سودان . فطوم تحدق اللهفة فى القلب والعينين. يؤلمها الأصفرار القاحل الذى يتراءى، الان، بعد الآن، فى الجلد والاحشاء. وبتواطء آسر، تهمس العرافة السمراء، ذات الشفاه المنفوخة من الشبق والقيط، تهمس فى الدماغ: «غرنوكة» تدور عليك. غرنوكة؟! أشهق. اشهق. متى أزفر؟ أحس النفس يتوقف فى منتصف الطريق. النس الغريق: غرنوكة! غرنوكة ذات اللشافه الترابية، والفم الرحب الكبير، بشقوفه الممتدة شرقا وغربا! الفم الشهوانى الآسر والوجه الكاسر، مثل وجوه الخيل الجافلة، ليلا. غرنوكة، ذات النهدين اللينين القاسيين المرميين جنوبا وشمالا وعلى الأنحاء. لا . أكاد ألمس الطول القاسى. ألمس الثغر والبحر. أتحسس المشية الملتهبة. مشية التورط الثقيل. وأى شىء آخر يعن على البال؟ تسأل العرافة السوداء. تسأل وترمينى فى ارتخاء البدن واشتداده العرافة الأريبة تدنينى. تحضننى، وتسقينى: اشرب يا خليل. اشرب. الآن اجيب لك النبت. الآن، تعال تعال. اشرب. ومن خلل الظلام الذى غدا الآن دماس، ألمح الأزوال: حس الزمارة جلب الغائب والعاتب.

سـودان بلوز بعـينه. يحـوز الظـلمـة والنور. يعـرف فن المسـاء وخطوراته. يدرى أن غـرنوكة تسمع الصـوت، وتعـرف الماشـى عليـه. وعميقا، يتنهد سودانك آه يا عجى آه! وينفتح فمه المنتظم المسلوب عن اسنان صغـيرة متـآكلة. ينفتح وينغلق فى التـو. وفى التـو. تلج الباب غرنوكة: غزالة سمراء مذعورة! لماذا تركتنا بعد أن تجهزت؟! معك الحق! صرت تمشى الآن، فى المظاهرات. فى الشوارع المليئة ببنات المدارس، الكاشفات صدورهن باستمرار. نسيتنا يا خليل؟! واحس بحضن غـرنوكة اللين والمديد يمتلئ بى، يمتليئ بى. وامتلئ به، والعالم يخلو، بلى! غاب الحاضرون، فجأة، ويذوبون. كم مضى من الزمن والعنات؟ اين رحنا؟ شرقنا كثيرا وغربنا. سافرنا ليلا، ومع الشفق عدنا، غـرنوكـة تنود كـمـا الناقـة المنهكة، وأنا أترنح الجسد والروح.

آه! تلك المرارة السـافلة، التى كـانت تحـرق النفس، آنذاك، لكم أود حرقها الآن. وحده، هواد كان يتمتم متحسرا: تأخرنا، يا خليل. تأخـرنا عن أى شئ ياهواد؟ عن اللمسـة والخـرتيت؟ عن اللوحـة والقضبان؟ عن الليل الذ يغـدا الآن نهـارا، جهـازا؟ ولا يبـتئس. ولا يبتسم. هواد: اسشـمئزاز قـاتل بلوح صفـات وجهـة ولحـائه. هواد يدور فى الرقعة والغدير. يعرف الجيفة والخيفة. يريدنا أن نمشى التو. أن نغادو البعقة والانحناء. اعرف ما يشغل البال وما يشوش الحال. ولا أمشى. بحـر من الغـمـوض، يلفنى. يلقـينى البـحـر فى يقـينى: حب الصـبا قتـال. وأحس بقلبى يرتجف من القـشـعـريرة

الملاصقة للبرد. قشعريرة شيطانية. أخاذة. عيونى تمتلئ دمعا. شئ يشبه الشبق الكاسر يأكل أجوافى. أعضائى تمتلئ بتوتر خبيث يشبه أمثولة القتل والحكاك. أريد أن أصل البئر. أن أشرب الزمزم والربيع. أن اشترى وأن ابيع. أريد أن أصل الهاوية. أن أضع غرنوكة فى بطنى ومعها أروح. أروح، إلى أين؟ إلى اين تريد أن تأخذنى يا خليل؟ وفورا، أفهم اللغة والمناخ. وأهجم من عمق اليأس والتشنج عليها: تزوجت يا بنت الكلب وخليتينى، وحيدا؟ وأرى فيما أرى، من بين الضباب النازل، دموعها تهر، وأجزاءها الأخرى تتلاحق فى الهبوط: يا خليل، هذا فعله، فعل أبى. أبوك الكلب أبوك؟!

وأتذكر الليالى الفائتة فى الحوش، وأبريز ولا يكف هواد عن الأصرار: تأخرنا يا خليل، تأخرنا يا حمار. الشمس طلعت. الناس قامت. المظاهرة ستنطلق بعد قليل، يا خليل. وتحط كيانها فى تحط كيانها المتألم الموجوع، كله، فى كيانى وتذوب. غرنوكة كما العادة، تذوب. وأحس أهدابها تترامى على أسنة الأنبوب. تلامس القدر وتنوس الفكر. غرنوكة كانت فى حالتها القصوى من التلوى والاجتياح؟ ابعدى، يا غرنوكة. دعينى أروح. المظاهرة تكاد تمشى. هواد هوذا يمشى. غرنوكة انتهى الليل. غرنوكة لا تسمع غرنوكة تذوب ذوبا. تشيل ثوبا، وتشق ثوبا. شفاهها المفرطة السواد تكتظ مرارة واشتهاء. لا تعرف القلق والخوف؟ الخوف! لا تعرفه الشهوة. غرنوكة التى حسّبت أنها ضيعتنى، لقتنى كيف افرط عقدها، الآن؟

آه ها هى ذى تدخل العب والجب. تشدنى إلى وهدتها المترامية الحفاف: اذبحنى: يا خليل، ولكن خذنى معاك. خذنى وأقشعر قليلا. وقليلا انتظر الرهبة التى بدأت تحل: آخذك؟ أخذك إلى الساقية والرمان؟ إلى شجر الحور النهم العالى؟ إلى الخابوز المثبور؟ إلى أين آخذك إلى أين؟

ودون أن تجيب تصفع وجهها بيديها. تصفعة بقسوة واستياء. وتردد: قلت لك خذنى. قلت لك خذنى. وتبكى. لا أبكى. وأتملى الحرقة والانتهاك يملآن أركانها. غرنوكة الطفلة الهائلة الحجم تغدو بلا روع! أعوامها الستة عشر لا تبقى ولا تذر. غرنوكة ذات العينين السوداوين، والشفتين المبلوتين، والنهدين الباسقين، كزهر الحور، أتملاها، الآن، واحدة أخرى، آه! كيف تموت الرهبة، وتحيا الرغبة؟! كيف!

غرنوكة تنفجر، فجأة، كالبركان: أروح معاك. بلى! ويأتى الدق الذى غدا الآن مخيفا أكثر فأكثر. دق هواد المتوتر على الباب: تأخرنا تأخرنا. وكالملسوع احفز، هذه المرة، وأنا أردد: المظاهرة. المظاهرة. وتكتم بحدتها المعهودة انفاسى: لا. أن رحت هذه المرة فلن أراك. لن أراك بعد اليوم. لا . لن أتركك تروح وحدك. كانت تأكل أوصالى، وصلا، وصلا تأكلها بحرارة غريبة ألهبت كيانى، كله، دون أن تكف عن الترديد: خذنى.

آه، البر. المظاهرة. النهر. الناس. العالم الاضطراب العام. الاضطراب الخاص. تألم هواد. صمت سودان. آذان العرافة

الساكتة تنتظر الأمر. لا شىء يتقدم. لا شىء يتأخر. المجال مضطرب ومغشوش. وحدها عيونها المضمومة على، تلمنى لما. تملأنى بالوصد والحنان. لا. لم تكن ترى، كانت تتخيل عالما لم تحلم به من قبل: عالم الطلبة والمظاهرات. عالم الانحراف المعلن عن الصراط المستقيم. عالم المدينة الصغيرة الضائعة فى أقاصى البر. المدينة المتربعة على نهرين مهملين. وعالم الأنفاس الملتهبة من التوتر والحماس. العالم كله يغلى! غرنوكة هى الأخرى، لها الحق فى الغليان. بلى! بلى! بانفعال شديد. بسرعة قصوى. تأسست تلك الفكرة فى ذهنى. ربما كانت تتأسس منذ أول الليل. من يدرى كيف تولد الأفكار؟ وكيف تتهيأ الأمور للعبور.

من؟ لا أحد. حتى، ولا أحد، الأحمق الشموص، المتملص من التورط والإنحياز، وسريعا، صارت لتلك الفكرة قوة مادية ضاغطة: غرنوكة فى المظاهرة. بين الطلاب. تمشى معنا. مثلنا تهدر وتصيح. تبعث بجدائلها فى الريح تشتم العالم والناس. أحميها وتحمينى. يتأملها هواد. أتأمل هواد. يتأملنى الآخرون. أتأمل المحيط بيقظة وانتباه. بتباه. يتحد عارم مسموم. أريد أن أخرب الكون. أن أقلب عاليه سافله. سافله الأسفل. أريد أن برق العيون. واهتزاز الذقون المستكينة. ذوق الحمالين وبياعى الجلة والماء. والزلم المتربعين على التراب من أول الفجر إلى آخر الليل. الخيل ولد الخيل.

تعالى غرنوكة تعالى: من يسأل عن هوية الناس، فى المظاهرة والحماس؟ كانت غرنوكة تدنينى وتمتم: حقا، من يسأل الميت عند

الموت من أين أتيت. وصارت لم حالها كالبرق المبتعد فى الريح تلف. خصرها النحيل بمحزمها الصوفى الملون. تدك رجلها العارية فى حذائها البلاستيكى القديم. تغدو مثل الكتلة القابلة للانبثاق ولا تساق. وصرت ألم حولها التمرد والاضطراب. بلى! السم القاتل سم التهور والانتهاك، صرت أراه يسرى، اللون بعد اللون، فى الأنحاء.

ودفعة، تغير كل شىء: الأصوات الهادرة صارت ترج العالم رجا. ما كان لى أن أقول شيئا. لا، ما كان لى أن أقول أى شىء. كنت أراقب الحركة والصمت. الحركة المتلاحقة مثل الخضم. والصمت المتكلم بامتياز.

سورية، كلها، تخرج، الان. العالم كله يتفرج علينا، اليوم. الدنيا كلها مرعوبة، أصوات. أصوات تهز العالم. تشد القلب. تثير القئ. تجعل المرء كتلة من العنفوان. أرى، بارتباك، هيئتها الطويلة المتحفزة، وألوانها النازة الفاقعة. أرى آثار الاحمرار والوهج تملأ حناياها، وحفافها، أتخيلها مثل السفينة التائهة: تريد العبور إلى ضفة لم تكن قط، موجودة. يا غرنوكة يا سفينة الضلال، ألا تعرفين الكلال؟ لا. كانت تبرق برقا. وكالحيوان الذى يأنف الترويض كانت ترتعد، وتهتز.

فجأة، انحنت على الأرض،. التقطت حجرا أسود، من الصوانك حجرا سرى الشكل والتكوين، ذا اضلاع غريبة، وزوايا لا التعد. التقطت الحجر القاسى واشارت إلى به ١، ٢، ٣.

ماذا كانت تريد أن تقول؟ كنت ألمح، بالقرب وبالبعد، معا، أطراف الحجر الحادة، مثل النصول، تلمع فى الضياء. وكما أظهرته، لم تلبث أن خبأت اشداقه وزواياه. خبأت كل شىء، وتوسطتنا. صارت منا وفينا. سلاما، غرنومة، سلاما. أنا من هنا. هواد من هناك. وباللصق تمتمة وتمام. وبالقرب منا: كعود وخالد، والبرخى وبرجس وفلك وسركون. وحولهمك أسود الخشاب، ورشاد السائق وحول الحول الآخرون: آه! من أين كانت تنبع تلك الجموع التى لا تكيف عن التكاثر والإزدياد؟! الشوارع تمتلئ المقاهى تخلو. الأركان تتعقد، وتتشعب. العالم لا يتعب؟

وتبقى غرنوكة فى حالتها المستطيلة الحفارة. تريد أن تطير، وأن تصير. أن تجرب وأن تخرب تريد أن تشرب الجمع، كله. أن تتمثله وترضاه. وكأنها كانت مفصولة عنا بمسافات لا متناهية، أحسست منذ أن لا مستتى بالإطمئنان وقالت: أريد أن أهتف معكم. أن أردد ماترددون. علمنى علمنى الهتافة يا خليل. كانت تشق. وترتجف وتصوت! ورأيتها تتناول الكدر والماء الصلد. ماذا كانت تتناول؟ كان جسدها الناحل، الذى يكاد يهر، يقترب منى اللحظة بعد الأخرى. يرمينى بوجوده المشدوه. يريد أن يدنينى. أحميه ويحمينى. وأحسست برغبة لا تقاوم فى انتهاك الأمر. فى المرور مثل المدير العابس، ولكن ضاحكا، من الميسرة إلى الميمنة. ومن هذه إلى تلك متفقدا الحشد والنبات، زراعاً الفزع فى القسمات! آه وجود غرنوكة، وحده أثار هذه المشاكل، كلها! أكاد أنسى عباس. أنسى

الأشياء الأخرى. أنسى حالى. أى شىء قابل للنسيان إذن! من يدرى متى ننسى؟

بزهو، أتملاها، من جديد.. وكأننى أراها للمرة الأولى، رأيت اللمعة والاهتمام: بنت السنوات العجاف التى مرت كالبروق. بنت الرجل الطويل الكامد، ذى الحزام الجلدى العريض، والأسوار الفضية الكاملة، والسيكارة المحروقة باستمرار: غرنوكة بنت هذا كله تقف لصقى اليوم. تقف وتصيح بالعربى الفصيح: يسقط الاستعمار، يسفط. يسقط. غرنوكة أول الملامسة وآخرها، هزتنى. بعنف هزتنى: اهتف يا خليل الا تسمعهم ف يحسى ولا تلقط شيئا. ومن جديد تشدنى، تشدنى شدا: اهتف يا خليل يا خليل اهتف.

وفجأة فى ازهائنا تتبدل الارتكاسات: الهواء الحاد يتوقف عن الهبوب. العكر المستمر يصفو. العجاج اليومى الناعم يتبخر فجأة من الطلق. لكأن يدا سحرية غير اللحظة والاهتمام! المقام يصفو بعد المقام. وحدها. الحركة الهادئة العميقة. حركة المشى المستمر، تستمر وجمعا بعد جمع، يتجمع الناس حولنا ويتفرجون. المدينة كلها هنا! لا، على جانب النهر البعيد، هناك، أرى أحمد واسمعه: أحمد السقا الذى اضطر إلى ترك المدرسة وإلى ركوب الطنابير. طنبور الأعور. طنبور النصرانى الأحمر. طنبور بياع الفول. وأخيرا، طنبور ابن جليوى طنبور ابن الكلب. بلى! اسمعه يردد فى البعيد. يردد وهو يدفع بالحصان العنيد إلى قعر الماء: ربعى هجموا وأنا فى الوحل غاطس؟

الحصان يغوص، عميقا، فى الماء الذى يتابع المسير إلى الفرات. وأحمد يغفص لاحقا بالجمع. أحمد السقا يريد بالحصان العتى شرا. يجعله يغوص فى الخابور، حتى الأبط. وتركت القشعريرة الحصان. ويصير يطرق بقوائمه الطويلة الماء وأحمد. وتدم الماء أحمد. وأمد يدى بعيدا. أسحب أحمد من الغرق. أريده أن يعلو الماء. أحمد يشخذ النفس والألتفات. يصيح: اطلعونى يا ناس! ابعدوا الحصان عنى. اخرجوا الماءمنى. ولكن لا أحد فى الحال. وحدى، أرى النفس المائل إلى الموت. وحدى أرى الجلد الأسود الدهين يلين: جلد أحمد السقا ابن الجلال يذوب قطرا. المظاهرة لا ترى! الجموع الملتمة عمياء! عمياء!

ومع ذلك، يراه الرائى، ويبدأ الصياح. ويملأ صياح الرجل الأهتم الجو: رد الحصان يا ابن (...). الطنبور امتلأ ماء الحصان مات. يا أهل الحصان: ولا يستسلم أحمد. أحمد يسوق الماء بالماء يهز الجذع والاحتقانات! يمر من الشجر إلى الشجر. يتلوى بين العيدان والأغصان كالأفعى المطرود. ومن جبال النهر إلى الجزيرة يسوق الحركة والارتكاس. يتسكر حينا، وحينا يتصبب. آه النهر العريض يضيق. المدى الهائج يخفت. الجزيرة صارت قريبة! الخابور انتهى الماء ولى. الغرق صار ذكرى. صار يومئ من بعيد: لايفك الحديد إلا الحديد. أغنيته القديمة التى سوتنا ليلا بعد ليل.

من طرف الجزيرة الآخر يطلع الرجل الأهتم. يطلع النهار والضحى والابتهاج. وجهه مهشم ومكشوم، أغطيته الهزيلة تتلوى

مثل الأوراق الخفيفة فى العراء. يلحق باحمد صائحا. وأحمد ينحدر راكضا كالبرق. اللعنة إلى أين يفزع الرجل المطرود. وهيئته منقوطة بالدم، علام؟ يتهامس الناس بعد الناس. يتحجبون. وكالجراد يلحقون أحمد السقا، ركضا، بعد ركض: ارجع تعال. ابن جليوى يدور عليك. الحصان ظل وأنت رجعت! تعال يا عجى تعال: زلم ابن جليوى يلحقون الراكض بعيدا. الراكض يدخل الحشد والإلتحام يلج العالم المختلط مثل حشائش: الغابات: لا أحداً يعرف أحد. أحمد صار بيننا الان: خليل. هواد. كعود. عبدو. حسين اين. كنت هذا الدهر، كله، يا عرصات؟ المية بللتنى. وعيونى اهتزت وأنا انتظركم. الخابور وحده لا يكفينى. ما عدت أريد الحياة بالمية. خلونى أموت على التراب. خلونى ومن صوت أحمد لا نسمع إلا حركة الفم. صوته يضيع، رأسا، بين الأصوات المنهكة المتعجلة المتوترة المرسلة إلى آخر الكون: يسقط الاستعمار. يسقط.

الدنيا، كلها، تموج. موج يعلو موجا. الماء الأشجار الجبال النهر الأفراس الأعراس. الأشياء كلها تلتقى هنا والآن. أنا وحدى أتراجف فى الريح. اصرخ. لا يسمع سرى وصراخى أحد: غرنوكة اختفت يا ناس! الناس تلقى الضوء وتفوت. من يفزع لنجدتى؟ ابحث فى المكان عن الخلان. لا! لا أحد غير تلك الجموع المتراكمة، كالصراصير الهاربة من النفس الحار. وبلا تمهل، ينقلنى السيل الجارف بعيدا بعيدا! إلى أبعد الأمكنة والأنحاء. يفرنى أشلاء. ومن عمق الضجة والخبيط، اسمع الصوت المتماوت، يصل خيطا بعد

خيط: يا يما قتلنى. يايما قتلنى، ورأسا، يضيع صوتها الفردْ فى الصوت. ويختلط أنينها بروائح الأجنة والآهات. وأكاد أحسنى فى الخوف: أنا الآخر أموت؟ ما كان عندى سوى الصوت: غرنوكة ماتت! ماتت!

كانت حركة الأيادى المتعضة، والأقدام الهائجة ترج الكون: لماذا لايرسلوننا إلى خط النار! لماذا لا يبعثون بنا إلى القتال؟ نريد أن نحارب. ومن عمق الجمع المائج، ينبثق الصراخ: على الجبهة يا شباب. التسجيل عند الكوا والعجيل. وكما لم يكن متوقعا، ابدا، يصير الغناء حادا وجموعيا. غناء لم تعد تحمله الألسن والشفاه، فحسب، بل كان ينتقل مع الأيدى والأقدام والأكوام البشرية المتلاحقة كالسيول: هديرا. هدير، مثل الرجيج العميق. صوت لا يمكن لا فهمه ولا تحديده. صوت واحد ذو ابعاد كثيرة. صوت يبعث الرغبة فى الانتهاك. صوت رهيب مصمم يتردد: يا فلسطين جينا لك. جينا جينا لك، جينا لك. لنشيل أحمالك. جينا لك.

فى ذلك الصخب الصاخب أخذت غرنوكة على حين غرة. أصابتها ضربة قاسية صماء ضربة الموت من أخيها الحوت. ودفعة، أخذت الأرض بطولها، كله. تمددت، وكأنها لم تقف أبدا، على رجليها. حسبتها رقصت، حسبتها ارتمت عمدا، حسبتها انهارت. أردت أن آلامس الخشب والتفاح أن أقيل العثرة التى لم تعد قابلة للتغيير؟ ولكن لا. ولكن بلى.. كان الجمع يتابع الوجف والزحف والهدير: واحنا رجالك ياعربية. واحد منا يعادل مية.

**المأساة الدائمة هى الاستمرار فى تحمل خطأ وقع عرضا فى الحياة الأولى.**

أمام السراى البيضاء الشامخة، تبدأ أوائل الواصلين بالتوقف. يصير المشى الحثيث مهلا: الناس تتكدس باستمرار. الحركة تأخذ طابعا آخر: طابع الإنصات والاحتشام. الهدير يغدو تمتمة ونعيرا. التوتر الهائل يستحيل إلى زمجرة معلنة وملجومة كلل العالم ككل وملل. الناس كلها تنتظر المحافظ.

التأهب لسماع صوته، والاصغاء إليه، يشل طاقة النقد :نوع من الاستلاب الجموعى، العميق والمعمم، كان يسيطر على المكان. عيونى، وحدها، كانت تسبر تلك الكتلة التى سكنت توا تبحث عنها.

آه! كيف اختفى الجسد السبحانى الذى كان واقفا فى الحضور؟ وذلك الغم الشاغر الذى كان فاتحا للريح. اين توارى؟!

ولكن، لا. لا شىء فى المكان. الصياح وحده كان يملأ الفضاء الذى ارتبك، هو الآخر . كدت فى الريح صيح غر.. لكن اليد التى لمتنى جعلتنى استعيد رباطة اليأس. اصمت من جديد. أتلهى عن الموت، الذى رأيته بعينى، بالحياة التى ترج الطريق. شىء غريب كالريح الخفيفة، شل طاقتى على الحركة والقول. خلل أسود كان يشغل القلب والبال: غرنوكة. عباس. اليدان السودان الهائبتان باستمرار. من يميز الحق من الباطل؟! حرارة حمراء كانت تملأ أركانى: أريد أن أرى كل شىء. كل شئ. أهدأ. أهدأ قليلا يا مجنون. كانت تردد اليد التى شلتنى. كانت تردد: ها هم الآن

يصعدون. انظر. درج السراى امتلأ بالأشباح والصاعدين. والخطبة صاروا على الشرفة. ألا تراهم يصرخون؟!

وبقوة انفلت منه: اتركنى، أريد أن أرى غرنوكة. وبقوة يعيدنى إليهكتعال. اخوها لازال فى الحضور وبهمجية أصرخ فى أذن هواد: لكنها ماتت. ابن الكلب طعنها. رأيت دمعها بعنى. رأيته يسيل. رأيته. وفجأة، ينبثق الصوت صوت هادر لايلوى على أحد ولا على شىء. صوت كبير متناثر، يملأ الساحة الصغيرة الجميلة. المحاطة بالمصابيح البيض العالية. الساحة التى سنتحسر فيها، فيما بعد. سنتحسر متسائلين : ماذا فعل عبد الناصر؟ بلى! الصوت القوى الهادر يملأ الساحة الصغيرة ويفيض: بدنا الوحدة يا جمال بدنا الوحدة يا اسمر. وتضج الدنيا، كلها . تردد الهتاف نفسه وتفيض. واحسنى صغيرا مهملا وبلا عون. لم يكن موت غرنوكة يعنى شيئا كبيرا، ذاك الآن؟! من يبحث عنها؟ من يدرى، اين اختفت البنت التى رأيت دمها يفيض على القاع؟ أتكون هى الأخرى تهتف فى أعماقها المليئة بالدم: بدنا الوحدة يا اسمر. يا اسمر بدنا الوحدة! تهتف وهى تغوص فى الغصص والموت؟!

اهتف بدلا عنها. ارسل صوتى صوتين. اتعدد مثل هذه الكائنات التى ركبها الجن. أصير صياحا، مداحا. آه أكاد انساها! شىء غريب كان يملأ الناحية والأركان: هذا الحشد المرتبك المتسلط المتعنت التهام صار يثير اضطرابى وحيرتى. الجيرة لا تطول. تزول الجيرّة. فوراءك موج من البشر يلاحق موجا. والهمس يصير

ضجا: الشيوعيون هجموا يا شباب. البعثيون هجموا. القوميون. القلاقل والهلاهيل. الصياح والضجة والتعنت.. آه! الحركة المستمرة المتضاربة لا تكف عن التهور والجموح. والروائح تفوح: رائحة خرا النصرانى الذى ضربوه بالسبول على بطنه. رائحة دم الديرى الذى انفج فى الرأس. رائحة الآباط الكثيفة الشعر. رائحة خيول الدرك والمخاتير. رائحة المجارى والقوارير. كيف تتتابع الروائح؟ ومن اين تتبع؟ وإلى أى مكان تروح؟

وأروح فى اللجة الهائلة، وأروح، أتلمس آثار أقدامها، ولا أجد أحدا. وأرى على القاع خيوط الدم المنسحبة حتى الفناء، خطوط من دم طازج لازال يجرى! دم الشيوعيين؟ دم البعثيين؟ دم الأقوام الأخرى، التى ولت الأدبار. الحق الأثر، حتى العثر؟ لا. الخوف النابع لا يكف عن التراكم والإرتداد. خوف من المجهول والمعلوم. خوف من الحركة والإلتباس. ظهرى لم يعد محميا. هواد ضاع. كعود اختفى. أحمد السقا اين هو الآن؟ والأخرون؟! لا، لم أكن أرى حولى سوى الضياع. الحابل يختلط بالنابل ... الناس كلهم يصيرا كتلة من نار. وفجأة، ابدأ الكر راكضا حتى الماء اغسل وجهى. أزيل آثار الدم اللاصق بالجبهة والأحشاء، وأعود. وفى الوجه أرى العالمين: عالم الشرفة المهيب والمحروس. وعالم الحضيض الهائج والمهروس. آه! كان الماء لا يزال ينهط من جدائلى واليد التى شلتنى لا تكف عن هزى ودزى: انج بنفسك، أخو غرنوكة يدور عليك. آخو غرنوكة يدور عليك.

[ ٦ ]

بين الجذوع الطويلة، المستقيمة حتى السماء، اوقفتنا فوهات البنادق: قف. قف! من أين انبثق العسكر فى الحوار؟ وأهم أن أنط من فوق الرؤوس.أن أدوس. كانت الجملة اللئيمة: أخو غرنوكة يدور عليك، تذوب، مثل الملح القليل، فى عكر الخابور الفائض ولكن. لا. أتسلح بالرغبة القاتلة،إذن، وألج العالم المظلم، فى المحشوش!؟ لكن بنادق العسكر وحرابهم تمنح الموت وتمنع الفوت: قف. قف.

خلفى، توقف هواد، توا. توقف ولعابه يتسايل، مثل لعاب البعير،على شدقية: قتلوه أيضا! كدت أنط من الدهشة: قتلوا من يا غبى!؟ تساءلت بصمت وبلا صوت، فى مواجهة الموت. هواد لم يجبنى. هواد لم يتكلم أصلا. الاكتظاظ يلد الامتعاض. حركة غريبة ومريبة كانت تركب الناس.ومن جديد أتطلع إلى هواد الذى ظل لاصقابى ساكنا وكتوما.

وألمح أشعة عينيه تهرب من السكون إلى أعلى الكون. إلى الشجرة الهرمة المسكونة. شجرة الناعورة المهترئة: ناعورة ابن جليوى. ناعورة ابن الكلب.

وأعود إلى نفسى، قرفاً: لماذا كنا نركض كالكلاب المطرودة، ومنذ متى؟! منذ البارحة؟ منذ الفجر؟ منذ أول الليل؟ وهؤلاء العساكر المتورطون فى اللهفة والإكراه من أين ارتسموا كالأشجار بين هذه الأحجار؟

ملأت العبرة رأسى: أريد أن أبكى. كان خيط النار، لا خيط الماء الأحمر الماشى جنوباً، يفضح اللحظة والإنذار. والصمت المحلق فى الأجواء يدثر النوء بالخوف والعاصفة. شق طويل، كان يرتسم ، يرتسم بين اللجة والجمع. وموكب مهيب يتوصل الدقة والمكان. الموكب المتواصل يعبر الفضاء. هواد يتوسم الصرخة: الآن. الآن. هواد يهذى: آه، يا خليل، ليتنا لم نجئ إلى هناك. قلبى ينفرك من الجوع. من الخوف. من الرهبة والالتهاب. ومن أى شئ آخر! وأتساءل من جديد: من هو الذى انذبح اليوم؟ لا أحد يرد. شىء، أحد يمكن له أن يزيل اللغط والاضطراب، انه الماء. أزت نفسى . افر. اكر. العب الموت والصوت. أصيح فى السكتة والخوف: يسقط الوار والغراف. قتلوه الكلاب! قتل نفسه! مات! من يعلمنى الآن عن الحان؟ من يسقى ظمئى العطشان!

وحدها. امرأة الحور العتيدة، كانت تهذى: العسكرى ضرب الولد الأحمر بالرصاص أو بالداهوق. أو بالعصا الخيزران: لم أعد

أدرى. بس الولد انضرب. الولد النصرانى انذبح. ذبحوه ولد الكلب. آه يا خبتى آه! الولد مر من هنا مثل الطير الطاير. الهجانة تركض وراه ورا الهجانة يركض الدرك. ووراهم تركض الناس. لا،، ماحدا شاف غيرى. شفت الراكض والماشى، الضارب والمضروب. إى! كلهم تجمعوا على العجى الأحمر! وانسد الكون بوجهه. الشجر والبشر والحجر وراه. وما قدامه الا الخابور. والعابور يتلو العابور. والناعورة الحزينة تجهر بالماء، وتجعر! وفجأة تصير ترتل: لا، ما شفت شيئا. ما شفت حيا. .نتدانى حولها ونتوانى: آه يا امرأة الحرس والغرس. احكى لنا كمان الوجه الملئ بالنمش والاصطهاج. احكى لنا عنه. اين فات فيه العرق؟ كيف اخترق بطنه الغصن؟ وبأى لون لوَّن دمه الماء؟ وتصرخ المرأة النكور، تصرخ وتتحار: اسمه جفرجيس؟ جفرجيس! يقولون زت نفسه فى الماء هام على وجهه. انتحر الغصن اليابس المكسور خش من البطن وطلع من الظهر، مثل الحرية المسنونة. يا حزن امه عليه. يا حزنها.

كدت أصرخ من الجمع: يا ناس! لكن اللجم المخيف أحاط بالفوهة والقضبان. الخيط الأحمر لازال يسرى مع الريح ملوثاً وجه الخابور الصامت. وجه الخابور الشامت. كيفاركيس، الولد الأشقر، ذو الوجه الملطخ بالنمش والاكتساء، سيد المكتبة المستطيلة، التى التهمنا انحاءها الخبيئة منذ السنوات الأولى، يموت؟ هو الآخر، قابل للرجة والفناء؟ ولكن لماذا صمتت الحارسة البلهاء؟ أتراها رأت الجند والاحلاف؟ أم تراها بدأت رحلة التشوش والاصغاء؟ أحقا رأته يموت !؟ رأت زلاته ونرابه وبطنه المثقوبة

وظهرة اللامع مع ورأسة الجامع التربة والماء!؟ زأت ذلك، رأت ذلك، كله، ولم تصرخ تنتخى لم تنادى: العدى يا ربع العادى.

اصرخ وحرابهم فوق مثل التنانير؟! ابنى النائم تحت كوم الجلة يموت. رجلى الغائب لا يعود نسيت. عباس يا خليل؟ نسيت اللمعة واليأس. نسيت الخبز الواجف فى الحلق مثل المسامير؟! الولد النصرانى انضرب انزت فى اللجة العميقة والريح. وكسرة الخشب من حطها فى بطنه ياولى؟ يصرخ الدركى، ولا أحد يجيب. المرأة خرساء. يتبهور الدركى. ويؤكد: المرأة خرساء، يا سيدى. خرساء مثل الحيط. خلها تنقلع: يأمر الرقيب. ابعد هذه الدميمة. تريد أن تشهد؟! رأيته بعينى تردد المرأة حالما يبتعدون ورأيت الولد الأحمر الجميل، يهجم. يهجم ويحجمون. تعجبت أردت أن أهلهل. أن أرسل الحس والصوت. أن أحثه: عليهم، أخو الشقحة عليهم. لكن الحربة اللامعة التى اندست فى ظهرى سوتنى خرساء. واختفى صوتى مذ ذلك الحين.

وتسكت. ونسكت. وفجأة تقول: كانوا برأسة فى الماء، بلى! رأيتهم بعينى! الوحل والعشب والتراب والحشائش والقش والخوص والزل والأغصان، كلها، تجمعت فى فمه وعينيه. الولد الأشقر ينظرنى. يغمزنى. يشهد الله على انه ظل يغمزنى ويرسم لى صوركم واسماءكم حتى راح. حتى مات. ماع كبده ومات.

كدت أهوى على الأرض. الماء السائل صار يثير حنقى واضطرابى. هذه المرأة المهبولة المجبولة الزبل والخراء، وحدها،

رأت فعل القتل؟ الناس كلهم عميان. لا أحد مر فى المحشوش الحطابون وصيادو الجرذ والجرابيع ونقالو الحور والأعشاب وحراثو الأرض والسمادون والسعادة ألم يكونوا كلهم هناك؟ لا. لا أحد رأى موت كيفار كيس. الشجرة قتلته. قتله غصن قديم: غصن شذر لوحط عليه الطلى لانكسر! وهؤلاء الرجال الحمقى المملوءون بالتوتر والبغض والنفيط، ألم يمد أحد منهم يدا اليه؟ لا ! لا، لن نسكت أبدا، لن نسكت: هكذا قررنا وهذا ما سيحدث الآن. فى التو والمكان.

كانت انفاسنا المتقطعة لا تزال تتابع اضطرابها العنيف. كنا نركض منذ الفجر؟ منذ البارحة ليلا؟ منذ افتراق المظاهرة والمتظاهرين ؟ من يستطيع أن يؤكد الآن؟ الأعين الصغيرة لم تعد ترى الريح. والأيدى التى كانت تحمل اشياء كثيرة، رمتها. والأجسام الناحلة صارت تتكسر جسما بعد جسم. القسم امتلأ بالموقوفين. المكان لم يعد يتسع للدرك والشرطة ومن جاؤوا بهم من أنحاء الأرض القصية والدنية. الأشرار والأبرار. العبيد والأحرار. زلم ابن جليوى. زلم ابن الكلب لم يدعوا أحدًا من شرهم: أخبروا الدولة عن كل شىء عن المجرم والسائل والقاتل. ادفعوا بهم جميعًا إلى السجن.

ابعدوا هؤلاء الكلاب الذين حلو الأرض دون حق او اشفاق! كان يردد ابن جليوى. يردد امره الئيم هذا، وهو يضيف، من آن لآخر: ابعدوا الجراد عن الماء والقاع. ابعدوا الشحاذين والبواقين

والحرامية والمعولين والمغشوشين والنهوبين. ابعدوا هؤلاء البشر الأغبياء، عن وجهى وعينى. وكالبغال الهائجة كانت جموع العساكر تركض خلفنا. تركض ونركض: إلى إين نروح؟ إلى أى بقعة فى الأرض نأوى/ إلى جحيم يقودنا الارهاق والأخفاق!؟ الناس انتهت إلى العدم والصمت! شئ هائل هو ذاك الشىء ؟! أى خليط عجيب هو هذا الخليط الذى يتراكم ولا يتبدد. يتعدد ويتجدد، من يحمينى بعد الآن، من الهوس والاضطراب؟ من يعيد توازنى المفقود إلى؟! الخلخلة التى انبنت اليوم، ستدوم طويلا؟ الدهر، كله؟ العمر، كله؟

فجأة يجرنى هواد: وانظر. وانظر: السيارة البغيضة تسوق البشر من الشرق إلى الغرب. تلمهم واحدا واحدا. تتبعهم بتصميم. ونكاد نقع على القاع. الخوف انحل فى عروقنا إلى سراب! يكاد يدفع بنا القهر إلى الجنون. ماذا فعلنا غير الهر ب والارتكاس؟ والرجف، برقا: لم تهتز الأرض، هكذا؟ لم تهتز الأرض يا هواد انادى الأرض؟ ولا أكمل الكلام: شئ محبط ومريع تملك منى الروح! أنا الآخر أموت؟ وفى مد البصر، أرى الرجال الهاربين يتوقفون قوة. يكشفون عن اجسادهم التى غدت تلمح فى وضح النهار. وفجأة. بالاتجاه المعاكس الركض: الهمجية غنيمة على الثكنة يا شباب. على الثكنة. آه! الساخطون يتجمعون من جديد العزم من حديد: كان ملك الميت باستمرار. لكننى أموت. أنا متأكد من موتى الآن. بلى. رأيتنى أموت. هواد هو الآخر، يسقط ميتا أشياء أخرى، كثيرة، تحدث وتصير. وكأن حلما جديدا ركبنى من جديد، كنت، صرت، أرانا نتماسك الأيدى ونغوص: نغوص فى

اللجة العاتمة. فى عمق الحور. فى وحل اطراف الخابور المصدوعة. فى أى شئ آخر يرى الموت. لا لن نتوقف قبل أن نصل الباب. باب المكتبة المستطيلة: "مكتبة الحرية مكتبة كيفاركيس".

المكتبة مغلقة الجدران والأبواب! العالم حولها فارغ. الشارع مقفر مثل الجماد! لا حجر. لا شجر. لا بشر. ولا أعلام! والأغصان؟ اغصان الحور التى نقلناها له البارحة، من نهبهااليوم؟ وإلى أى كون وداها؟ اللعنة! كنا نتوقع أن نرى الجموع الهائجة تملأ الآفاق: جموع تتوخى القوة وتكره الانصياع. كميات من الحنق والثورة والهديد. ولكن لا! لا أحد. ولا مدى. ولا صوت. خلاء. خلاء. لا أحد سوى الريح، تصيح: يا مليح. الريح؟ لا، لم تكن تلك الأصوات الهادرة، كلها، ريحا صمت عراف، وحركة مكتومة يتحايثان فى المكان: شئ يبعث على القلق والغثيان كان يمر من فوق الرؤوس: كنا نملأ اكتافنا أحزمة واحجارا. نتسوى امطارا وانهارا. مثل الأفاعى المطرودة نتلملم من لمس إلى لمس. نريد الفورة لا الهمس.

وأتلفت طردا بعد طرد. ابحث عن اللمة والفرد. عما كان كنا نبحث التو ياهواد؟ عن الماء الأحمر والتابوت؟ عن السكبة الشهية المنبثقة من أكتاف آديل؟ عن الدكاكين؟ عن أحياء الخابور المنتشرة فى الضفاف؟ لا. نمضى سراعا. نمشى تباعا. احدنا يتلو الآخر كالمقهور. ندور فى الأرض. وندور ألم غامق وسحيق يشل أحشاءنا

وحنايانا. تلف غير متوقع حل فينا. نوع من الموت والأهتراء العاجل. ضرب من الوسخ الأسود، المرئى من بعيد، كان يلف المحيط!

فجأة نتوقف: انظر. انظر. نتبادل التوجيه والتهمة والانفعال. انظر الناس. الناس؟! يردد احدنا للآخر. بسرعة البرق نقف مقابل مقهى "البلور" الجديد: وجود من حديد! ناس مرمية بعضها فوق بعض. أكوام من الورق والجزرات. ألبسة شديدة اللمعة والتمييز. بشر فوق بشر. ماذا يفعلون؟ يلعبون الورق والقمار! العقل يحار. كيف يتوزع الحزن والألم على العالمين؟ ومن يحط اللمعة والاشتعال فى القلب؟ وهؤلاء البلداء المرتمون كالأنعام فوق الحصير كيف يتوجعون؟ فوق الحصير كيف يتوجعون؟ هواد يجرنى بانفعال تعال. تعال نبتعد عن هؤلاء البشر الخانعين. تعال قبل فوات الأوان. لمن مقهى البلور الضاحك يمسك بى. لا يتخلى عنى. مقهى الغواية والدخان. المقهى الملون الذى يتوسط المدينة ويحييها. فيه، يلتقى الناس الكبار. والذين سيصيرون كبارا. وعلى طاولاته الرخامية يأكلون الكباب المرتب بعناية وتزويق. وفيه، يشربون الماء الملون والكحول. وعلى جوانبه الساطعة تجر الأمهات بناتهن العذراوات جراً مليئاً بالدعوة والإغراء. بنات طوال سمر البشرة، تعلو الثياب ارادفهن المثيرة. ومن اطراف عيونهن الشديدة التكحيل يطل الشبق والشوق.ومن جديد، يسحبنى هواد: تعال. تعال. ولا أجئ. كنت ابحث عبر ألواح الزجاج فى هيئات العالم وسماتهم. اقرر ولا أقرر. كاد هواد أن ينفجر وهو يردد فى وجهى: تعال. لا أجئ. كان صوت

الغناء السرى، يخترق الأفق، والنوافذ الكتيمة. يصب فى عينى. الصوت: يحرضنى على الموت! صوت المغنى الحزين، ذى الرزانة الخائفة، والقلب الملسوع: الضائع يسوع. بلا جدوى، كرر هواد أمره القديم: تعال. تعال.!

الحجر الصوان يتململ فى يدى اليمنى. رغبة هائجة تملأ جوانحى الصغيرة. كنت أفكر: ان كسرت زجاجَ المقهى، اكسر اجنحة العالم كلها، افتح ثقبة فى كتامة القلوب البليدة. اكسر الستر الحديدى الذى يزهق الجائع، ويرهق الخانع، آه ! الحجر الصوان، الحربى الطلاقة والأطراف، حجر غرنوكة، ينطلق بالرغم منى ! وأتبع الحفر الذى يصنعه مروره العاتى فى الزجاج وفى الرؤوس الحسيرة. العجب، العجب: الحجر الصوان ينعرج وينفرج يمر من الواحد إلى الآخر. يجرح هذا ويفج ذاك. الدماء الحارة تتمازج. تختلط بصفاقة على الزجاج النظيف. شئ مخيف! الحجر الصوان. أخيرا، يصل المذياع. يدخل من شباكة إلى الجوف. يفج المغنى البليد الذى لا يكف عن تقول القصيد. وأصير اسمع فى العمق عويله المستغيث: يايما قتلونى. يايما قتلونى.

سكان المقهى الزجاجى يخرجون خلفنا نباح: اقتلوهم. امسكوهم. امسكوهم. امسكوا أولاد الحرامية. أولاد سراقى الجزر والباذنجان. ومن بعيد يلمحنى اللاموح. يلمحنى اللاموح. يلمحنى ويصير يصيح: عجى حمد، يا ناس، عجى بواق الدواب، ابن قطاع الطرق، العجى الزنوة، صار يضرب المشايخ ويكسر القهاوى ولا

أحـد يرده؟ هاتوه، لى. هاتـوه حيـا أو مـيتـا، هاتوه: كـان صيـاح ابن جليوى، يملأ الآفاق.

وكأننا اخترقنـا، فجأة، حد الخوف، صـرنا نتجمـع ونتمنـع. بعضنا كان يسـيل باتجاه بعضنا الأخر. وكالمياه التقينا. بلى! الاكتاف تدافع الأكتـاف. الأيادى تتمـاسك. والأرواح تتـأهـب للقـاء. الآن يصل. الآن يطل. ساحـة التجهيـز الوحيدة فى الشـمال كانت تغص بالمتزاحمين: من الاختفاء إلى الاحتفاء !؟ كنا نتـزاحـم حقـا لـرؤية الرجل الجميل "يعـقـوب" الأحـمـر الثـورى، الذى تمرد منذ نعـومـة اظافـره. والذى سـجن، وأعـيـد سـجنـه، وسـجن من جـديد. الـعـزم من حـديد. كـان المغـدور ملك يردد. لا. لن يذهـب دم "كـيفـاوكيس" والآخـرين هدرا. كلمات تلى كلمات  بانتظار خطيب اليوم. الخطيب الذى ياما سـمعنا عن شـجاعتـه ومكره ودهائه، ابن القـصـر الجليل. الذى لا يلبس الا الجـوخ والحـريـر. والـذى فى مـخـازن اهله الـعـديدين تـوجـد المؤن والأقـوات. وتوجـد المـلابس والأصـبـاغ والكتب والدفـاتر والأقـلام والاحـلام. آه! يعـقـوب طالـب الجـامـعـة: جـامـعـة الشـام البـعـيـدة، الموجـودة غـرب الأرض، غـرب العـالم، ووراء النهـريـن: وراء الخـابور، ووراء الفـرات. وأيضـاً وراء المدن كلهـا: وراء الدير والـرقـة وحلب وحـمص وحماه. ويقـولون وراء النبك. ومن دونهـا الهضـاب العـديدة. ومن حـولهـا التـلال العـاليـة. وعندهـا تمامـا، يقـع الجـبل الـذى يظل مكللا بالثلج. المدينة كلهـا تجئ الـيـوم! المكان لم يعـد مـتـسـعـاً ولا مـأمـونا. وفـجـأة يـزداد الزحم زحـمـا. يكاد الجـمع كله أن يقـع على الأرض الرجل الطويل الجـمـيل الأنيق يصـعـد الشـجـرة. شـجـرة

الخطابات. الشجرة الوحيدة التى انتزعناها انتزاعاً من حوار ابن جليوى. حوار ابن الكلب.

آه هاهوذا يطلع الآن؟ ويرج الصياح الأرض: يسقط الاستعمار. يسقط. ويطل يعقوب الجميل. يطل على الجمع بنظرته المهيبة اللطيفة، وبابتسامته العدلاء المثيرة. ابتسامة الواثق العنيد. وبقوة وحماس، يرفع ذراعيه الطويلين يرفعهما بتأن وصبر. لكأنه يرفع بهما الجبل. كدت اصيح: ياويلاه! انه يتأهب للموت. كان يحكى! لم نكن نسمع شيئاً: صياح يتلو صياحًا. يعقوب يحكى. يعقوب يبكى. الشجرة تهتز. الناس جنت. كنت أصيح وأصيح: أنظروا انظروا. انه يتكلم والدم يتفجر من فمه مع الكلمات. وقبل أن تحط الأنظار عليه، كان يردد فى الأفق، وهو يطير: ايها الـ. ودوى الهتاف والتصفيق. وهوى العالم، كله. والرجفة تتلو الرجفة: يعقوب انذبح يا شباب. بعقوب انذبح . يعقوب. يعقوب.

كنت ارتجاج الجذع المعلق فى الريح. الأوراق التى انحنت فوق الرجل الجميل لم تحمه من الموت. والأغصان التى انسدلت فوقه بحنان أعلنت للملأ، كله، نهايته الصارمة. ولبرهة، رأيتنى أحثه. أحث شجر الحور الساكن على التمرد لا. لم أكن افهم بهاء الجو الذى صاحب تلك اللحظة المخيفة! لا. لم أكن أفهم، بعد، لماذا لا يتمرد الحور! الشجر، هو الآخر، يخاف؟ اللعنة! ماذا افعل الآن، وقد عرفت أن انحياز العالم انحياز انجز من قبل، ولا سبيل إلى تقويمه الا بتهديمه! صرت أهذى وأنا أركض. أعدد الموتى

والمنبوذين. اريد أن أصل الماء. أن اشرب الخابور، كله. قلبى غدا كالتنور. كان يعقوب لا يزال يتمايل، ومعه، يتمايل الجمع: من هنا، يا شباب. من هنا يا شباب. من كان يأمر من؟ وبأية لغة؟ وكيف؟

وأصير أتخمش الأرض. أريد أن ألقى النظرة الأخيرة على القاع. أن أرى التراب والحجر اللماع. لكن، لا؟ لسع خفيف صار يأتى ، فجأة، من الطرف القصى. لسع مصحوب بالقلع والخوف.

بتصميم، ألم أطرافى. استعيدنى من الشلل والموت! رجة عميقة وهاجة، كانت تعبر الصلب دون انقطاع. كنت أريد أن أرى العالم من جديد: ومن جديد، اصرخ عالياً، فى الفضاء: العزم من حديد! اصرخ، محاطا بالشلة والأحباب، ونحن نبعثر التراب. نريد أن ندمر العالم الحقير، كله. أن نهب انفسنا الفرح والحبور. من راقب الناس مات هما، وفاز باللذة الجسور.

كنت أريد! لكن المحنة التى بدأت أول النهار، تركت ما يشبه الهوة والفراغ. والجموع التى إلتمت صباحاً، لم تعد موجودة فى المساء. حتى القاع بدت قاسية ومرتبكة! وإذن، لم يعد امامنا الا أن نمشى، أن نمشى منذ الآن وإلى متى ؟ إلى متى ياويل؟ مشينا النهار، ونمشى الليل!

وبغتة أجره بعنف واصرار: ياويلك، تعال يا هواد. تعال انظر هاهوذا مقهى بحود امامنا. دحق. وبعنفه الخائف، كله، بسحبنى من الجمر. تعال أيها المجنون. تعال. وأجدنى انجر عنوة فى الريح. وأنا أصيح. ويسد بيديه، كلتيهما، فمى، ونحن نركض فى الليل: إلى

العـزيزية ! إلى العـزيزية! ويكرر بشـدة، وهـو يجـرنى، من جـديد: اركض. اركض. وأصيـر أنط كـالجـدى الطليق، قـافـزا أكدار الليل وأثلامه، مقتربا من المكان. وفجأة، أتخمش الأرض وانا أنهت الموت: العـزيزية، وصلناهـا! وبتـرجف هواد، خلفى: وصلناهـا؟! بلى ألا ترى النهـر؟ ألا ترى الماء اليابس والمحـصـور؟ انه مـاء "الجـغـجغ" البـائس الذى يجرى الهوينى، كثل بول المحـصـوب. نسيت "الجـغـجغ" يا هواد! نسيت النهيـر البليد الذى اختـفينا فى أوحـالـه المرة بعـد المرة؟! من ينسى الماء يا أحـمق! من؟ وأتملى فى سـواد الليل البـهـيم الماء. حـقـا انه الجـغـجغ: الماء أضـحل والنهـر أمـحل. آه! من بيـن جـمـيع الأبـحـار والأنهـار، يظلالجـغـجغ يحـار: هل يجرى أم لا يـجـرى. أكـاد اضـحـك. كـما من قبل! ولا أضـحك. لا! بحـركة شبـة يائسة، اتطلع إلى المعالم المحيطة بى. ألقـاء عليهـا النظرة الأخيـرة، برقـا، برقـا. ألم أشـتـات المدينة القـابعـة فى الوهـم: آه! لا حـركة. لا أحـد. لا ضـوء. لا ضـوء سـوى المـاء. الماء، وحـده، يجـرى فى أعـمـاق الأرض هـادئا مـسـتـتـبـا! والجـسـر الميت يمـتـد فـوقـه من الضـفـة إلى الضـفـة: جـسـر الحـجـر والطـين: الجـسـر العــجـين. وأكـاد أنام. وأنـام فـعـلا. أنام ثوانى. لحظات. دقـائق. سـاعـة. سـاعـات من يدرى؟ أى شى يمكن أن ينام الا القلب. والقلب على عباس. وأصنيـر أتلمس أعضائى الواحد بعد الآخـر. أبحث عن الحـرارة الضائعة. عن الوجد الذى كاد أن يغفو. عن لمسة عباس المتهيبة وهو يطارد البرية فى الليل.

وأكاد أصيح: امسكونى. خذونى إلى القيروان. إلى عباس الذبيح خـذونى. لكن الكائنـات التى كـانت تـأتى مع الضـبـاب منعـتـنى من

الصيح. آه! تلك الكائنات المدسوسة فى الريح، من أين كانت تجئ ؟ ها هى ذى تملأ وجه الأرض! من "جبل عبدالعزيز" تأتى إلى "جبل كوكب" البركانى الأسود تروح. تمر فوقى. تلمسنى. ألمسها. أتعلق بها وأرواح. أحمل فى حضنى سرير النهر، أخلى العزيزية فى السمت والصمت. أحيط بالحسكة ليلا. أولا من الجنوب. ولا من الشرق أولا، ومن ثم من الجنوب. احيط بها مبتهجا وعجولا. أريد أن أصل غويران. أن أرى ضحكة ثناياها. أن ألمس يدها الشفقية. أن أرتمى وأن أنام. النوم لا آخر له ولا قانون.

وأصير أتقدم الخطوة بعد الخطوة. مرة فى الماء ومرة فى الريح. الزول حولى ولا قول. العالم كله ينام: العسكر والغرب والأصرخة والأصفاد هواد، هو الآخر، ينام؟ يغط الآن فى نوم عميق! متى يفيق؟ وفجأة يتبدى فى ظلام الأفق القصى، بعيد نهدا التل الوحيد النابع من القاع تل غيوران العتيد. خلف التل غربا أصل الراحة والأمان ومن هنا إلى هناك على أن أذرع القاع وأن أشرع الماء وفجأة ينسد النهر الماء يتقطع إلى مياه كثيرة مياه تشرق ماء تغرب وزمواه عديدة أخرى تشق معالم القاع إلى البقاع بقاع ابن جليوى بقاع ابن الكلب!آه كيف أعبر الحفر والارتطام؟ كيف أصل وأصل حيا بلا خدوش؟ كيف؟ وأجدنى حقا أدور يحدنى سد التراب القاطع ويهدنى ماء الليل الساطع اللعنة! العدو من وراى والماء من ازائى وليس لى والله إلا عبر أو القبر

الحياة مليئة بالنماذج والنموذج الذى نختاره يدل على وعينا.

إنسان يعرف ما يريد

ويتحمل مسئولية ما يعمل

ولا يقبل الانصياع

ليس للماضى قيمة أن لم يكن موضوعا للنقد

ولا قيمة للحاضر إن لم يكن موضوعا للانتهاك

وأصير أحثنى على الرغبة ولاإقدام. النهر يصعد اصعد أنا الآخر النهر يهبط اهبط أنا الآخر وقريبا عند لمعة الفجر الأولى ألحق الآخرين أندس فى الفراش الدافئ عميقا أشرب ماء الدن النقيع اشربه حتى التخمة والانصهار بلى لكأننى بدأت اشم رائحة الخبز المسائى القديم: خبز آخر النهار والليل - الخبز الويل. ولكن كيف؟ كيف تنبع رائحة النار من الماء؟ كيف؟ أصرت أخبط الارض بماهيتى كلها اريد أن أشقها شقا أن أفلق الكر كما فلق بعصاه الفر، ومثل الكلب المدرب أركب الماء أحسنى أطير أنشل العلو بعد العلو لكأن أحشائى خلاء إلى أين وصلت؟ أضواء البيت البعيد أخذت تلح الآن تلمح نورا يأخذ البصر والفؤاد وأكاد أصل لا أكاد.

وأصير أحث نفسى من جديد العزم حديدا! المظاهرة ستنطلق بعد قليل ولابد هذا الصبح بعد ساعات الآن ربما هذا الآن مظاهرة المظاهرات وأكاد أرى أول الجمع يصعد العلوة، فى التو يسبقنى هنيهة أو هنيهات وفجأة اقذف اللجة والريح، وأنا أصيح يا أماه يا بنت الكلب، يا أماه! كنت قد بدأت أحس أن الانفجار قريب: انفجار يشبه الرقصة المجنونة: رقصة التوهج والاضطراب وأصير أنط أخيرا هأنذا فى الحوش الحوش الذى ألجه مرة أخرى فى آخر

الهجرة والليل الحوش الغافى حوش البؤس والوعثة والانكسار وانقذف عليهم كلى انقذف خارجا من الماد إلى القاع احيطهم ولا يحيطوننى أعدهم واحدا واحدا: النائمين والساقمين والممددين جنبا إلى جنب وبلا أصفاد اللعنة! هذه الاضرحة المهملة كلها لهم؟ وذلك الضوء البعيد الفاتك ضوء الحسكة والخابور لمن يفتح الشبق والليل؟

وفوقهم أتوقف أتوقف استياء أتملى الخلوة والريح أكاد من جديد أصيح لكن صوت يلجمنى الصوت صوت متواطئ ينوش شغاف القلب اللعنة من جديد ذلك الصوت صوت المذياع القديم الذى لا ينام مذياع جارتنا العتية أم سلطان بقوة أصيخ السمع أمد قامتى النحيلة نحوه: الصوت! ماذا يقول؟ «أم سلطان» لم تتم بعد! العهد لم يزل هو العهد؟

ولكن بلى! ولكن لا للصوت هذا رجة وحنين به انبهار وانكسار صوت يذمر القلب ويحير اللب، هذا الصوت! وهم مع ذلك ينامون!؟ الاضطراب غدا، الان شاملا وأكيدا: أمام هذه الارجل والأطراف النفس تعاف والقلب يخاف يد من هذه؟ وهذه رجل من؟ ورأس من هذه؟ وهذه بطن من؟ وأية قبة هى القبة؟ وهذا الجزء من أى جسد ينبثق وإلى أى جسد يروح؟ آه هذه الاجساد المنهكة النهية والأرواح البائسة الشقية لم تتغير منذ الغروب. فى الصبح تشقى وفى الليل تذوب لا لم أعد أطيق صبرا اهجم عليهم إذن؟ اهجم فى التو؟ أشيل الاغطية اهرس الاعضاء اكشف للضوء الانحاء؟ ابدأ من هنا أم من هناك؟

كنت عمقا أتعدد أتبدد كان المذياع القديم يستولى اللحظة بعد اللحظة على يردد فى ظلام ذلك الليل البهيم: بالضيعة أصحينا بكيرا/ على صوت العصافير/ قلنا شو صاير / قالوا الفرح عم القوم/ وحدة صارت ،يها اليوم/ غالية علينا كتير كتير!

وكنت أردد: من أنت خليل النعيمى؟ من أنت؟

## صدر للمؤلف

- «الرجل الذى يأكل نفسه» رواية، دار العودة، بيروت. ط٢ دار الثقافة الجديدة/ القاهرة
- «الشىء» رواية، دار الأفق الجديدة، بيروت ط٢. دار الجمل كولونيا/ ألمانيا
- «الخلعاء»: رواية، منشورات «أهواء» - باريس. ط١. دار الثقافة الجديدة، القاهرة ط٢
- «تفريغ الكائن»: ١٩٩٥ رواية. القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٥ - ١٦٧ ص
- «القطيعة»: رواية - القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٢. ط٢ - القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٩ - ٢٠١ ص

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٥٤٠ / ٢٠٠٢

I.S.B.N - 977 - 01 - 7902 - 7



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق فى
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك



مهرجان القراءة للجميع .. مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ مهرجان القراءة للجميع .. مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠ قرشاً